دكتور جورج حبيب بباوي

موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية
www.coptology.org

منظومة العصر الوسيط في المسيحية المصرية

دعوةٌ للمراجعة

منظومة العصر الوسيط
في المسيحية المصرية

دعوةٌ للمراجعة

دكتور
جورج حبيب بباوي

٢٠٢٢

اسم الكتاب : منظومة العصر الوسيط في المسيحية المصرية - دعوة للمراجعة

المؤلف د. جورج حبيب بيباوي

الناشر : جذور للترجمة والنشر والتوزيع
١٤ ش محمود حافظ ـ ميدان سفير ـ مصر الجديدة
ت: ٢٧٧٩٦١٣٧

الطبعـة : الأولى ـ يناير ٢٠٢٢

رقم الإيداع : ٢٠٢١/ ٣١٠٣٩

الترقيم الدولي : ISBN 978-977-5086-58-7

جدول المحتويات

تقديم: ٧

مقدمة: ٩

القسم الأول ١١

الفصل الأول: ١٣

جوهر المشكلة في لاهوت العصر الوسيط: ١٣

وحدة السماء والأرض تحت رأسٍ واحدٍ هو أقنوم الكلمة المتجسد: ١٦

إذن، هل يقدَّم البخور للصليب؟: ٢٣

الفصل الثاني: ٢٥

قصور تقوى العصر الوسيط عن استيعاب الرؤية الأرثوذكسية لله والإنسان: .. ٢٥

ماذا فعل بنا العصر الوسيط؟: ٢٥

الحقيقة هي أن المسيح حالٌّ فينا ومعنا بلا رموز: ٢٦

أولًا: اعتبار كبرى العقائد من أحداث الماضي البعيد: ٢٧

ثانيًا: اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح الواحد: ٣١

ثالثًا: أكبر كذبة في التاريخ الكنسي: ٣٣

رابعًا: الاستخدام الإعلامي والصحافي لكلمة "بدعة": ٣٥

تطرُّف العدمية Nihilism: ٣٨

الأيقونة – الرسم – العلامة – الحقيقة: ٤٠

الفصل الثالث: ٤٣

الأيقونة والحقيقة: ٤٣

الكاهن – الهيكل – المذبح – الذبائح: ٤٤

تجديد العهد والمذبح الجديد: ٥٤

الفصل الرابع: ٥٧

المذبح في الكنيسة الجامعة ومنظومة الأصولية الإنجيلية: ٥٧
الخلفية الحضارية والثقافية لمنظومة العصر الوسيط الأوربي: ٦٢
إعادة اكتشاف الآباء والقديس أوغسطينوس في مطلع القرن العشرين:..... ٦٣
الأصولية الكتابية ورفض حرية المحبة: ٦٥
الترتيب هو الطقس حسب التعليم الرسولي: ٦٦
الاتهام بالوثنية!: ٦٨
الفصل الخامس: ٧٣
ماذا يعني تجسد ابن الله في الحقيقة والواقع؟ ٧٣
الشركة والشِّرك والوثنية: ٧٧
غياب الشِركة من راديكالية الإلغاء: ٧٩
أوصال الشركة الإلهية الإنسانية حسب الكلمة المتجسد: ٨٤
ملحق: ٩٧
خلافًا لتقوى العصر الوسيط:
الصليب،... هو قوة الحياة التي أخذناها في المعمودية، وفي مسحة الميرون. ٩٩
قراءة وتأصيل لما نشره دكتور. حنين عبد المسيح: .....
ما هو جوهر المشكلة في فكر د. حنين عبد المسيح؟ ١٠٢
راديكالية الإلغاء: ١٠٣
راديكالية إلغاء التجسُّد: ١٠٥
وماذا عن البخور؟ ١٠٧
كيف تم تفكيك الكنيسة في عصرنا؟ ١٠٩
عذرٌ ولا عذر: ١١٠
الفرق بين الاختلاف في الرأي والرؤيا عقائديًا وسياسيًا: ١١١
استخدام قوالب سياسية لمحاصرة الكاتب: ١٢٤
ثنائية الوعي الإنساني التي ورثناها من العصر الوسيط: ١٢٦

القسم الثاني ١٤٧
تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (١): ١٤٩
المحبة الإلهية التي يسكبها الروح القدس (رو ٥: ٥).: ١٥٣
ملحق: ١٥٧
رد الأستاذ ماهر فايز على د. جورج حبيب بباوي في موضوع: ١٥٧
يا من تميتني عني:
تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (٢): ١٧١
ما هي التقوى المزيَّفة التي تفتقر إلى الأساس اللاهوتي؟: ١٧٣
العواطف الإنسانية العامة لا تكفي: ١٧٥
تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (٣): ١٧٧
غياب البُعد الكنسي: ١٧٧
العموميات القاتلة للحياة الروحية: ١٧٨
ماذا يعني غياب التعليم عن الكنيسة؟: ١٨٢
تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (٤): ١٨٧
الكلمة والسرائر: ١٨٧
الكلمة: ١٨٧
تقوى مزيفة بلا أساس لاهوتي (٥): ١٩١
فصل الكلمة عن السرائر: ١٩١
ما هو التعليم اللاهوتي الكامن في هذه الحقائق؟: ١٩٤
وحدانية الكلمة والرب في سر الإفخارستيا: ١٩٥
وحدانية الأقنوم الذي لا ينقسم إلى لاهوت وناسوت: ١٩٧
تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (٦): ١٩٩
كيف تحوَّل المسيح رب الحياة إلى فكرة في نظام عقلاني؟: ١٩٩
احتفاليات العهد الجديد: ٢٠١

العهد الجديد، وماذا يعني في احتفالية الكنيسة؟ ٢٠٤
المنهج الفردي: أنا على صواب والكل الآخر على خطأ ٢٠٦
العشاء الرباني تذكار عقلي فقط هو أكبر خطايا حركة الإصلاح: ٢٠٧
المسيح يسوع ملكنا كلنا: ٢٠٨
تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (٧) ٢١١
فهم الكتاب المقدس بالعودة للآباء، وتزييف الحياة المسيحية ٢١١
الإنسان الفرد، وفكره هو أساس كل شيء ٢١٨
أخيرًا: ٢١٨
حول قرار منع التراتيل البروتستانتية (١): ٢٢١
حول قرار منع التراتيل البروتستانتية (٢): ٢٢٣
درس عملي في الإفراز: ٢٢٣
ماذا نتعلم؟ ٢٢٥
أين الخداع؟ ٢٢٦
حول قرار منع التراتيل البروتستانتية (٣): ٢٢٧
لماذا يجب الابتعاد عن هذه التراتيل؟ ٢٢٧
قاعدة إفراز وتمييز ٢٢٧
هل هذه حرية، أم فقدان للشركة؟ ٢٢٨
عودة الوعي اللاهوتي: ٢٣٥
خطوات عملية لاسترداد الوعي اللاهوتي: ٢٣٩

تقديم

نُشِرت هذه الدراسة أولًا على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية[١]، ولكنها لم تكن في هذا الحجم، ولا بهذا التبويب. وعندما رأينا -أسرة الموقع- أن ننشرها ورقيًّا، استحسّنا أن نضم إليها مقالًا مهمًا كتبه الدكتور جورج بعنوان "**الفرق بين الاختلاف في الرأي والرؤيا عقائديًا وسياسيًا**"[٢] ردَّ فيه على ما نشره أحد الأخوة على صفحته على موقع التواصل الاجتماعي Facebook من اعتراض على بعض فقرات من المقال الذي نشره دكتور جورج على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية بعنوان "**خلافًا لتقوى العصر الوسيط: الصليب هو قوة الحياة التي أخذناها في المعمودية ومسحة الميرون**"[٣] ردًا على د. حنين عبد المسيح. فقد رأينا أن ضم ذلك المقال إلى هذه الدراسة يعطيها مزيدًا من الأصالة لأنه يغوص عميقًا في الأثر الذي طبعه سر التجسد الإلهي، ليس على الحياة المسيحية فقط، بل على الحياة برمتها، وهو الأمر الذي يفتقد إليه لاهوت العصر الوسيط برمته، ومن يسير في دروبه.

وإمعانًا في زيادة الفائدة، قسَّمنا هذا المجلد إلى قسمين؛ ضم أولهما الدراسة التي نُشرت في حينها على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية، والمقالين المشار إليهما بعاليه، واحتوى القسم الثاني منه على مجموعةٍ من سبع مقالات نُشرت على الموقع أيضًا بعنوان "**تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي**"، وثلاث مقالات أخرى بعنوان "**حول قرار منع التراتيل البروتستانتية**"، وذلك لشدة

---

(١) بتاريخ ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٩.

(٢) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ١٥ مارس ٢٠١٣.

(٣) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٨ أغسطس ٢٠٠٩.

الصلة والارتباط بين فكرة الدراسة الأساسية وهذه المقالات، إلى الحد الذي يكاد يكون موضوع هذه المقالات هو ذاته موضوع الدراسة الأساسية. واختتمنا هذا القسم بمقال عن **عودة الوعي اللاهوتي** يضع لنا فيه الدكتور جورج خطوات عملية لاسترداد الوعي اللاهوتي. وبذلك يشكِّل القسمان معًا دراسةً موضوعيةً لما خلقته منظومة العصر الوسيط من مشاكل لاهوتية، والسبيل إلى تلافي تلك المشاكل **باستعادة الوعي اللاهوتي بالعودة إلى فهم مراحل التدبير الإلهي فهمًا صحيحًا، وبالتالي فهم الحياة الليتورجية والنسكية في إطار هذا التدبير والتسليم الرسولي للإيمان.**

نضع هذه الدراسة بين يدي ربنا يسوع المسيح الذي صار شريكًا لنا في اللحم والدم، فصيَّرنا شركاء طبيعته ومجده وميراثه، لتكون وسيلةً نسترد بها وعينا اللاهوتي بما صنعه الرب من أجلنا، له المجد الدائم مع أبيه الصالح والروح القدس في كنيسته من الآن وإلى الأبد.

أسرة موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية

أول نوفمبر ٢٠٢١م – ٢٢ بابة ١٧٣٨ش
تذكار شهادة القديس لوقا الرسول الإنجيلي

مقدمة

نشر د. حنين عبد المسيح مجموعة كتيبات تحت عنوان كنت أرثوذكسيًّا والآن أبصر، ناقش من خلالها وجهة نظره عن كهنوت الإكليروس، وما أسماه عبادة الأصنام في الكنيسة الأرثوذكسية، وأيضًا ما اعتقد أنه بدعة الرهبنة.

وكنا قد نشرنا مقالًا على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية بعنوان: "**الصليب هو قوة الحياة التي أخذناها في المعمودية، وفي مسحة الميرون**"[1]، أوضحنا فيه أن الأساس الذي استند عليه فكر د. حنين عبد المسيح هو لاهوت العصر الوسيط الذي ما يزال يعيث فسادًا في أرجاء المسيحية المصرية. وبطبيعة الحال لم يكن هذا المقال بكافٍ لتوضيح ما انتهينا إليه؛ لذا تجيء هذه الدراسة لنتناول من خلالها بالتفصيل تلك الأصول التي تحمل عبء هذه الأفكار؛ ولنؤكد على أن **كل ما نشره د. حنين عبد المسيح** -ما عدا الهجوم على الرهبنة- **هو ثمرة العصر الوسيط وتقوى العصر الوسيط**.

يهمنا أن نؤكد على أن د. حنين ليس فريدًا في بابه، بل هو في ذلك واحدٌ من ألوف الأقباط، إن لم يكن هو صوت الأغلبية التي شربت من "مستنقع العصر الوسيط" الذي أفرز الفكر القبطي المعاصر الذي بدوره أخذ برواسب الثقافة المصرية العصر أوسطية التي تكاد تهرب من الاعتدال إلى التطرف بسبب نسيان "تاريخ وهوية مصر لكي تقع في أحضان ثقافة الصحراء"، التي لا تؤمن بالآخر ولا تقبل التعدد، رغم أن الآخر وتعدد الآراء كان من ملامح الحياة المصرية.

---

(١) وضعنا هذا في نهاية هذه الدراسة كملحق لها.

لذلك تجيء هذه الدراسة لتؤكد على ضرورة مراجعة المواقف من خلال إعادة فتح ملفات التاريخ الكنسي، وعدم إهمال ما تكوَّن على مر الأزمان من شروحات ونمو؛ لأن الابن الكلمة دخل التاريخ الإنساني متجسدًا، وبالتالي ليس من حق أحد أن يشطب الكنيسة من واقع الحياة الإنسانية.

تعبيرًا عن تحملنا مسئولية تنقية المسيحية المصرية مما ران عليها من تشوهات، وإبرازًا للوجه الحقيقي للأرثوذكسية في صورته الصافية الذي تعبِّر عنه الصلوات الليتورجية والتسليم الرسولي على أفضل ما يكون، نضع هذه الدراسة في يد الرب يسوع لتأتي بالثمار المرجوة ثلاثين وستين ومائة.

دكتور

جورج حبيب بباوي

صوم الميلاد المجيد ٢٠٠٩

الولايات المتحدة الأمريكية

القسم الأول

الفصل الأول

جوهر المشكلة في لاهوت العصر الوسيط

يبدو أن جوهر المشكلة، لا يكمن في فكر د. حنين عبد المسيح فقط، بل في لاهوت العصر الوسيط برمته، ذاك الذي أفرز د. حنين وغيره، ذلك أن **لُب المشكلة يظهر في الخلط بين الرمز والعلامة من ناحية، وفقدان العلاقة بين الحقيقة والعلامة من ناحية أخرى**[1].

(١) بدايةً، يجب الانتباه إلى تلك الفجوة التي تفصل بين المسيحية الأرثوذكسية، والأفلاطونية، والأفلاطونية المحدثة، فقد وقع عددٌ من علماء الليتورجيات، بل وبعض الآباء في فخ التشابه، وضاع منهم الاختلاف الجوهري بين المسيحية من جهة وبين الفلسفة من جهة أخرى. وإذا كان العالم المنظور بالفعل هو صورة رمزية للعالم السماوي الروحي، عندئذٍ يمكننا أن نلاحظ الالتقاء الفكري في استيعاب الرموز والعلامات التي تدل على ما هو سماوي أو روحي، على أن ذلك ليس كفيلًا بردم الهوة الفاصلة ما بين المسيحية الأرثوذكسية والفلسفة، ويمكننا أن نحدد عناصر هذه الهوة أو الفجوة فيما يلي:

١- الله يملأ الكون، ولذلك للحضور الإلهي علامات ورموز تبدو في دقة نظام الكون وتتابع الفصول ومنحة الحياة للكائنات.

٢- جاء تجسد ابن الله بعلاقة أخرى بين المادي والروحي، السمائي والأرضي، المنظور وغير المنظور، بل الرجل والمرأة، والكلمة والروح. هذه العلاقة سببها الاتحاد الأقنومي لأقنوم ابن الله الكلمة بالإنسانية (الناسوت)، فقد دخل الترابي والأرضي والمنظور والزماني في علاقة شركة مع الإلهي والسماوي والروحي غير المنظور، وتحول ابن الإنسان يسوع المسيح بالقيامة إلى حياة إنسانية مجيدة بمجد اللاهوت (فيلبي ٣: ١)، وهو ما يشدد عليه رسول المسيح في ١ كور ١٥ ابتداءً من عدد ٤٢ عن تحول الإنسان من آدم الأول الترابي إلى آدم الجديد الرب من السماء الذي هو وحده مصدر هذا التحول.

٣- هنا حدث تحولٌ في دلالة العلامة والرمز عجز لاهوت العصر الوسيط الأوربي والقبطي المعاصر عن استيعابه؛ لأنه عجز عن أن يربط هذا التحول بالتجسد والصلب والقيامة، كما عجز عن استيعاب إعلانات الله في رموز وعلامات الملكوت التي لا تُفهم بدون عمل استنارة الروح القدس الذي ينقل الشعب والخبز والخمر ومياه المعمودية وزيوت المسحة إلى مجال عمل الثالوث؛ لأنه هنا (أي في هذه المواد) يتجلى الكون بنعمة حلول الروح القدس الذي يمنح هذه الاستنارة، ولذلك تصبح العلامة **علامة حضور**، وهو حضورٌ يهب نعمة الاستنارة، أي أن العلامة ليست مجرد علامة تشحن الذهن، بل علامة تفتح الإدراك إلى تذوق قوة القيامة وحياة الدهر الآتي، مثل علامة الصليب، فرشمُ علامة الصليب =

بدايةً، ليس لدينا في الأرثوذكسية "رموزٌ" خاصة بالماضي، بل لدينا واقع واحد ربط السماء بالأرض ووحَّدهما معًا تحت رأسٍ واحد، هو يسوع المسيح (أف ١: ١٠). ما لدينا في الكنيسة ليس رموزًا، بل علامات تدل على وجود سمائي إلهي دخل دنيا البشر بتجسد الكلمة ابن الله (يوحنا ١: ١٤). **لدينا حلولٌ وحضورٌ دائمٌ للثالوث القدوس "الآب بالابن في الروح القدس"**[٢]. لدينا حضورٌ وحلولٌ لا ينقطع، تشير إليه علاماتٌ متعددة هي: الهيكل – المذبح – الصليب – الأيقونات - البخور – الشموع – الماء ... الخ.

وما أبعد الفرق بين ما هو لدينا، حاضرٌ معنا، وبين ما هو غائب أو بعيد أو "متعالٍ" ويجعلنا نحتاج إلى رمزٍ يعيد إلى الذاكرة الحدث البعيد الغائب عن

ختم = قوة تطرد الشياطين، وتمنح سُكنى وحلول الروح القدس.

كما تصبح **العلامة** إشارة إلى ما سبق أن تم وما يُعطى، مثل رشم الخبز والخمر بعلامة الصليب مصحوبة بعبارات التقديس: شَكَرَ وبارَكَ وقدَّسَ وقسَّمَ. وتأتي علامة وضع الختم الخاص بالسيد (الأسباديقون) في الكأس كعلامة القيامة من الأموات؛ لأن الدم هو قوة الحياة، كما أن وضع الجسد في الكأس يؤكد أيضًا أن (السيد) هو الذي يوزِّع جسده ودمه على المتناولين.

٤- العلامة والرمز كلاهما ينبُعان ويأتيان إلينا من تدبير الخلاص الذي لا يحتوي على أحداثٍ مرَّت وعبَرَت. لقد تجسد الرب، ولكنه لازال متجسدًا وساكنًا بيننا أو فينا (يو ١: ١٤). وسُكنى الرب فينا هي سُكنى المجد والقوة، وشركة في آلام موته وشهادة على حضوره، ولذلك كان الانكسار الحقيقي في زماننا هو أن نسمع أننا نعمل هذا وذاك لكي نتذكر، في حين أن ما نعمله هو علامات الطقس النابعة من سر الثالوث، ومن سر اتحاد الرب بالناسوت وسُكنى الروح القدس فينا، واتحاد الرأس الرب يسوع بالجسد.

هذه كلها بعيدة تمامًا عن تراث اليونانية القديمة الهللينية، ولذلك فهي (أي علامات ورموز الحياة الجديدة)، ليست مثل تلك في الأفلاطونية، بل هي حاملة قوة اللاهوت.

٥- وعندما نرسم أيقونة -مهما كان رسم القديس أو الشهيد- فإن الفنان المسيحي يرسم ما يراه في القلب، ويصبح الرسمُ صورةً أو أيقونةً تدل على مجد القيامة الذي وهبه الرب بقيامته؛ لأنه لا يوجد في المسيح "موتى"، ولذلك تصبح الأيقونة في الصلاة وحدها علامة حضور وشركة في حياة الدهر الآتي، وهكذا أيضًا تكون الصلبان مهما كان نوع وحجم هذه الصلبان، علامة حضور على ما حدث لنا في المعمودية، وما يحدث لنا في الحياة اليومية من أتعاب وسهر ومعاناة وشهادة للرب يسوع.

بناءً على كل ما سبق تكون العلامات هي علامات حضور الملك يسوع المسيح، وهي إشاراتٌ تشير إلى عمل الروح القدس وتفتح الإدراك لنوال الاستنارة لتذوق حياة الدهر الآتي، حياة النور والفرح السماوي.

(٢) القديس أثناسيوس: الرسائل إلى سرابيون. - الرسالة الأولى - فقرات ١٨ – ٢٦.

الواقع، والذي يُستدعى بواسطة الرموز لكي يُحيي في الذاكرة الإنسانية ما قد حدث وانتهى..!!!

هذه هي خلاصة شرح الطقوس حسب منظومة العصر الوسيط، التي تسللت إلى مؤلفات عزيزة علينا، درسناها، بكل أسف على أنها الأرثوذكسية، ولكن اكتشفنا، فضلًا عن خلوها من روح الآباء، أنها **تمهِّد طريق العودة إلى اليهودية، لا بل وإلى الإسلام نفسه**. لأن اليهودية تُحيي ذكرى حضور الله بالصلاة والأعياد. ولأن اليهودية بلا إله متجسد في حياة إنسانية هو يسوع المسيح، لذلك فأعياد وطقوس العهد القديم، بل وتقوى العهد القديم لا مجال لها في كنيسة العهد الجديد؛ لأن كل ما جاء في العهد القديم هو ظلالٌ للمسيح يسوع، ولذلك نطق رسول المسيح بالحق عندما قال: "لا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت التي هي ظل الأمور العتيدة" (كولوسي ٢: ١٦). فالوصية السابقة ضعيفة وبلا نفع (عب ٧: ١٨)، بل قد تغيَّرت الشريعة فعلًا (عب ٧: ١٢). والعهد القديم أصبح قديمًا فعلًا، قال عنه الرسول: "عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال" (عب ٨: ١٣)، والهيكل بكل ما فيه من رموز وطقوس وُضِعَ إلى "وقت الإصلاح" (عب ٩: ١٠)، وجاء موت الرب على الصليب وقيامته لكي ينزع القديم ويثبِّت العهد الجديد بدمه (راجع عب ١٠: ٩ – عب ١٣: ٢٠)؛ لأن الرب قام بدم العهد الأبدي (عب ١٣: ٢٠).

أمَّا المسيح يسوع، فهو واهب الروح القدس "الرب المحيي"، واهب الحياة الجديدة التي لا يمكن أن تخضع للموت أو الفناء "عالمين أن المسيح بعد ما أُقيم من الأموات لا يموت أيضًا (مرةً ثانية). لا يسود عليه الموت بعد" (رو ٦: ٩).

لكن عندما دخلت هذه الحياة الجديدة نفق لاهوت العصر الوسيط الذي يبحث في تطهيرات الجسد، وما قبل التناول وما بعد التناول من غسل الأسنان

والاستحمام ..إلخ، وعندما لم تعُد القيامةُ هي أساس الوجود في جسد المسيح الكنيسة، ولم يعُد الروح القدس هو الذي يجمع ويضم المؤمنين إلى المسيح وجسده الكنيسة (١كو ١٢: ١١ - ١٣)، تحوَّل المسيح رب المجد إلى طعام بائد خاضع للفساد، وتحول الكهنوت إلى سلطة، وتحولت علامات حضور الرب إلى رموز؛ لأن الرب غائب، والحدث غائب، ويجب استدعاؤه عن طريق هذه الرموز، وبالتالي كان الاتهام بالوثنية في حد ذاته دليلًا على غياب واقع الكنيسة الحي من الوعي.

وحدة السماء والأرض تحت رأسٍ واحدٍ هو أقنوم الكلمة المتجسد:

فنحن نقول عن الكنيسة إنها "بيت الملائكة"، و"بيت الروح القدس"، ومكان مبيت "الحمامة"[٣] كما قال ترتليان. ولذلك، فإن الحرص على الاتجاه نحو الشرق لا يجد تفسيره في ما ورد في تقوى العصر الوسيط من صعود الرب نحو الشرق .. الخ؛ لأن الاتجاه نحو الشرق جاء أصلًا من طقس الانضمام إلى الكنيسة في سر المعمودية، فالاتجاه نحو الغرب يعني غروب الحياة القديمة وجحد الشيطان، ومن ثمَّ يجيء الاتجاه نحو الشرق ميلاد النور الأزلي الذي يُعطى في المعمودية، وبالتالي يظل الاتجاه نحو الشرق حاملًا معه علامة الانضمام وهبة التبني، وقوة المعمودية، وهو ما يؤكده الاعتراف بالإيمان عندما يتحول الموعوظ نحو الشرق بعد جحد الشيطان.

لا يوجد هنا رمز، بل علامةٌ ترتبط أصلًا بعلامةٍ أكبر وهي علامة الصليب، **العلامة هنا هي التحوُّل الذي يتم في الإنسان نفسه**، هذا التحوُّل يتم حسب كلمات طقس سر المعمودية: "**ألتصق بك أيها المسيح إلهنا** ..."، وهي ذات العبارة التي وردت عند كيرلس الأورشليمي وغيره من الآباء. ومع الالتصاق بالمسيح، أي الاتحاد به تبرز علامة الصليب التي تُوضَع "ختمًا" على الجبهة

(٣) الحمامة هي علامة على حلول الروح القدس، وبالتالي استمرار سكناه في الكنيسة.

لقبول الموعوظ، ثم تصبح بعد ذلك نابعة من قوة الالتصاق والاتحاد بالمسيح في المعمودية.

إن ما غاب من الوعي المعاصر -وبسبب تقوى العصر الوسيط- هو إدراك أن التجسُّد هو اتحاد اللاهوت بالناسوت دون وساطة من "الزمان"، وبدون وساطة شريعة موسى، وبدون أي وساطة أخرى، وبالتالي لا توجد رموزٌ تدل على ما حدث، بل علاماتٌ تعلِن السر. هذه العلامات تعلن أن:

١- ما هو حادثٌ الآن، هو ما حدث أمس، ويحدث اليوم وغدًا وإلى الأبد (عب ١٣: ٨).

٢- ما يُعطى، هو الشركة في حياة الرب نفسه بالروح القدس.

تلك هي أُسس الممارسات الكنسية كلها من عقائد وطقوس (ترتيب) تعلن للإنسان ما يناله وتؤكِّد بقاء ما أخذه. وهنا بالذات تصبح العلامات ضرورة تؤكد لحواس الإنسان كلها الشركة في عطية الله بالنفس والجسد معًا.

فالصليب هو ختم المعمودية والميرون، وهو علامةٌ تمارَس بتحريك اليد اليمنى، تُدخلنا إلى أعماق الشركة في محبة المسيح الفائقة. أليس تحريك اليد من الشمال إلى اليمين، هو علامة انتقالنا من الدينونة والموت إلى الحياة الأبدية؟ أليس تحريك اليد من اليمين إلى الشمال حسب طقس (ترتيب) كنيسة الروم هو علامة سُكنى الروح القدس في القلب؟ أليس هذا هو الجانب السري في الحياة الدائمة التي لا انقطاع فيها حتى بالموت البيولوجي؟ ولكن إن تحوَّل الصليب إلى علامة خارجية لا تنبع من قلب الإنسان، ولا من قوة وعمل الروح القدس، فإن الترتيب يفقد العلاقة بالسر، وهذا يغري السذج بالهجوم عليه؛ لأنهم لم يعرفوا سر المسيح.

الصلبان من المعادن والأخشاب وغيرها، ليست في جوهرها قطعًا فنية

وأشياء تُقتنى لمجرد القنية. ولكن كانت الصلبان قديمًا توضع على أجساد الشهداء قبل استعمالها؛ لأن الشهيد هو تجسُّد حقيقي في اللحم والدم لصليب يسوع نفسه. وكانت قديمًا توضع حول العنق بعد المعمودية وليس قبلها؛ لكي يحمل كل مسيحي ختم الانضمام إلى الكنيسة. بل كانت علامة الصليب قديما -حسب رؤية معلمي الكنيسة- هي الاحتفال اليومي لكل مسيحي بالمصالحة مع الله ومع الكون ومع غيره من البشر. حتى في العصر الوسيط كتب أسقف بابليون الأنبا يوحنا يقول: "**كيف ترشم نفسك بعلامة الصليب وتُبغض أخيك أو تكرهه؟**".

ولكن يبدو أن هذه الرؤيا أصبحت غريبةً عن الثقافة السائدة في أيامنا.

وحتى لا يتوه البعض في خضم الجدل، نضع تحت أعيننا قوام هذه الرؤيا:

- إن الكون كله الذي يتمخض الآن مخاض الميلاد نحو الحياة الأبدية وفداء الجسد بالقيامة (رو ٨: ٢٢)، هو الكون الذي "يشرب من نهر النعمة الإلهية من الآب بالابن في الروح القدس".

- كما أن المياه تدخل شريكًا من الكون في ميلادنا.

- وكذلك الزيت كمسحة من شجرة الزيتون مع أطياب لها رائحة لا تفسد، مؤكِّدةً لنا أن الجسد مُسح مع النفس بمسحة عدم الفساد في يسوع الذي قام من الأموات بعدم فساد (أع ٢: ٢٧).

- أمَّا فيما يتعلق بالبخور، فقد غاب عن الوعي المعاصر أن القداسات وكل "ترتيب"، أي طقوس الكنيسة، هو وليمة العريس السمائي التي تجمع كل المفديِّين الذين رحلوا والذين لا زالوا على قيد الحياة. حيث يجلس الرب على رأس المائدة وعن يمينه الملكة وعن يساره المدعوين الرسل والشهداء والملائكة والشعب. فهذا هو طقس أو ترتيب جسد المسيح الكنيسة. ويُقدَّم البخور لكل

هؤلاء وللشعب الحاضر الشريك أو الشركاء في وليمة المسيح له المجد. الكل يُقدَّم له البخور؛ لان الكون المادي المنظور لم يُستبعَد من الفداء؛ ولأن ما هو **ماديٌّ** قد تأصَّل في ناسوت الرب نفسه، وقد تجلى بالنور الأزلي غير المخلوق، ولأن هذا ليس قاصرًا على الرب وحده، بل يجمع كل "أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يوحنا ١١: ٥٢).

فهل يُقدَّم البخور للصلبان والأيقونات؟

إن الدفاع من العهد القديم هو دفاع باطل مهما بدأ مغريًا للقارئ. وإنما الدفاع الأرثوذكسي الحقيقي هو أن "الكلمة صار جسدًا وسكن بيننا"؛ لكي يقدِّس الكل: الإنسان والكون بكل ما فيه، وأن نقدم الكون بكل ما فيه لله؛ لأننا أصلًا خُلقنا آلهةً تُقدِّم الكون لله حسب كلمات المزمور الثامن[٤]. **ولكن عندما غابت الهوسات والتسبحة السنوية من الوعي المعاصر، لم ندرك أن المسيح يتجلى في الكون، فهو الذي ينفخ حتى في "الأشجار حتى تزهر"، وبذلك تشترك كل الخليقة في ليتورجية كونية.** ولذلك صارت الصلبان والأيقونات والبخور والقداسات، وحدة واحدة إلهية – إنسانية، رأسها المسيح. وصارت المادة تلمع بالاستعلان الإلهي، ليس من تلقاء ذاتها، ولا لأننا نراها بعين الخيال البشري، وإنما لأن الحقيقة الكامنة فينا، الحقيقة الأبدية التي أخذناها في السرائر، لا تختلف عما هو كائن في الكون الصغير، أي كون الكنيسة الذي هو "خميرة الملكوت"، والتي عليها أن تخمِّر العجين كله.

---

(٤) "أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ حَيْثُ جَعَلْتَ جَلاَلَكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ! مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ أَسَّسْتَ حَمْدًا بِسَبَبِ أَضْدَادِكَ لِتَسْكِيتِ عَدُوٍّ وَمُنْتَقِمٍ. إِذَا أَرَى سَمَاوَاتِكَ عَمَلَ أَصَابِعِكَ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوَّنْتَهَا. فَمَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ!. وَتَنْقُصَهُ قَلِيلًا عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ جَمِيعًا وَبَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضًا. وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ. أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ"

وبالتالي، الصلبان مهما كان نوعها، والبخور، والمذبح، ليست أشياءَ منفصلة عن الحقيقة التي أخذناها والتي نعيشها.

عندما هجرنا اللغة القبطية، غاب عنا أن الميرون يُسمى اسمًا آخر هو ذات الاسم الذي يطلق على البخور "**πιⲥⲑⲟⲓⲛⲟⲩϥⲓ**"، بل هو ذات اسم ذبيحة الصليب، وهذه دلالة لا يخطئها الذهن المدرَّب على الحياة الكنسية.

يقول طقسنا القبطي عن الرب يسوع المسيح:

"**أيها المسيح إلهنا العظيم المخوف الحقيقي،**
الابن الوحيد وكلمة الله الآب،
طيبٌ مسكوبٌ هو اسمك القدوس.
وفي كل مكان يقدَّم البخور لأسمك القدوس.
وصعيدة (ذبيحة) طاهرة" (سر بخور عشية).

البخور هنا هو تقدُمةٌ تقدَّم للثالوث، والسبب ليس كما ورد في تقوى العصر الوسيط، بل لأن ترتيب الصلاة رَبَطَ بين البخور والذبيحة المسائية كما هو واضحٌ من الكلمات التالية:

"**نسألك يا سيدنا**
اقبل إليك طلباتنا
ولتستقم أمامك صلاتنا
مثل البخور
رفعُ أيدينا ذبيحة مسائية" (سر بخور عشية).

كل هذا يكتسب معناه الحقيقي حسب الكلمات التالية:

"**لأنك أنت هو ذبيحة المساء الحقيقية**
الذي أصعدتَ ذاتك من أجل خطايانا
على الصليب المكرم
بإرادة أبيك الصالح" (سر بخور عشية).

وذبيحة المساء، حسب ترتيب العهد القديم كانت تسمى "المنحة"، أي الهبة أو العطية. إذن، فالصليب هو سبب تقديم البخور للرب، ليس للذكرى، بل "صعيدة" و"شركة" تقدِّمها **العلامة**، أي **البخور**، فالاسم القبطي **πις̀θοινουϥι** هو ذات اسم مسحة الميرون، وهو ذات اسم الصلاة حسب الكلمات السابقة، وهو أحد أسماء رشم الصليب، بل أن رشم الصليب يوضع بالميرون نفسه بعد المعمودية.

لقد جاء الفصل بين الحدث والعلامة مع كتب الإرساليات، ودخل تعليم العصر الوسيط الأوروبي إلى اللاهوت القبطي من عدة مصادر، هي: كتاب علم اللاهوت، الذي أعادت نشره "دار الثقافة" أخيرًا – تفاسير وليم ماكنتوش – محاضرات الأب أوجين دي بليسي التي كان يلقيها في الكلية الإكليريكية بالقاهرة.

وهكذا تعلم الأقباط ثقافة العصر الوسيط من خلال المفردات الآتية:

- عقيدة الكفارة والفداء.
- مصالحة العدل والرحمة.
- الكفارة لترضية العدل الإلهي لدرجة احتراق الابن وتحوله إلى رماد.
- ذبيحة غير محدودة لأن الخطية غير محدودة ... الخ.

ولا داعي لذكر أسماء الذين دافعوا بمرارة وأحيانًا بقسوة عن تعليم أوروبي لفظته الكنائس الأوروبية لكي يستقر في مجلة الكرازة وكتاب بدع حديثة.

ولم يَدُر بخَلَد هؤلاء أن هذا التعليم وضع الصليب في ذاكرة الإنسان، وجعل علامة الصليب علامةَ عقابٍ وتشفٍّ، وأدخل التعليم بغضب الله الآب، وفصل الآب والابن عن الروح القدس ... الخ.

وأخيرًا لم يدرِ هؤلاء أن الإفخارستيا صارت بدورها ذكرى لما حدث، ذكرى

تحدث في عقل المؤمنين وليست سرًا كائنًا يُعطى من الرب يسوع نفسه.

ورغم أن المجال يضيق عن شرح ما جاء به العصر الوسيط، لكن علينا أن نلاحظ الفرق الكبير بين ما يعلِّم به هذا اللاهوت، وبين تعليم الأرثوذكسية:

- المسيح الرب قدَّم جسده على المستوى الأزلي قبل تجسده؛ لأن دم المسيح معروفٌ قبل تأسيس العالم (١بطرس ١: ١٩-٢٠)، تقديمٌ تم حسب الإرادة (عب ١٠: ١٠). هذه الإرادة مستعلَنة في الزمان وعلى الجلجثة.

وهذا هو الجانب الأزلي السابق على خلق العالم:

"**اخترنا فيه قبل تأسيس العالم.**
سبق فعيننا للتبني بيسوع المسيح
حسب مسرة إرادته" (أفسس ١: ٣ - ٤).

فما تم قبل تأسيس العالم أُعلن في الزمان:

"**لمدح مجد نعمته التي أنعم بها علينا في المحبوب**
الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا
حسب غنى نعمته" (أفسس ١: ٦).

لكن ما أُعلِن في الزمان يُعدُّ بلا أساسٍ إذا قيل إنه تم فقط في الزمان وعلى الجلجثة في تاريخٍ قديم؛ لأن ما يقصده الرسول هو عكس ما هو سائد الآن:

"**إذ عرَّفنا بسر إرادته حسب مسرته التي قصدها في نفسه**
لتدبير ملء الأزمنة؛
ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض
في ذاك الذي نلنا فيه نصيبًا
معينين سابقًا حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي
إرادته" (أفسس ١: ٩ - ١١).

هكذا يبدو التعليم "العصر أوسطي" عاريًا بلا أساس أزلي في الله نفسه.

أمَّا إذا عُدنا إلى الترتيب الكنسي نفسه، وجدنا أن:

- ذبيحة الرب، هي الرب نفسه.
- هي فعل وحركة المحبة الإلهية.
- هي شخصٌ حاضرٌ حالٌّ معنا (عمانوئيل حالٌّ في وسطنا).
- وهو حالٌّ بالروح القدس.
- قدَّم نفسه بالروح الأزلي (عب ٩: ٩ – ١٣).
- أقام عهدًا أبديًا إذ قام من الأموات "بدم العهد الأبدي" (عب ١٣: ٢١).
- هو الذي يقدِّم جسده ودمه، وليس الأسقف أو القس، ويقدِّمه لنا بالروح القدس حسب التسليم الكتابي والآبائي الذي سُلِّم لنا في القداسات.

فهل يمكن بعد ذلك -مع دوام التقديم وبسبب دوام العلاقة بين الرأس، أي المسيح والجسد الكنيسة- أن يدخل الزمان وتدخل المسافة لفصل الرأس عن الجسد؟!

إذن، هل يقدَّم البخور للصليب؟

نعم؛ لأن البخور والصليب علامة واحدة تعلن سر المحبة الأزلية. كما أن الأيقونات لها ذات الترتيب الإلهي نفسه.

هل يوجد دليل أفظع على غياب "تقديس المادة بسبب تجسد الابن" من تعليم حركة الإصلاح، أو من التعليم القبطي السائد، من معاملة الجسد على أنه قذر ونجس يحتاج إلى التطهير بالماء، رغم أنه تقدَّس في مياه المعمودية، ومُسِحَ بالميرون، ويغتذي بجسد الرب ودمه؟

هل يوجد ما هو أفظع من أن ننال الدخول في هذه النعمة، ثم ننكر قوتها ونتحول بعد ذلك إلى ما جاء في تقوى العصر الوسيط من ممارسات قائمة على المنع والتحريم؟

ومثل الصليب والبخور والميرون، هكذا أيضًا الأيقونات، فهي علاماتٌ على وحدة الكنيسة عبر العصور؛ لأن الآباء والشهداء والقديسين ليسوا فقط مجرد أسماء في ذاكرة الكنيسة -هذه عبادة يهودية عشنا تحت ظلالها وظلامها لأنها يهودية بلا مسيح- لكن هؤلاء الذين نراهم في الأيقونات هم شركاء في قداسة الروح القدس (عب ٦: ٤ مع عب ١٢: ١٠)، هم شهودٌ حاضرون حسب مستوى واستعلان الكنيسة الواحدة في كل الدهور. هم ضيوف الوليمة السماوية التي تُستعلَن في القداسات حيث الرب هو الملك وعن يمينه الملكة والدة الإله، ثم ضيف الشرف يوحنا المعمدان وباقي الضيوف. هؤلاء يقدَّم لهم وللشعب أيضًا الطيب المسكوب، أي اسم الرب والبخور؛ لأننا في وليمة واحدة.

السِّرُّ لا يفصل بين العلامة والشخص. لكن الفصل بينهما دخل مع تقوى العصر الوسيط التي فصلت العلامة المنظورة عن النعمة غير المنظورة، وبقدرة عقلية لا علاقة لها بالإنجيل وَصَفَت السرائر بأنها "وسائط النعمة"، بينما هي شخص المسيح المُستعلَن في الصلوات، والمُعلَن بالروح القدس، والذي تدل عليه كل علامات السرائر. لا يوجد فصل بين علامة الصليب والمصلوب، أيهما يُعلن الآخر لأنهما معًا وحدة واحدة.

الفصل الثاني

قصور تقوى العصر الوسيط
عن استيعاب الرؤية الأرثوذكسية لله والإنسان

ماذا فعل بنا العصر الوسيط؟

تقع مسئولية استمرار لاهوت العصر الوسيط في الوجود في المسيحية المصرية حتى الآن على الإكليروس الذي يدافع عن تعليم عقلي لا علاقة له بالعلاقة الشخصية بين المؤمنين والمخلِّص نفسه. وعند شرح الطقوس نجدهم يعودون إلى العهد القديم؛ لأنهم لم يدرسوا الآباء ولا حتى الليتورجيا نفسها. ولهذا دخلت ممارسات شعبية لا علاقة لها بالإيمان لم تكن معروفةً حتى عصر قداسة البابا كيرلس السادس مثل السجود للبطريرك والأساقفة وغيرها من مظاهر لم تكن معروفةً في التاريخ الكنسي، فالسجود هو اعتذار، ولذلك حرصت اللغة القبطية – العربية على التعبير عنه باستخدام كلمة مطانية، أي "توبة" عن عمل أو تصرف خاطئ ضد أي إنسان، وهو سلوك ينتمي إلى آداب الرهبنة، وهي بدورها -أي الرهبنة- إذا عُزلت عن الرؤيا الأرثوذكسية لله والإنسان، تبدو ضد الطبيعة، ولكنها -في حقيقتها- اختيارٌ حرٌ لحياة القيامة، أي الدهر الآتي، بينما لا زال الذين اختاروا هذا الطريق أحياء في ذلك الجسد الترابي.

طبعًا هذا هو الأصل. أمَّا الذين يفشلون في سلوك هذا الطريق، فهم مثل غيرهم من أبناء وبنات الكنيسة الذين يفشلون في اختبار التوبة وحياة

التجديد، والعيب ليس في منظومة الإيمان، أو الطقوس، أو الممارسات الكنسية، بل في فشل البشر في الخضوع للنعمة.

مَن يخرج علينا ليقول إن الرهبنة هرطقة، هو إنسان فشل في إدراك أن البتولية هي ارتفاع وسمو التوبة، وعطشٌ إلى الله يختاره الإنسان حرًا، ويتركه إذا تعذَّر عليه دون أن يقع عليه لوم؛ لأن ترك البتولية ليس ذنبًا أو جريمةً، فهذا هو فهم مدارس القانون التي لا تعتمد على التعليم العقيدي اللاهوتي، ولذلك لا تمنع الأرثوذكسية أي راهب ترك الرهبنة من الزواج ولا تعتبر أنه انحرف أو أخطأ.

الحقيقة هي أن المسيح حالٌ فينا ومعنا بلا رموز:

لعل أكبر أخطاء العصر الوسيط هو عدم إدراك أن الرموز والعلامات والاستعارات والتشبيهات هي دلالات تؤكد وجود حقيقة ماثلة يشير إليها الرمز؛ لأن كلمة رمز هي الكلمة اليونانية σψμβολα وهي كلمة مركبة من σψμ والفعل اليوناني Βλεπω ولغويًا الرمز هو وضع شيئين معًا لكي تكمُل الرؤيا وتظهر الحقيقة. وهنا نحيل القارئ إلى البحث الجيد الذي نشره الأب الكسندر شميمان ضمن كتابه "من أجل حياة العالم" عن السر الكنسي والرمز[1].

ودون أن نرهق القارئ في متابعة التطور اللغوي والتاريخي الذي مرَّ به لاهوت الأسرار الكنسية في الغرب بشكلٍ خاص، والذي نقل عنه الذين درسوا المؤلفات اللاتينية في اليونان ابتداء من George Scholarios (١٤٠٥م – ١٤٧٢م)، والذي رُسِم بطريركًا وعُرِف باسم جناديوس Gennadios وعشق توما الإكويني لأنه كان يجيد اللاتينية، نحيل القارئ إلى أول دراسة أرثوذكسية

(١) راجع الأب ألكسندر شميمان، من أجل حياة العالم، تعريب الأرشمندريت توما بيطار – منشورات النور – بيروت – لبنان، ١٩٩٤، ص ١٩٠ وما بعدها. راجع أيضًا الأصل الإنجليزي ص ١٣٥ وما بعدها.

حديثة بعنوان "الأرثوذكسية والغرب" Christos Yannaras, Orthodoxy and the West نشرها Holy Cross عام ٢٠٠٦.

ومجمل القول هو أن التعليم اللاهوتي النظامي systematic خُلق للدفاع عن العقيدة المسيحية على أساس فلسفي، فالغرض نبيل والهدف مقدس، ولكن لم يكن هذا التعليم الفلسفي، مهتمًا بالجانب المستيكي أو السِّري، وإن كان ذلك ليس عن قصد أو سوء نية. وعندما أدرك علماء اللاهوت من الكنيسة الكاثوليكية هذا النقص، صدرت دراسات توزن بالذهب، ولعل أشمل دراسة وأكبرها حتى الآن هي دراسة الأب الكاثوليكي:
Cyrian Vagaggini, Theological Dimensions of the Liturgy, 1976

والمجال لا يسمح بذكر رواد القرن التاسع عشر من عظماء الكاثوليك، فهم الذين شقوا الطريق خلال تراكمات العصر الوسيط.

إذا عدنا إلى مصر العزيزة التي هي القلب والفكر والروح والجسد، دون أن ندخل في استعراض آلام ومضايقات ربع قرن من الزمان سيطر فيه الرعب والخوف من القطع من شركة الكنيسة، وتوقفت مراكز البحث عن البحث، يمكننا أن نرصد عدة حقائق بارزة لا يمكن تأجيل البحث فيها؛ لأننا نراها ماثلةً أمام عيوننا وتشهد لها المقالات والكتب التي صدرت وتشن حربًا بلا هوادة ضد كل ما هو أرثوذكسي.

أولًا: اعتبار كبرى العقائد من أحداث الماضي البعيد:

وتأتي على قمة هرم ذلك الماضي الذي صنعته عقلية العصر الوسيط عقيدة "تجسد الابن الكلمة ربنا يسوع المسيح". فهو حدثٌ تم وانتهى، فالمسيح تجسد وبعد ذلك صعد إلى السماء وأصبح ما لدينا هو ما يجب أن يُشحَن في العقل "للتذكر".

لماذا نفعل هذا وذاك؟

لكي "نتذكر". الاتجاه للشرق هو تذكر الفردوس. كما أن صعود المسيح كان شرقًا.

ولكن الفردوس هو الكنيسة، والشرق جاء من الاعتراف بالإيمان في سر المعمودية. إذن، فقد ضاع الفردوس، ولم يعد الاتجاه للشرق هو عودة للاعتراف الذي قُدِّم في سر المعمودية بعد جحد الشيطان. وبالتالي لابد أن يسأل العقلاء: "الله موجود في كل مكان، فلماذا الشرق بالذات؟" عندئذٍ يدور الجدل حول تلك الأرثوذكسية التي غابت عن فهم واستيعاب الرموز، وغاب أن الاتجاه للشرق هو عودتنا إلى الفردوس، والأكل من شجرة الحياة، والاعتراف بالمسيح، وهو تحوُّل الإنسان كله إلى الخليقة الجديدة.

وإذا سألت عن سبب وجود شمعتين على المذبح قيل لك ولي إنهما يُذكِّرانا بالملاكين عند قبر المسيح، واحدٌ عند الرأس والآخر عند القدمين. والمصيبة الكبرى هي أن هذا جزءٌ من الحقيقة التي ذكرها الإنجيل المقدس (يو ٢٠: ١٢)، لكن الحقيقة كلها هي أن المذبح هو عرش الثالوث، وأننا أمام بشارة القيامة؛ لأن هذا المذبح، وحسب الترتيب "حضن الآب" في الشرق، **فالمذبح ليس قبرًا حوله ملاكين، بل هو المائدة السماوية التي تقف كل رتب الملائكة حوله**، ومنه بشارة الحياة بالأكل من شجرة الحياة. والشمعتان علامةُ الحياة والنور والبشارة الملائكية بقيامة الرب ومصالحة السماء والأرض. التجسُّد يعني سُكنى المسيح بيننا، هو آت دائمًا إلينا "عمانوئيل إلهنا في وسطنا". هو حسب تعبير القديس أثناسيوس "الحضور المتجسد"، والروحُ حالٌّ دائمًا فينا من بعد المعمودية. والاستدعاء هو عودة الوعي لهذا الحضور الدائم غير المنقطع.

ما علاقة كل هذا بالتجسد؟

البداية هي "اتحادٌ بلا انفصال وبلا تغيير"، هو حلولُ ملء اللاهوت جسديًا (كولوسي ٢: ٩).

هذا قضى على كل طقس يُقرِّب الله من الإنسان، أو الإنسان من الله. وهذا بدوره جعل ما لدينا من رموز بالمعنى السابق -وهو وضع شيئين معًا لكي تكمل الرؤيا- يقصر عن التعبير عن الواقع، فالواقع أكبر من كل الرموز. فقد جاء التجسد بالمذبح، وصار المذبح هو المائدة؛ لأن اسم المائدة لم يُحذف من الليتورجيات الأرثوذكسية؛ لأن التقديم أو القربان يكمِّل الرؤيا.

لقد جاء التجسد بشركة القديسين؛ لأن المسيح الحي لا يوجد فيه عضوٌ ميت، وشركة القديسين هي الكنيسة.

لقد جاء التجسد بصلاة تختلف تمامًا عن صلوات العهد القديم؛ لأن رأس الكنيسة ابن الله حمل في أقنومه الإلهي الناسوت، ووحَّده بجوهر اللاهوت معلنًا أن الصلوات هي في الله ولله، هي في الابن وبالروح القدس لله الآب، فهي ليست لله فقط، لأن الابن هو الوسيط.

وصعود الابن له المجد بالجسد يؤكد بقاء الاتحاد بين لاهوت الله الكلمة والناسوت اتحادًا أبديًا. فكيف انعكس هذا على الممارسة الكنسية، لا سيما في خدمة السرائر؟

صارت طقوسنا كلها مع الصلوات نابعة ومؤكِّدة لهذا الاتحاد الأقنومي.

- لماذا يرشم الكاهن الشعب كل مرة يقول فيها: "السلام لجميعكم"؟ تقوى العصر الوسيط تقول إنه على سبيل البركة، بينما روح صلواتنا تقول إن الرشم تأكيدٌ على مصالحةٍ بلا ندامة، على تدفق المحبة الإلهية لغير المستحقين، يؤكدها ختم الغفران، أي رشم الصليب.

- لماذا يقول الشماس حسب دقة اللغة اليونانية: "قوموا للصلاة"، وليس "قفوا للصلاة"؟ لأننا "قياميون" قد أخذنا عربون القيامة بقيامة الرب من الأموات، وهو ذات نداء الشماس عند قراءة الإنجيل: "قوموا بخوف من الله واسمعوا الإنجيل المقدس"، فهو ليس الوقوف، ولا هو الاحترام حسب شرح العصر الوسيط، بل هو القيامة التي يمارسها الجسد بالنفس التي أُقيمت في المسيح؛ لأن "المعمودية هي قيامة النفس".

لقد جرى تفتيت حياة الرب في الجسد إلى تجسد، وصلب، ودفن، وقيامة، وصعود، في حين أن كل هذه الأحداث هي إعلاناتٌ عن المصير الأبدي للإنسان، وقد أُعلنت في ذات ناسوت الرب الواحد، فإذا تجاوزنا هذه الحقيقة، كانت النتيجة الطبيعية لذلك هي تقسيم المسيح الواحد، وبالتالي نفقد الرؤية الشاملة لتدبير الخلاص.

- جاء اتحاد اللاهوت بالناسوت بصراخ الكنيسة الجامعة: "يا رب ارحم"، ليس لأن الله قاسٍ، وإنما لأننا اتحدنا بالمسيح بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، ولذلك يُوحي إلينا هذا الاتحاد بصلاةٍ واحدة، هي طلب الرحمة بسبب ضعف محبتنا لله وللآخر والكون، ولأن الآخر هو في المسيح، والكون استُدعي بواسطة الابن للفداء، ومن جانبنا حتى صلوات الأواشي كلها هي أكبر من طاقة وقدرة أي كنيسة على العمل بما فيها، فلا رجاء لنا إلَّا في "رحمة الله العظمى".

- التجسد هو سبب وجود المذبح في الكنيسة؛ لأن الذي ذُبِحَ هو "حمل الله" وهو سبب بقاء اسم "المائدة" كاسمٍ آخر يؤكد لنا أن عمانوئيل هو خبز الحياة النازل من فوق من عند الآب لكي يهب الحياة للعالم (يوحنا ٦: ٣٣).

- والتجسد هو سبب بناء الهيكل؛ لأن جسد ربنا يسوع دُعي "هيكل الحياة" (تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس حيث وردت كلمة "هيكله" أي

الناسوت عدة مرات، راجع ٨: ٣ – ٢٢: ٥ - ٢٦: ١ – ٣١: ٤).

والتجسد هو الذي جعل الرب "البكر بين إخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩)، لأنه اشترك في اللحم والدم مثل باقي البشر، وتقدَّم علينا كباكورة (عب ٢: ١٤، مع كولوسي ١: ١٨).

ثانيًا: اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح الواحد:

يقول القديس كيرلس السكندري عن الاتحاد الأقنومي:

"المسيح حقًا هو سرٌ عجيب فائق، ففي صورة العبد نجد الربوبية، وفي الكيان الإنساني نجد مجد اللاهوت"[٢].

ورفض التعليم النسطوري برمته يعني بالنسبة لنا -كبشرٍ- أن النعمة لها مصدر واحد وهو الله؛ لأننا نشترك بالعطية لكي ننال ما هو من الله، والذي هو من طبيعة الله[٣].

"نحن ترابيون، فينا التراب من آدم الأول الترابي، أي اللعنة والانحلال، لكننا صرنا سمائيين، وأخذنا هذا في المسيح؛ لأنه بالطبيعة الله،
وهو الكلمة من فوق، أي من الله، ونزل إلينا متجسدًا،
فوُلِد بالجسد من الروح؛
لكي يجعلنا مثله ونصبح قديسين وبلا فساد،
وتنزل إلينا النعمة من فوق
ويصبح لنا بدايةٌ ثانيةٌ وأصلٌ جديدٌ فيه"[٤].

---

(٢) القديس كيرلس الكبير، المسيح واحد، ترجمة وتقديم د. جورج حبيب بباوي، مركز دراسات الآباء، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٧٢.

(٣) راجع، المسيح واحد ص ٤٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٣١.

هذا الاتحاد له شهود:

- والدة الإله.
- آباء الكنيسة.
- الشهداء.

هذا الاتحاد له علامات:

- رشم الصليب.
- الأيقونات.
- البخور.

الحقيقة الحاضرة هي حلول الثالوث فينا نحن البشر، وعلامات هذا الحلول هي:

- **الهيكل**، وهو أصلًا هيكل جسد الرب يسوع الذي صار الهيكلُ في الكنيسة علامةً عليه.
- **المذبح**، وهو علامة ثبات إرادة الرب الدائمة التي لا تتحول والباقية دائمًا لكي تعطي.

الصليب في عيني مَن يعرف أن يرى هو نهر المحبة الفياض الذي فاض بقيامة الرب الذي "بالموت على الصليب داس الموت". ولكن الكلام كثيرٌ، والاعتراضات سهلةٌ على كل مَن يفتِّش عن اعتراضاتٍ في العهدين، وعلى كل مَن حوَّل الصليب إلى حدث انتهى يوم الجمعة، وأصبح ما تبقى منه مجرد ذكرى تقبع في عقل الإنسان.

الاعتراضاتُ سهلةٌ على كل من حوَّل المسيح الرب إلى فكرة في الذاكرة، فكرة قابعة في الزمان الغابر، أو إلى علاقة عقلية لا تمس الواقع، أي الوجود المادي.

ثالثًا: أكبر كذبة في التاريخ الكنسي:

قد يندهش القارئ إذا قلنا إن **أكبر كذبة قيلت في تاريخ المسيحية شرقًا وغربًا معًا في آنٍ واحد هي القول بأن الكتاب المقدس هو مصدر التعليم الوحيد في الكنيسة**، والدليل على ذلك:

١- اختلاف الذين وضعوا هذا المبدأ في القرن السادس عشر فيما بينهم حول الكثير ابتداءً من العشاء الرباني وانتهاءً بخدمة الكهنوت، ولهذا السبب نجد أنه قد تفرَّع عن هؤلاء قرابة ٣٩٠٠٠ شيعة لا تزال تدَّعي وتعلِّم ذات الكذبة: أن الكتاب المقدس هو مصدر التعليم الوحيد.

وإذا أردنا أن نتتبع كيف انقسمت حركة الإصلاح إلى لوثرية – مشيخية (كالفن) – مُصلحة (زوينجلي) - ..... الخ، لوجدنا أن المأساة بدأت على النحو التالي:

* أفكار مُسبقة *presupposed ideas* تُفرض على نصوص الكتاب المقدس.

* قراءة شخصية بلا أساس تاريخي، وبدون العودة إلى مدونات العصور الأولى.

* وضع الكتاب المقدس في مواجهة الأم التي أعطته الولادة وحافظت عليه، وهي الكنيسة التي سبق وجودها في التاريخ وجود كل أسفار العهد الجديد.

٢- عندما جفَّت ينابيع الفكر في الأوساط الإنجيلية، عاد هؤلاء إلى شرح وعظات آباء الكنيسة على أسفار العهدين، وتوالي أكبر دور النشر الإنجيلية حاليًا نشر شرح كامل لكل أسفار الكتاب المقدس تحت عنوان:
Ancient Christian Commentary on Scripture, General Editor, Thomas C. Oden

والسبب في هذه التوبة هو اكتشاف الجذور التاريخية للمسيحية، ومحاولة رأب الصدع الذي جاءت به حركة الإصلاح.

٣- إن العهد الجديد بالذات هو "بشارة"، و"شهادة". فهو ليس كتاب لاهوت أو كتابٌ يشرح الممارسات الكنسية. ولعلك -عزيزي القارئ- إذا سألت نفسك بدقة وأمانة عن مصدر الصيغة: "باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين"، لوجدت أن النص حسب إنجيل القديس متى ورد: "باسم الآب والابن والروح القدس" (متى ٢٨: ١٩)، لكن الإضافة "الإله الواحد"، هي من الممارسة الكنسية.

ولعلك عزيزي القارئ قد لاحظت أن العهد القديم لا يُقرأ في القدَّاسات، وإنما فقط مقتطفات وفصول مختارة منه تقرأ فقط في الصوم الكبير وأسبوع الآلام، والسبب في ذلك أن الصوم الكبير كان مناسبة تعليم الموعوظين وإعدادهم للمعمودية.

ولكن الجدل مع شهود يهوه تلاميذ أريوس، كشف أن العودة إلى العهد القديم، جعلت هؤلاء يشرحون العهد الجديد بمنظومة العهد القديم، وهو الاتجاه الذي أسَّسه يوحنا كالفن. وهو ما يفسر ترك شهود يهوه لكلمات الرب يسوع نفسه: "لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهودًا في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض" (أع ١: ٨)، فلأن اسم يهوه حل محل اسم الآب، ضاع منهم الإيمان بأُلوهية الابن وأُلوهية الروح القدس ولم يعد هؤلاء هم شهود يسوع، بل شهود العهد القديم. وهو المصير الذي ينتظر كل من يحذو حذوهم.

رابعًا: الاستخدام الإعلامي والصحافي لكلمة "بدعة":

تعليقًا على وصف د. حنين الرهبنةَ بالبدعة، نقول إن التاريخ الكنسي لم يعرف ذلك الاستخدام الوافد إلينا من الثقافة المعاصرة، وهو تجريم الممارسة، باعتبار أن ممارسة الحياة اليومية -حسب تقدير د. حنين- يجب أن تخضع

لنمط واحد وأسلوب واحد، هو الزواج.

البدعة = الكلمة اليونانية الأصل "هرطقة"، وهي خاصةٌ برفض أحد قواعد الإيمان وإنكاره تمامًا، مثل البدعة الأريوسية التي أنكرت أُلوهية الرب يسوع[٥].

أعود وأكرر إن مَن يسمع دعوة الرب يسوع: "بع كل مالك وتعال اتبعني"، لا يمكن أن يكون صاحب أسرة. هذا اختيارٌ دعاه الربُّ نفسه باسمٍ لا تقبله اليهودية، وهو "خصيان". فالزواج نصفُ الدين قاعدةٌ من "التلمود"، ولم تقبل اليهودية عبر عصورها "البتولية" أو عدم الزواج. لكن الرب يسوع يدعو فئةً من التابعين له أن يكونوا "خصيانًا"، وقد جاء تعليم الرب بهذا الخصوص في متى ص ١٩ الفصل الخاص بالزواج والطلاق في (١٩: ٢ - ١١)، ثم ختم الرب قوله: "يوجد خصيان وُلدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل الملكوت مَن استطاع أن يقبل فليقبل" (مت ١٩: ١٢).

ولعلك تدرك من كلمات النبي أشعياء: "هكذا قال الرب للخصيان الذين يحفظون سبوتي ويختارون ما يسرني ويتمسكون بعهدي. إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نُصبًا واسمًا أفضل من البنين والبنات. أعطيهم اسمًا أبديًا لا ينقطع" (أش ٥٦: ٤ - ٥). والذين تبعوا الرب وفضَّلوا عدم الزواج، ثم جمع هؤلاء شملهم في حياة "ديرية"، هؤلاء بلا شك يتبعون المبدأ الأسمى، لكن كما كان في عصر الرسل وحسب شهادة العهد الجديد نفسه، يندسُّ "الشواذُ" من أصحاب المشاكل والصراعات النفسية والعقلية، ويجدون في الرهبنة مهربًا وملاذًا.

كانت مشكلة الأرامل من صغار السن أن بعضهن "بطرن على المسيح ..

---

(٥) بالمناسبة، صيغة "الواحد مع الآب في الجوهر أو من ذات جوهر الآب"، وهي الصيغة التي أنقذت الإيمان من الهرطقة الأريوسية، لم ترد في الكتاب المقدس.

بطالات يطفن البيوت .. مهذارات" (١تيمو ٥: ١١ - ١٤). واضحٌ من كلام الرسول بولس أن الكنيسة عانت من سلوكٍ شائنٍ غير محدد (١ تيمو ٥: ١٤). وعندما يوصي الرسول تلميذه: "أمَّا الشهوات الشبابية فاهرب منها واتبع البر" (٢ تيمو ٢: ٢٢)، فلأننا جميعنا معرَّضون للتجارب، ومَن يظن أنه قائم لا يسقط، عليه أن يسمع قائمة خطايا عرفها الرسول في كنيسة غلاطية وحددها باللفظ: "زنى – عهارة – نجاسة – دعارة – عبادة الأوثان" (غلا ٥: ١٦ - ٢١)، بالإضافة إلى حادثة الزنى في كنيسة كورنثوس (١كو ٥: ١). وليس لدينا في المسيحية التاريخية خطيةٌ أعظم وخطيةٌ أصغر. كان "الحسد والخصام والانشقاق" (١كو ٣: ٣) معروفًا أيضًا في كنيسة كورنثوس، وقائمة خطايا الشذوذ الجنسي التي ذكرها الرسول بولس في رومية (١: ٢٦ - ٢٧) كانت معروفةً وشائعة، بل دافع عنها أفلاطون في حواره المعروف "فيداروس".

وعرف العهد القديم ذات السلوك الشاذ، ومَن يدرس العبادة الكنعانية يعرف أن الرجال والنساء أيضًا كانوا يقدِّمون أجسادهم وأجسادهن في المعابد للزنى. هذا ليس دفاعًا عن، ولا قبولًا لسلوكٍ غير طبيعي ضد كل ما نعرفه عن وظائف أعضاء جسم الإنسان، وهو لذلك "تعدٍّ"، لأنه خروجٌ على القانون أو الحدود الطبيعية للإنسان (١ يو ٣: ٤).

ولا يوجد مجتمعٌ في التاريخ البشري كله في الشرق أو الغرب لا يعرف، ولم يعرف بين الجماعات البشرية المتناثرة في الكرة الأرضية السلوك الجنسي الشاذ الذي يحاربه المجتمع، وأحيانًا يتسامح فيه كما هو حادثٌ الآن في بعض دول أوروبا. وصراع القانونيين حول شرعية زواج رجل برجل ما زال دائرًا في مجالس القضاء، قبلته بعض الولايات في أمريكا، ولم ينل بعدُ شرعيةً في القانون الفيدرالي. فإذا ظهر هذا السلوك في الأديرة، أصبح السؤال الحقيقي الصادر عن رغبةٍ في معرفة الحق، وليس ذلك السؤال الذي يأتي من العداوة والرغبة في التشهير:

هل الرهبنةُ هي مصدر الشذوذ الجنسي؟ وهل كان أفلاطون والإسكندر الأكبر وبعض ملوك أوروبا وبعض ملوك العرب، بل وبعض شعراء العرب رهبانًا؟!! أليس هذا تجنِ مصدره الغيظ؟ وهل كان الغيظُ يومًا والكراهية مؤهِّلًا للبحث عن حقائق خاصة بالسلوك البشري؟

وثمة جانبٌ آخر غير مدرَك يدل على ثقافة محدودة ضيقة، وهو عمومية، بل كونية حياة النسك والتصوف، فهذه الحياة موجودة في الإسلام، بالرغم من الشعار الواضح: "لا رهبانية في الإسلام"، ومع ذلك ارتاد رواد الحركة الصوفية من عظماء البشر "بحر المحبة الإلهية" وأنقذ بعضهم -مثل جلال الدين الرومي- الإسلام من التحول إلى رتابة اجتماعية. وجاء من قبله الحلاج، ورابعة العدوية، وابن الفارض، وسلسلة من الطليعة والتابعين دُوِّنت أسمائهم في كتاب "طبقات الصوفية – لأبي عبد الرحمن السلمي – تحقيق نور الدين شريبة من علماء الأزهر – القاهرة ١٩٨٦".

كما دافع د. عاطف جودة نصر في مقدمة كتابه: "شعر عمر بن الفارض – دراسة في فن الشعر الصوفي ١٩٨٢" عن الأصل الإسلامي المحض لحركة التصوف، وهو على حق؛ لأن لدى كل إنسان عطشًا روحيًّا مطلقًا للخالق ولاكتشاف محبته، عرفته الإنسانية كلها عبر عصورها، لأن الإنسان الباحث دائمًا عن ذاته وعن سبب وجوده في الدنيا وعن مصيره، يجد في الله إجابات كثيرة تراها عند الهندوس والصوفيين وفلاسفة أوربا الذين تركوا الديانات بأسرها ونادوا بمبدأ *Deism* وهو يؤكد لنا عطش الإنسان الدائم الذي لن يستريح حتى يجد خالقه، بل دخل التصوفُ اليهودية في أوروبا الشرقية وبعث فيها روح الصلاة قبل أن تصبح الحركة بعد ذلك حركة سياسية عرفت منذ نشأتها باسم *Hasidim* أي الأتقياء.

فإذا جاء المسيح ليقول ويعلِّم العطاش جميعًا بأن "ملكوت الله في داخلكم" (لوقا ١٧: ٢١)، وأنه جاء هو بنفسه لكي يعطي لنا هذا الملكوت، وترك الذين عطشوا إلى محبة الله كل شيء وتبعوه، ألا نرى في ذلك ما ذكره الرب يسوع نفسه: "وكل مَن ترك بيوتًا أو إخوة أو أخوات، أو أبًا أو أمًا أو امرأة أو أولادًا أو حقولًا من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية. ولكن كثيرون أولون يكونون آخرين وآخرون أولين" (مت ١٩: ٢٩)؟

وهذه هي كلمات الرب التي نطق بها بعد أن رفض الشاب الغني دعوة المسيح نفسه: "بع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء"، ألم تكن هذه الكلمات دعوةٌ وجوابٌ على سؤال "إن أردت أن تكون كاملًا" (متى ١٩: ٢١)؟

الرهبنةُ ليست دعوةً للشواذ، وإن دخلها الشواذُ، فالخطأُ ليس على الدعوة ولا في المبدأ، فقد سمع الشاب الغني كلمات الرب يسوع من يسوع نفسه، ولكن لم يكن لها مكانٌ في قلبه، أما الشاب أنطونيوس بعد قرابة ٣٨٠ سنة (وربما أكثر) سمعها من قارئ في الكنيسة ومضى وباع كل ما له لكي يجد الكمال في محبة الثالوث.

تطرُّف العدمية Nihilism

عندما عشتُ في صعيد مصر كنت اسمع عبارةً كانت في زمان "الصبوة" مثالًا للقدرة وهي: "دا أنا أحرق اللحاف علشان برغوت"، ولكن دراسة علم النفس ومبادئ التحليل النفسي جعلتني أرى فيها وفي غيرها من عبارات، شريحةً من الحياة النفسية المصرية تحرق الأخضر واليابس معًا، انتقامًا وتشفِّيًا، وهو سلوكٌ "سادي" تراه في سوء استخدام السلطة وتعدي الأعراف والقانون وإهدار حقوق الإنسان، بل تجاوز حتى الآداب الاجتماعية والسلوك الخلقي الفاضل الذي تعارف عليه المجتمع.

وهكذا حاول د. حنين أن يحرق الرهبنة والرهبان معًا بسبب تسلط العدمية الذي منعه من أن يرى التعليم النسكي عن طهارة القلب – الصلاة الدائمة – الصوم – القداسة – مواهب الروح القدس – الالتصاق بالمسيح المصلوب – سُكنى الروح القدس – موهبة النبوة – معجزات الشفاء .. الخ. وغير ذلك من الكثير، كل هذا صار مثل اللحاف الذي يجب أن يُحرق لأن برغوثًا وُجد فيه، أي عبارات ووقائع عن الزنى والسلوك الشاذ، بل السرقة والكذب ... الخ وهي خطايا معروفة في كل كنيسة مسيحية وفي كل مجتمع ...

لماذا يتم إحراق كتاب "فردوس الآباء"، وهو أول عمل علمي وتاريخي يؤصِّل للحياة النسكية المصرية والأمثلة الغالية: أنطونيوس – مكاريوس – يوحنا القصير – يوحنا الأسيوطي، إلى آخر هؤلاء من قائمة طويلة؟ هناك بشرٌ قد لا نجد في سلوكهم ما هو مقبول بل مرفوض، ولكن هذا لا يشطب على باقي حياة هؤلاء الرواد مثل موسى الأسود وبيمن الراعي وباخوميوس معلم الحكمة.

لقد كان لنا حظٌ وافرٌ للتلمذة على رهبان أفاضل مثل القمص مينا المتوحد (البابا كيرلس) القمص مكاري السرياني (الأنبا صموئيل) د. وهيب عطا الله (الأنبا غريغوريوس) القمص متى المسكين، الراهب فليمون المقاري، وكان مثالَ العفة والصدق والأمانة، وغيرهم، وفي الجيل السابق علينا وقبله الأنبا إبرآم أسقف الفيوم – الأنبا صرابامون وغيرهم. وهؤلاء كانوا المثال الصالح الذي لا زال له وجود بيننا، وإن كانوا لا يعلنون عن أنفسهم لأنهم تركوا كرامة الحياة الاجتماعية لمن يريدها.

الأيقونة – الرسم – العلامة – الحقيقة:

"الأيقونة" كلمة يونانية وردت في الترجمة السبعينية (تكوين ١: ٢٦)، وهي خلق الإنسان حسب "أيقونة" ومثال الله. ولاحظ أن كلمة أيقونة هي ذات

الكلمة العربية "صورة". الإنسان هو صورة أو أيقونة الله.

وربنا يسوع هو أيقونة الله حسب الأصل اليوناني لكلمات الرسول بولس في كولوسي ١: ١٥ ος εστν εικων του Θεου وعندما تجسد الابن أيقونة الله، أخذ صورة العبد μορφην δουλον (فيلبي ٢: ٦). ولا يوجد أي داع للتمييز اللغوي بين "صورة"، و"أيقونة"، فالحقيقة الثابتة لاهوتيًّا هي: تجسد الكلمة (يوحنا ١: ١٤) وفي الأيقونة الظاهرة المرسومة في الجسد الإنساني أعلن الابن له المجد عن أُلوهيته، وأعلن أيضًا -بتجسده- الآب والروح القدس.

حسب التاريخ القديم كانت صورة المسيح قد رُسمت وأُرسلت إلى أبجر ملك الرها، وكانت موجودةً حتى سقوط مدينة الرها في يد الفرس في القرن السادس. وحسب التاريخ القديم كانت صورة القديسة مريم قد رُسمت بيد لوقا الإنجيلي، وعنها نُقِلت الأيقونات الأخرى. وكانت الأيقونة الأصلية في القسطنطينية حتى سقوطها على يد العثمانيين في القرن الخامس عشر.

الرسمُ ليس تحديدًا لملامح الإنسان كما هي في الواقع، لأن الواقع حسب الإيمان مكون من مرحلتين أو طابقين:

- الإنسان كما هو في شكله الإنساني الطبيعي البيولوجي.
- الإنسان كما هو حسب نعمة الدهر الآتي التي تعطى الآن في الزمان.

لأن الإنسان الباطن حسب عمل الروح القدس (أف ٣: ١٦)، هو الإنسان الواحد الجديد الذي خُلِقَ من جديد في المسيح (أفسس ٢: ١٥). الإنسان الخارجي البيولوجي يفنى، ولكن الإنسان الجديد الباطن، يتجدد يومًا فيومًا (٢ كو ٤: ١٦).

وكتب القديس يوحنا الدمشقي دفاعًا عن الأيقونات في زمان سادت فيه محنة كبرى حاول فيها الإمبراطور لاون الأيسوري القضاء على الأيقونات بالحرق

والتدمير ومطاردة كل مَن يقتني الأيقونات. وقد أبرزت هذه المحنة ثلاثة أخطار لا تزال حاضرةً في التاريخ المعاصر:

الخطر الأول:

هو فقدان "الحس الروحي" بتجسد الرب؛ لأن الأيقونة تؤكد "إنسانيته"، وبقاء الأيقونة يؤكد التجسد ليمنع أكبر خطر تأتي به الخطية والشر عمومًا، وهو تحول الشخص إلى فكرة مجردة في العقل لا وجود لها في الواقع الإنساني، وهو ما ينشر الاستبداد ويدعِّم الكراهية؛ لأن الآخر تحول إلى رقم أو اسم أو فكرة فقدت اتصالها بالواقع، وأصبح القضاء عليه والاعتداء بكل صورة سهلًا وممكنًا.

ولم يكن تضخُّم موضوع "الخرستولوجي"، أي العلم الخاص بالمسيح -بالشكل المعاصر- إلَّا ثمرة تحول المسيح من شخص حقيقي، إله متجسد إلى فكرة تجول في متاهات الفلسفة والدراسات اللغوية ... الخ. وعندما حذَّرْنا الإكليروس الذين يعلِّمون بأن الرب يسوع دفع ثمن خطايانا دمه على الصليب، من أن هذا يحول صلب الرب إلى فكرة وحدث تاريخي لا يمس الحياة الإنسانية، لم يسمع هؤلاء، ولم يحملوا تحذيرنا محمل الجد؛ لأنهم ظنوا أن تقريب أو سهولة تقديم الإيمان أهم من المواجهة الحية مع المصلوب رب المجد.

الخطر الثاني:

هو إنكار التجسد بإنكار كل علاقة ممكنة بين الروح والمادة، السماء والأرض، وإنكار اشتراك العالم المنظور في هبة الخلاص وتحرير الخليقة المادية وعودتها إلى الله في يسوع المسيح.

كما أن محاربة رسم الأيقونات تساوي محاربة الوجود الإنساني في الكون المنظور، وهي أيضًا تساوي محاربة دخول الله الابن ذات الكون المنظور بتجسده.

الخطر الثالث:

هو تكريم الأيقونات المبالغ فيه إلى درجة نسيان أن الأيقونة علامةٌ تفتح الإدراك والوعي الروحي إلى ما هو فوق الخطوط والألوان والشكل، فهي علامةٌ ترفع "الحس الروحي" إلى ما هو فوق، وهو سر حضور المسيح رأس الكنيسة الذي لا يمكن فصله عن جسده.

وعند تقديم البخور أمام الأيقونات لدينا نوعين من الأيقونات: الشعب، أي أيقونات الله، وأيقونات الرب ووالدة الإله والقديسين والشهداء .. كرامةً واحدةً للكل، ومجدًا واحدًا من الله للكل، ولكن تقوى العصر الوسيط أنكرت توزيع مجد المسيح على المؤمنين لكي تسهُل قيادتهم والسيطرة عليهم وممارسة سلطان يعلو على سلطان المسيح نفسه.

الفصل الثالث

الأيقونة والحقيقة

كلمة الله في كتابنا المقدس توصف في التسبحة السنوية بأنها "أنفاس الله"، وهو تعبيرٌ دقيق يعود إلى (٢ تيمو ٣: ١٦)[١] لأن الكلمة موحى بها حسب الأصل اليوناني Θεοπνευστος هو *God-breathed*. ولذلك، ليس الكتاب المقدس "تنـزيلًا" مثل "القرآن". وأنفاسُ الله هي ذاتها التي أُعطيت لنا بعد قيامة الرب (يوحنا ٢٠: ٢٢)، وهي التي تُعطى في سر المعمودية والميرون وفي الرسامات. هكذا دخل الله دنيا الإنسان من خلال الحروف والأصوات الإنسانية التي اخترعها الإنسان نفسه لكي يشترك مع الله في إدارة وتطوير الكون، وتطوير حياته نفسها بالشركة مع الله.

الكلمة أيقونةٌ لفظيةٌ من حروف وأصوات، وهي بدورها تتحول من المنظور والمسموع إلى الباطن، إلَّا ما يعلو على الكلمات. لكن هذا التحول لا يحدث ميكانيكيًا في داخلنا، بل ينقلنا الروح القدس نفسه إلى مستوى الحقيقة، الحقيقة التي تعلو على المنظور، ولكن تبقى ظاهرة في المنظور، أي الكلمة مكتوبةً أو مسموعة.

ما بين الرسم بالحروف والرسم بالألوان فارقٌ في فن التعبير؛ لأن الرسم بالألوان هو خطوطٌ تنقل الواقع المنظور وتحوله إلى رؤيا داخلية عقلية تجعل **طقس تكريس الأيقونات يصف الأيقونة بأنها "ميناء الخلاص"؛ لأنها مكان**

(١) "كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحىً بِهِ مِنَ اللهِ، وَنَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبِرِّ".

لقاء النفس مع الحقيقة الأعظم والأكبر التي تعلو على الرسم، مثلما تعلو الحقيقة الأكبر على الحروف. والمشكلة هي في التقوى الشعبية السائدة التي فشلت في تقديم السر الأكبر، وهو الحقيقة الإلهية المتجسدة في الابن، والتي توزِّع الحياة على أعضاء جسده لكي يبقى كل واحد منهم أيقونة المسيح الحية؛ لأن كلًا منهم خُلق أصلًا ليكون هذه الأيقونة (تكوين ١: ٢٦)، **وتبقى الأيقونات شاهدًا في مكانها في الهياكل وفي الحياة الروحية، تموت أجيال وتأتي أجيال، ويبقى الشاهد المرسوم أمام عيون وقلوب محبي الله.**

الكاهن – الهيكل – المذبح – الذبائح

كهنوت الرب يسوع المسيح حقيقة ثابتة في كل التاريخ الكنسي حتى في مدارس حركة الإصلاح الأوروبية. لا يوجد أي جدل حول تلك الحقيقة الواحدة، وهي:

* الكاهن يسوع المسيح هو الوسيط بين الله والبشر.

فقد خصص الرسول رسالة العبرانيين -وهم العائدون إلى المسيح من اليهود- لكي يفصل بين الكهنوت والهيكل والمذبح والذبائح. وربما تجدر الإشارة إلى أن اعتبار رسالة العبرانيين هي من وثائق الجيل الثاني المسيحي، هو محض خيال لأن الرسالة تذكر كل طقوس وهيكل اليهود الذي كان لا زال قائمًا حتى سنة ٧٠ ميلادية وهي سنة خراب أورشليم وهدم الهيكل على يد القائد الروماني تيطس، ولذلك عندما تخلو العبرانيين مثل غيرها من كتب العهد الجديد من الإشارة إلى هذا الحدث التاريخي، أي دمار الهيكل سنة ٧٠ ميلادية، يصبح الافتراض بأن الأناجيل ورسائل القديس بولس وغيرها كُتبت بعد سنة ٧٠ هو وهمٌ مريض.

كهنوت المسيح حقيقة ثابتة مؤكدة

عندما نقول إن كهنوت المسيح هو حقيقة ثابتة مؤكدة، فإن هذه الحقيقة تتأسس على أنه لا خلاص ولا مخلص آخر يمكنه أن يقدِّم الإنسانية إلى الله الآب غير الابن الوحيد، وقد وَضَعَ أساس هذا التعليم الربُّ نفسه: "قال يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلَّا بي" (يوحنا ١٤: ٦). وهو الكاهن إلى الأبد (عب ٧: ١٤ - ١٧)؛ لأنه "يبقى إلى الأبد له كهنوتٌ لا يزول فمن ثمَّ يقدر أن يخلِّص إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حيٌّ في كل حين يشفع فيهم" (عب ٧: ٢٤ - ٢٥).

المسيح هو هيكل العهد الجديد

عندما طرد الربُّ الباعةَ من الهيكل وتذمَّر اليهود، أجاب يسوع بالآية التي تؤكد سلطانه في طرد الباعة: "انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه. فقال اليهود في ست وأربعين سنة بُني هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام تقيمه. أمَّا هو فكان يقول عن هيكل جسده. فلما قام من الأموات تذكَّر تلاميذه أنه قال هذا، فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع" (يوحنا ٢: ١٨ - ٢٢)، فقد صار حلول ملء اللاهوت في هيكل جسده (راجع كولوسي ٢: ٩) هو الاستعلان عن حقيقة التجسد. هكذا حلَّ تجسد الرب محل هيكل العهد القديم (أش ٦: ١) الذي كان مكان حلول وسكنى الله، وهكذا كان التجسد وراء اعتراف اسطفانوس بالحقيقة الإيمانية إن الله "لا يسكن في هياكل" (أع: ٤٨ – راجع أع ١٧: ٢٣)، وبسبب التجسد وسُكنى الروح القدس فينا، صارت الكنيسة وكل فرد فيها هو "هيكل الروح القدس" (١كو ٦: ١٩).

وعندما قال الرب لنثنائيل: "الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان" (يوحنا ١: ٥١)، فقد

تحقَّق ما رآه يعقوب عن السُّلم الذي يصل الأرض بالسماء "سُلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها وهوذا الرب واقف عليها (السلم) ..." (تكوين ٢٨: ١٠ - ١٥). "هذا هو بيت الله وباب السماء" (تكوين ٢٨: ١٦)؛ لأن ظهورات واستعلانات الله في العهد القديم كانت هي الإشارات النبوية عن تجسد ابن الله. هكذا فهم الآباء جميعًا هذه الرؤيا، لكن هذه الرؤيا سبقها التعليم الإلهي الذي تؤكده صلوات وضع حجر أساس الكنيسة:

> **"أنت فصلتنا عن الحياة الحيوانية شبه الوحوش، وأنعمت لنا بحكمةٍ لنبني البيوت لنهرب من مضرات البرد والحر، أنت الذي جعلت روح الحكمة في بصلئيل بن حوري حتى يصنع خيمة (القبة) الاجتماع لأسمك القدوس المبارك (راجع خروج ٣١: ١ - ٤). فقد أعطيت نعمة الروح القدس وامتلأ بصلئيل "من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعته (تكوين ٣١: ٣)، فصارت البيوت وفي مقدمتها "بيت الله" هيكلًا طاهرًا كهنوتيًا بيدك القدوسة طهِّره وأتقنه ليكون أساسًا وثيقًا"**
>
> (صلوات وضع أساس الكنيسة – نسخة البابا كيرلس الخامس ص ٤ - ٥).

ويلاحظ أن وضع الزهور والريحان والصلق وغيره مع سبعة قدور ماء عند وضع أساس الكنيسة الجديدة، هو علامة العودة إلى فردوس الله حيث مواهب الروح القدس السبعة، ولذلك عند بداية تكريس الكنيسة، ترتل مزامير المصاعد التي كانت تقال عن الصعود إلى أورشليم في الأعياد وبالذات في عيد الفصح ابتداء من مزمور ١٢١: "فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب" حتى مزمور ١٢٩: "من الأعماق صرخت إليك"، ثم المزامير الخاصة بمملكة داود (مزمور ١٣١: "اذكر يا رب داود وكل دعته")؛ لأن داود الحقيقي يسوع المسيح بن داود هنا معنا[٢] إلى مزمور اجتماع الشعب مزمور ١٣٢ "هوذا ما أحسن وأحلى الأخوة إذا سكنوا جميعًا" (حسب الأصل القبطي)، ثم مزمور الدعوة للصلاة

(٢) أسماء المزامير وجدناها في مقدمة سفر المزامير واستعمالها في ترتيب الأسرار لابن اسحق بن عبد المسيح القس الفيومي (مخطوطة ٢٠٣ سنة ١٠٣٢).

مزمور ١٣٣: "باركوا الرب يا عبيد الرب"، ثم مزمور ١٣٤: "باركوا اسم الرب"، وهو مزمور تسبحة الخلاص الذي اختار شعبًا للخلاص وعبر به البحر الأحمر، ثم مزمور الشكر ١٣٥: "اشكروا الرب لأنه صالح"، وبعد الهوسات يقال مزمور ١٣٨: "يا رب بلوتني وعرفتني"، وهو مزمور العزة الإلهية للرب الحاضر في كل مكان "أين أذهب من روحك وأين أهرب من وجهك"، ثم تقال كل المزامير الباقية حتى نصل إلى ختام المزامير، مزمور ١٥٠.

وجديرٌ بالذكر أن مزمور ١٥٠ كان يرتل في ختام خدمة الهيكل في زمن الرب يسوع المسيح حسب دراسة A. Edershiem وهو حسب ترتيب كنيستنا هو خاتمة الليتورجية الخاصة بالوليمة السمائية الإفخارستيا؛ لأن الشعب قد دخل أرض الموعد، وهو هنا الكنيسة، وهي الفردوس، وأكل من شجرة الحياة جسد ودم ربنا يسوع، وصار اتحادنا بالثالوث هو ختام التسبيح.

وعندما تبدأ صلاة تكريس الكنيسة الجديدة بقراءة سفر التكوين الإصحاح الأول، فهي تعود إلى التعليم الإلهي الذي يحدد بداية كل شيء بالخلق، ويتبع ذلك رؤيا يعقوب للسُّلم، ثم الفصول الخاصة ببناء خيمة الاجتماع وتكريس البيت من سفر الخروج (إصحاح ٢٥ وما بعده)؛ وهنا نلفت النظر إلى أن **وجود الشاروبيم في "قدس الأقداس" كان هو أول "أيقونة" تظهر في العهد القديم بعد أيقونة الإنسان.**

وبعد قراءات من سفر العدد ويشوع بن نون وأسفار الملوك، وكلها عن الخدمة في خيمة الاجتماع، وبناء الهيكل على يد سليمان وتنظيم الخدمة فيه، تجيء نبوة حزقيال عن الهيكل الجديد (الإصحاح الأول، والإصحاح الأربعون)، ومن ثمَّ نصل إلى رؤيا يوحنا (ص ٢١) عن "السماء الجديدة والأرض الجديدة ومدينة أورشليم الجديدة -وهي هنا ليست أورشليم في فلسطين- وهي ليست

"مسكن" كما ورد في الترجمة البيروتية، بل "هيكل ⲧⲥⲕⲏⲛⲏ الله مع الناس"، وهو ما تؤكده الرؤيا: "ولم أر فيها هيكلًا لأن الرب الإله ضابط الكل هو والحمل هيكلها" (رؤ ٢١: ٢٢).

فعندما زال الزمان وجاء التجديد بكل قوة الله، جاء الهيكل نفسه، الله والحمل؛ لأن الرؤيا مُباشرة وبلا علامات؛ لأن العلامات خاصة بالدهر الحاضر وحده[٣].

والجدير بالملاحظة هو أن الفصول الخاصة بتجلي الرب على جبل طابور هي الفصول التي تُقرأ في وضع أساس الكنيسة الجديدة.

الهيكل الجديد والذبائح الناطقة:

في صلاة تكريس الهيكل يقول الأسقف:

> **"أرسل روح قدسك علينا لكي يطهرنا ويقدِّس هذا المسكن هيكلًا مقدسًا لك وبيعةً لشعبك المؤمنين، ليصلوا فيها نهارًا وليلًا ويذبحون لك فيها ذبائح ناطقة غير دموية لخلاص المسيحيين"**
>
> (المرجع السابق ص ٣٦٠ - ٣٦١).

الهيكل هو مكان الذبح، والذبح هنا هو تقديم الحياة الإنسانية ذبيحةً سماوية لله "أطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحةً حيَّةً مقدسةً مرضيةً عند الله (عبادتكم) λατρεια[٤] (العقلية)[٥] λογικη". وعندما غاب هذا الموضوع من تقوى العصر الوسيط ومنظومته اللاهوتية تعذَّر علينا أن ندرك أن الهيكل كـ "علامة"، حرص الترتيب الروحي أن يذكِّر كل مؤمن أرثوذكسي بالسجود أمامه، أي أمام الهيكل، ليس للوقار مع أنه مطلوب، وليس للاحترام رغم أنه واجب، بل لطلب قبول ذبيحة الحياة العقلية أو الناطقة أو

---

(٣) شرح سفر الرؤيا للعلامة Oecumenius – القرن السادس TEG8:277.

(٤) كلمة "عبادة" ليس لها علاقة بالمرة بالعهد الجديد كله، والكلمة اليونانية تعني "خدمة"، ومنها أخذ القداس اسم الليتورجية أي الخدمة، وهي الاسم القديم الرسولي.

(٥) العقلية ليس بالمعنى السائد الآن أي الفكر وحده، بل ما هو خاص باللوغوس λογος أي الحياة الداخلية التي تأخذ معها الجسد نفسه ذبيحة عقلية أو ناطقة.

اللوغسية (من اللوغوس)، تلك التي تبدأ برشم الصليب علامة الانضمام لجسد المسيح الكنيسة، وهي الذبيحة التي تجمع كل الذبائح الأخرى.

الكنيسة علامة ومثال السماء:

تحمل الكنيسة عدة أسماء: "بيت الملائكة"، و"قدسٌ لاسم المسيح"، ولكن حسب صلوات التكريس، الكنيسة هي **ⲧⲩⲡⲟⲥ** أي مثالات السماء، وهنا علينا أن نلاحظ ما تقوله الصلوات عن البيت المقدس (الكنيسة):

"أرسل عليه شعاعات نورك،
قدِّسه وأملأه من روح قدسك.
أجعل فيه خاتم خلاصك،
وفعل قوتك،
أملأه من مجد لاهوتك.
ليكون بيت بركة وتسبيح،
ومجدًا وإكرامًا لاسمك القدوس" (المرجع السابق ص ٣٧٦).

وتمتلئ العلامة (الكنيسة) من حضور أقنوم الروح القدس:

"أرسل لنا من علوك المقدس،
ومن مسكنك المستعد (الابن المتجسد)،
ومن حضنك غير المحصور (الآب)،
البارقليط الروح القدس الأقنوم القوي المحيي،
الناطق في الأنبياء،
الكائن في كل مكان،
المالئ الكل،
الفاعل الكل بسلطانه،
.....
المنبثق منك،
المشارك كرسي مجدك" (المرجع السابق ص ٣٧٩ - ٣٨٠).

هكذا نفهم العبارة القديمة التي تصف الكنيسة بـ "بيت الحمامة"، أي "بيت الروح القدس".

وبعد الاستدعاء تبرز ملامح الكنيسة كعلامة ومثال للسماء:

"هيكلًا مقدسًا،

....

بيتًا للخلاص".

لكن لاحظ:

"مذبحًا للمؤمنين،

"مذبحًا سمائيًا،

"مجمعًا للملائكة،

"مسكنًا لمسيحك".

ويظهر البعد السمائي:

"محلًا للشاروبيم".

فالهيكل كان أيقونةً في العهد القديم، ولكنه صار الآن ماثلًا وحاضرًا في الصلوات التي تشترك فيها الكنيسة مع القوات السمائية:

"احسب أصواتنا مع غير المرئيين"؛

لكي تنطلق التسبحة: "قدوس .. قدوس .. قدوس رب الجنود .." (أش ٦: ١)، وهكذا يكون هذا البيت:

"تسبيحًا للسارافيم،

راحةً للشهداء"[٦].

"معمل المواهب السماوية"(المرجع السابق ص ٣٨١ - ٣٨٢).

ومعمل المواهب هو الرب نفسه حسب صلواتنا الأرثوذكسية؛ لأن مواهب الروح القدس فاضت علينا من الرب يسوع. وكلمة معمل اليونانية – القبطية

(٦) عن خولاجي من القرن الثالث عشر "يستريح الشهداء معنا لأنهم سحابة الشهود (عب ١٢: ١) الذين يراقبون في شوق ذبائح المؤمنين".

ⲟⲩⲉⲣⲅⲁⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ هي لقاء القوة الإلهية فينا نحن لكي توحِّد إرادتنا بالإرادة الإلهية. وحسب الصلوات اليونانية الأرثوذكسية القديمة هي **"تألُّه العزم"** الإنساني لكي يصل إلى سر الاتحاد بالثالوث.

الكنيسة هي مكان وليمة الحَمَل والعرس الإلهي:

تقول نفس الصلاة السابقة:

"داعيًا كل أحد إلى العرس المزيَّن
والوليمة السمائية
كي يدعون فيه الآتين إليك
ليأخذوا النور الجديد الذي بحميم الميلاد الجديد، ...
ويكملوا الذبيحة الناطقة التي هي سرائرك المقدسة" (المرجع السابق ص ٣٨٣).

ويتجلى استعلان الوليمة برشم المباني بالميرون، وبذكر أساسات الإيمان التي وصفها الآباء:

"طوفوا في صهيون
أيها الرعاة وعيِّدوا فيها
وأنطقوا في بروجها
لأن المسيح إلهنا في وسطها
هو حصنٌ لها فلا تزول إلى الأبد" (المرجع السابق ص ٣٩٣).

الكنيسة حسب هذه الصلوات تُدعى:

"بيت العلي،
والقبة التي تُدعى قدس الأقداس،
وفردوس الله الذي سبق فغرس فيه الشجرة المحيية،
أي الصليب المكرم،
وهي واحدة من مدن الملجأ التي أشار إليها موسى:
إن مَن يهرب ويَدخُلهم لا يُنتقم منه".

وعند ذكر الشهداء:

"**ليس موتى ولا قتلى**" (المرجع السابق ص ٣٩٤ - ٣٩٥).

لأنه لا يوجد عضو في جسد المسيح الحي يعاني الموت، ومن ينكر ذلك فهو ينكر القيامة دون أن يدري.

تكريس المذبح

يقال مزمور ٢٣ (٢٢ حسب الطقس وحسب ترتيب السبعينية)، وهذا المزمور كان يُقرأ بالآرامية في زمن سبق تجسد الرب يسوع المسيح، وكانت هذه هي ترجمة المزمور (ترجوم):

"**هيأت قدامي مائدةً ملآنةً مِن المن**".

ثم المزامير الخاصة بمذبح العهد القديم (مزمور ٢٤ – مزمور ٢٦) ومزمور ٢٦ هو تأكيد على أن المذبح هو "مذبح الله": "أغسل يدي بالنقاوة وأطوف بمذبحك لأسمع صوت تسبحتك"، ثم مزمور ٢٧: "الرب نوري وخلاصي"، وهو طلب السكنى في بيت الرب – مزمور ٩٣: "الرب قد ملك ولبس البهاء"، وهو مزمور تجلي الرب الذي كمل في العهد الجديد.

ثم تأتي الطلبة بعد ذلك، وهي طلبة تؤكد كمال التدبير بتجسد الرب، وهو العنصر الأساسي الغالب في الصلوات، لكن يجب أن نقف برهة أمام هذه العبارات:

"أيها الخالق كلمة الله الآب ...
الذي تأنس من العذراء القديسة مريم؛
لكي ينقذنا نحن خليقته من قبل كنيسته، وأنعم لنا بها ...
أيها البكر من الآب غير المرئي ...
البكر من الأموات حتى يخلص بيعته ويقيمنا معه،
ويجعلنا شركاء لأنْ نجلس معه في السموات ...
الذي أعطى مثالا ⲧⲩⲡⲟⲥ في البدء لرئيس الآباء إبراهيم عندما

تبارك من ملكي صادق بواسطة الخبز والكأس[٧]
مثالًا لنعمة العهد الجديد الذي أُعطي للبيعة" (المرجع السابق ص ٤١٦ - ٤١٧).

وتقدمة الخبز والخمر أو الكأس هي الأصل الكتابي والتاريخي لاستخدام كلمة "قربان" الآرامية – السريانية، أي التقدمة، وهي الأصل الليتورجي لكلمة "ذبيحة".

وتذكُر الطِّلبة بعد ذلك رؤيا يعقوب، والمثالات التي صنع موسى القبة طبقًا لها، كما تؤكد الطلبة أيضًا أن تابوت العهد المطلي بالذهب والخشب الذي لا يسوس يشير إلى البشرية غير الفاسدة (ناسوت الرب) وقسط المن هو "مثال خبز الحياة الذي نزل من السماء" (المرجع السابق ص ٤١٨ – ٤٢٣).

أما "**المذبح الذي يظلله الشاروبيم من أجل اللاهوت غير المرئي**" (المرجع السابق ص ٤٢٤)، فهو يؤكد لنا أنه العرش الإلهي، وليس قبر الرب الذي ظهر عنده الملاكين، وهو سبب وجود الشمعتين على المذبح.

ولذلك، فما أعظم الكلمات التي تصف المذبح:

"موضعًا للغفران،
مجمعًا للملائكة،
ميناء الخلاص،
مظلةً طاهرةً،
مذبحًا سمائيًا،
موضعًا لطُهرِ الأنفس المتدنسة
إذ تقدموا بواسطة التوبة" (المرجع السابق ص ٤٢٧).

(٧) تقديس الخبز والكأس هو تقليد عبراني قديم ورد في شرح سفر التكوين في عصر سبق تجسد ربنا (راجع بحثنا ملكي صادق في التراث السكندري، مجلة الدراسات اللاهوتية، مجلد ٥٧، ٢٠٠٠، ص ٢٥٨ - ٣٩٠).

تجديد العهد والمذبح الجديد:

لقد جاء العهد الجديد تجديدًا للعهد القديم، وهو موضوعٌ غائب من الفكر المعاصر؛ لأن الكنيسة بُنيت لكي تكمِّل استعلان الله في يسوع المسيح، ليس بتطابق العهدين، وإنما بكمال البناء؛ لأن أساس البناء ليس مثل البناء، رغم أن البيت واحدٌ والذي بناه الله (عب ٣: ٣). تقول الصلاة:

"**السيد الرب الإله ضابط الكل الحقيقي خالق سائر المخلوقات الذي جدَّد كل ترتيب (طقوس) الكهنوت في بيعتك المقدسة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية**" (المرجع السابق ص ٤٣١).

لاحظ:

"**الذي بسبب فيض الغفران الذي هو مذبحك الناطق الذي فوق السماء** (وهو هنا المسيح الرب) **الذي قال أنْ يُبنى له قبة على الجبل المقدس**" (**إعلانات العهد القديم عن الهيكل**).

لكن هذا هو الجانب العظيم:

"**وفي آخر الأيام بظهور ابنك الوحيد ثبَّتَ مذبحًا عقليًا** (إرادة الرب يسوع) **للذبيحة الغير الدموية الناطقة** (أي ليست ذبائح العهد القديم الحيوانية) **في بيعتك المقدسة ..**

أرسل علينا نعمة روحك القدوس،

وعلى هذه المائدة الموضوعة أمام مجدك[٨] **القدوس،**

وليكن مذبحًا روحيًا بخدمة الكهنوت

للصعيدة الناطقة غير الدموية

التي للجسد والدم الكريم

الذي لابنك الوحيد" (المرجع السابق ص ٤٣٣).

---

(٨) تدحض صلوات التكريس كل جدل معاصر عن مواهب الروح القدس لأن الروح القدس الأقنوم الثالث هو مقدِّس الكنائس، والمواهب لا تقدِّس.

تطابق المرئي والمنظور مع غير المنظور:

كلمات الصلاة لا تحتاج إلى تعليق:

"أيها المسيح إلهنا الجالس على الشاروبيم والسارافيم ...
يا مَن هو في حضن أبيه جالسٌ
وفي أحشاء العذراء متجسدًا منها
الذي رئيس الآباء يعقوب صرخ من أجل أمه العذراء قائلًا:
إن هذا هو بيت الله، وهذا هو باب السماء" (المرجع السابق ص ٤٣٤ - ٤٣٥).

ولذلك حرص الفنان القبطي أن يكتب على باب الهيكل:

"هذا هو باب السماء، أو هذا هو باب الرب".

وهكذا يكون الاستعلان القديم قد تحقق، ولذلك تقول الصلاة بعد ذلك عن المذبح إنه:

"عرش (كرسي) ملكوتك" (ص ٤٤٥).

"محلًا لروح قدسك" (ص ٤٦١).

الفصل الرابع

المذبح في الكنيسة الجامعة ومنظومة الأصولية الإنجيلية[١]

مَن يمسك بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد عليه أن يلاحظ -إذا كان يبغي الحقيقة- أن:

١- الكتاب المقدس لا يمكن فصله عن تاريخ الشعب القديم، ولا عن تاريخ الشعب الجديد، أي كنيسة المسيح التي انتشرت شرقًا وغربًا من أورشليم إلى أقاصي المسكونة في عصر الإمبراطورية الرومانية، وأقاصي المسكونة في عصر شبكة المعلومات. هذا التاريخ العبراني، وتاريخ الأمم، أي الشعوب التي قبلت الإيمان بالمسيح، كانت لهم مدارس وكتب تفسير عرفها التراث العبراني الممتد من عصر ظهور كتابات علماء الشريعة من اليهود إلى عصر الآباء الذين كتبوا في فلسطين مثل يوستينوس الشهيد، وفي أنطاكية مثل أغناطيوس، وفي الإسكندرية مثل بنتينوس، وفي روما مثل هيبوليتوس، ثم بعد ذلك القسطنطينية، الرها، نصيبين. تراثٌ دوِّن أغلبه باليونانية - اللاتينية - السريانية - القبطية - الأرمنية القديمة (جرجورين).

٢- جاءت محاولة وضع الكتاب خارج التاريخ الكنسي في القرن الثالث عشر، وليس في عصر الإصلاح البروتستانتي. وقد شبعنا من أكاذيب الجهل التي نسمعها في الشرق الأوسط لا سيما مصر، ذلك أن الكنائس المشيخية (الإنجيلية)

(١) الأصولية هي أقرب ترجمة عربية للكلمة الإنجليزية Fundamentalism.

التي أسسها كالفن هي ثمرة حركة النهضة التبشيرية في الثامن عشر والتاسع عشر، ولا توجد بينها وبين كتابات كالفن سوى صلة وهمية شبه تاريخية، وعلى مَن يريد أن يتحقق من صدق ما نقول، أن يطلب مؤلفات كالفن الذي توفى عام ١٥٦٤م ويسأل عن الترجمة العربية لهذه المؤلفات، وما علاقة مؤلفات كالفن بلاهوت حركة النهضة الإنجيلية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وهي الحركة التي تركت لاهوت كالفن الخاص بالعشاء الرباني وعمل الروح القدس وأهملت كتاب الصلوات الذي وضعه كالفن في جنيف.

والادعاء بأن الكنائس الإنجيلية في الشرق العربي على صلة بمارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦)، هو كذبة كبرى يصدقها الجهلاء، ساعد على نشرها كتب الإرساليات الكاثوليكية التي جعلت من مارتن لوثر كبش الفداء في كل ما يُنسب إلى الحركة الإنجيلية، وما أبعد الفرق بين لوثر وكالفن.

٣- هل يمكن لمن أراد البحث عن الحقيقة التاريخية التي لا يرقى إليها الشك أن يكوِّن صورة كاملة عن الكنيسة من العهد الجديد وحده؟

الجواب هو: هل يمكن لمن يرى بذرة أن يصف الشجرة التي تنمو من هذه البذرة؟

لقد فتح علماء العهد الجديد في كل الكنائس المسيحية الكاثوليكية وغيرها ملف العبادة في العهد الجديد، مع ملاحظة أن كلمة "عبادة" غريبة على مفردات العهد الجديد اليوناني والقبطي، وليس لها علاقة بالعقيدة المسيحية.

وهنا دون أن ندخل في متاهات البحث، نقدم للقارئ خلاصة هذه الأبحاث التي قدمها *O. Callmann – C. Moule* وقبل هؤلاء *Lietzmann* وبعده *J. Danieluu* إضافةً إلى جيشٍ من علماء ومؤرخين .. لكن الذي يجهل التاريخ هو الذي يمنع تدريس تاريخ الصلوات والقداسات والليتورجيات، أو يحاصرها

في تدريس ما هو يُمارَس الآن.

لا يجب أن نخاف من التاريخ؛ لأن الحقيقة الغائبة هي أن التاريخ لا يمكن أن يحاكِم أو يحكم على الكنيسة الجامعة؛ لأنها هي الأم التي ولدت هذا التاريخ.

٤- يخاف الأصوليون من التاريخ؛ لأن التاريخ يفتح باب الشرح التاريخي الذي يتعارض مع كل النزعات الفردية والشخصية؛ لأن قاعدة الأصولية الأولى هي حذف التاريخ أو تجاهله تمامًا، وقطع نصٍّ مقدسٍ من السياق نفسه، وحذف مكونات النص اللغوية والخلفية الحضارية والأسباب التي جعلت هذا النص يظهر في هذا السياق بالذات.

ولذلك لا يوجد دواء للأصولية سوى فتح ملفات التاريخ.

٥- هكذا بعد هذا التحذير الذي لن يرُق للأصوليين، علينا أن نقدم نموذجًا من الشرح التاريخي، والشرح الأصولي لنص رسالة العبرانيين:

"لنا مذبحٌ لا سلطان للذين يخدمون المسكن أن يأكلوا منه".

(عب ١٣: ١٠).

* السياق أو السرد (عب ١٣: ٧) يؤكد وجود كنيسة سبقت تدوين الرسالة: "اذكروا مرشديكم الذين كلَّموكم بكلمة الله. انظروا إلى نهاية سيرتهم وتمثلوا بإيمانهم".

* أُسس الإيمان الخلفية (عب ١٣: ٨): "يسوع المسيح هو أمسًا واليوم وإلى الأبد".

* تحذير رعائي، وهو جزءٌ مكوِّنٌ للخلفية التاريخية (عب ١٣:٩): "لا تساقوا بتعاليم متنوعة وغريبة".

* سبب التحذير هو عدم العودة إلى الممارسات اليهودية (عب ١٣: ٩): "لأنه حَسِنٌ أن يثبت القلب بالنعمة لا بأطعمة لم ينتفع بها الذين أكلوها".

* "لنا مذبحٌ": لا يمكن أن يكون هذا المذبح هو مذبح الهيكل؛ لأنه على ما يبدو من التاريخ أنه هُدِم في سنة ٧٠، أي في زمن سابق لكتابة الرسالة في رأي البعض. ولكن مع الافتراض بأن الهيكل لا زال قائمًا، "لا سلطان للذين يخدمون المسكن"، وخدعة النص العربي أن الكلمة اليونانية ليس "المسكن"، بل هي σκηνη - tabernacle المستخدمة للهيكل في السبعينية. أما كلمة "يخدمون" فقد وردت قبل ذلك، فهي خاصة (بالعبادة) أو "الخدمة"، وهي أصل كلمة ليتورجية.

ولاحظ أن عدم الإلمام باللغة اليونانية أضعف الصلة بين الكتاب المقدس والتاريخ الكنسي.

حسب النص العربي لأعمال الرسل (١٣: ٢):

"وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس، في حين أن النص اليوناني هو: "λειτουργουντων δε αντων τω κυριω"، والترجمة العربية الصحيحة هي: "وبينما هم يقيمون الليتورجية".

وما خدمة المسكن، أي خدمة الهيكل في عب (١٣: ١٠) إلَّا الخدمة المسيحية.

التاريخ الكنسي يؤكد وجود المذبح "θυσιαστηριον".

فقد ورد عند أغناطيوس الأنطاكي في الرسالة إلى أفسس الفصل ٥، وفي الرسالة إلى مغنسيا في الفصل السابع، وغيرها. وعند القديس ايريناوس (ضد الهرطقات كتاب ٤ فصل ١١: ٦). وترتليان (الأكاليل فصل ١٩). والشهيد كبريانوس (الرسالة ٤٠). وديونيسيوس السكندري (في الرسالة إلى باسيليوس؛ المائدة المقدسة في الهيكل).

ولا زالت الليتورجيات تحفظ اسم "المائدة"، أو "المائدة المقدسة".

هذه شهادة مسكونية من الشرق والغرب معًا. وفي شرح العبرانيين لآباء الكنيسة في القرن الرابع والخامس وما بعدها. فكيف يمكن إنكار حقيقة تاريخية مسكونية التزمت بها الكنيسة الجامعة شرقًا وغربًا؟

ونشير هنا إلى علماء العهد الجديد الذين التزموا بالشرح التاريخي، وهم:
L. Oulton – C. Cambier, Theissen Williamson, Thompson.

ويمكن مراجعة القائمة عند *Harold W .Auttridge* في شرح العبرانيين سلسلة دراسات:

Hermeneia, Fortress Press, 1989 Pages 396 - 397.

ويضع نفس المؤلف *Harold . W. Auttridge* قائمة بأسماء الذين قالوا إن المذبح هو الجلجثة (المرجع السابق ص ٣٩٦ حاشية رقم ١٦)، لكن هذا التفسير غير تاريخي للأسباب الآتية:

أولاً: لم يكن الرب قد صُلب في هيكل، ولم نسمع أن الجلجثة صار لها اسم "هيكل" في كل المصادر القديمة.

ثانيًا: هناك خدمة في الهيكل حسب كلمات العبرانيين (١٣: ١٠) وهي ليست صلب الرب يسوع.

ثالثًا: الرسالة إلى العبرانيين تحارب بشدة العودة إلى ذبائح العهد القديم والشريعة الخاصة بالأكل والتطهيرات[٢]، ولذلك هي تضع المذبح والإفخارستيا ليس تحت سلطان الذين يخدمون، بل خارج هذا السلطان؛ لأنه سلطان المسيح نفسه الذي يوزِّع جسده ودمه بنفسه وبواسطة الذين يخدمون.

(٢) عادت إلينا في عصرنا الحديث بفضل بعض قادتنا.

الخلفية الحضارية والثقافية لمنظومة العصر الوسيط الأوربي

لم تصدر دراسات عربية مصرية عن العصر الوسيط إلَّا كتابات أستاذنا يوسف كرم: الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، وفلسفة العصور الوسطى للدكتور عبد الرحمن بدوي.

وهناك مقالة نادرة للدكتور رودلف يني (نيح الله نفسه)، حاول فيها إبراز التعارض بين الأرثوذكسية والفكر المدرسي *Scholastics* ولكن مثل هذه الأبحاث الجيدة تضيع في زخم الضغط الفكري السائد الذي يمارَس من داخل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي يريد بعض قادتها أن يرثوا العصر الوسيط الأوروبي مع خليط من العصر الوسيط القبطي، فقد حاول الأنبا شنودة الثالث طوال زهاء ربع قرن فرضه بالقوة وفشل، وسوف يفشل معه الآخرون.

لكن يمكننا هنا حصر أهم مقولات الفكر اللاهوتي السائد في الآتي:

* انفصال السماء عن الأرض.
* المسيح هو رأس الكنيسة المنتصرة.
* البابا هو رأس الكنيسة المجاهدة، والقديسين وسطاء.
* الأسرار الكنسية هي وسائط نعمة.
* النعمة هي معروف وإحسان إلهي، وليس يسوع المسيح نفسه.
* التقديس هو حياة بلا خطية.

وجاءت حركة الإصلاح الأوروبي البروتستانتية لكي تضع العكس:

* المسيح هو رأس الكنيسة.
* إلغاء الكهنوت.
* الأسرار هي ذكرى لما تم على الصليب (وهو خطأ وقع فيه الأنبا شنودة الثالث نفسه).

* التبرير بالإيمان يلغي فاعلية الأسرار.
* التقديس هو السلوك اليومي المسيحي.
* الكتاب المقدس وحده هو مصدر التعليم.

إعادة اكتشاف الآباء والقديس أوغسطينوس في مطلع القرن العشرين:

عندما شطرت حركة الإصلاح الكنيسة في الغرب، كان الصراع التاريخي يدور حول علاقة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بالتراث الآبائي. وخصَّص الأب يعقوب Migne نفسه مع غيره لتحقيق وطبع كل كتب الآباء في مجموعتين: الآباء الذين كتبوا باليونانية – والآباء الذين كتبوا باللاتينية. واستخدم علماء الكنيسة اللوثرية والكنيسة الأنجليكانية دراسات الآباء في الرد على كنيسة روما، الأم الروحية لكل كنائس الغرب. ولا زالت الأبحاث تقدم حتى هذه اللحظة.

كانت إعادة اكتشاف القديس أوغسطينوس في القرن العشرين بمثابة إعادة جرعة الجانب المستيكي إلى اللاهوت، ثم تبعه إعادة اكتشاف التراث الروحي في الكتابات المستيكية التي تعود إلى بداية العصر الوسيط للأب إيكهارت والقديس برنار وناسكات ألمانيا وانجلترا وإيرلندا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا، وما أكثر هؤلاء من رجال ونساء ورهبان وراهبات استطاعوا أن يشربوا من بحر المحبة الإلهية[٣] وأن يعيدوا الجانب المسيحي القديم الغائب من اللاهوت العقلي، وهو المعرفة التي تنبع من الاستنارة بسكنى الروح القدس في القلب. ومن المحبة نفسها التي تغرس معرفةً مستيكية أكبر من المعرفة العقلية.

(٣) لا تزال المطبعة البولسية Paulist تنشر هذه المجلدات باللغة الإنجليزية، وقد صدر منها قرابة ١٠٠ مجلد في سلسلة Classics of Western Spirituality.

رفض التاريخ الكنسي هو فضيحة للعقل الأصولي:

يمثل رفض التاريخ الكنسي أكبر أركان الفضيحة الفكرية للعقل الأصولي الذي يمسك بالكتاب المقدس وحده لكي يحكم به على الماضي، والحاضر والمستقبل.

ففيما يتعلق **بالماضي،** هو يرفض ما هو ثابت تاريخيًا في تراث عالمي شرقي – غربي عرفته الكنيسة الجامعة، ليس فقط في القرون الخمسة الأولى، بل في القرون العشرة الأولى، أي ألف سنة قبل انقسام الكنيسة المؤلم والحزين.

وهو يرفض **الحاضر؛** لأن رفض التاريخ يتجلى في هجومٍ شرس باسم الكتاب المقدس لا يميِّز فيه قادة هذا الهجوم بين الممارسة الشعبية والفلكلورية، وبين الأرثوذكسية في أصالتها التاريخية (تمامًا كما يفعل د. حنين وغيره).

أما بالنسبة **للمستقبل،** حيث تتنافس الشيع والمذاهب المختلفة ذات الفكر الأصولي على هدم الأسرة وتفتيت الجماعة المسيحية.

وهكذا وُلِدَت الشيع وتأصَّلت برفض التاريخ العام، وتكوين تاريخ خاص بها، وتظهر خطورة التاريخ الخاص فيما يخلقه من مشاكل، نورد أهمها كالآتي:

* خلق تفاسير وشروحات شخصية تعبِّر عن رؤية ذاتية دون العودة إلى النص الكتابي نفسه في لغته الأصلية. ولعل أكبر مثل على هذا هو قطع كلمة "فدية" من السياق العام في العهد القديم؛ لأن الله الفادي لم يدفع فديةً لكي يفدي شعبه، ولأن الفعل في اليونانية يعني تحرير وفك الأسرى.

* خلق أو تكوين ترتيب (للعبادة) في يوم الأحد -بشكلٍ خاص- يعبِّر بكل اتجاهاته في صلوات وتراتيل تهدف إلى تأصيل فكر أو مذهب هذه الشيعة. ومجال الحديث عن التراتيل بشكلٍ خاص يحتاج لدراسة مطولة[٤]، ولكن نظرًا لضيق المجال نورد كمثال ترتيلة "قد قضى ديني كله الحَمَل". فهذه الترتيلة

(٤) راجع القسم الثاني من هذا المجلد، حيث تناولت المقالات المنشورة فيه هذا الموضوع تفصيلًا.

نسمعها في اجتماعات أرثوذكسية، في حين أنها تكرِّس لفكرة أن الصليب صار ثمنًا ودفعًا للدين، وبذلك تفصل العبادة -على هذا المستوى- بين "الحَمَل" الذي يقدَّم على المذبح، والحَمَل الذي دفع الدين على الصليب، الأمر الذي يترتب عليه التساؤل عن ضرورة "الحَمَل" الذي يُقدَّم على المذبح.

عندما تقابلت مع الأب متى المسكين عام ١٩٨٨، دار الحديث حول ما يحدث في الكنيسة، وسألني عن أهم ما كتبه، فقلت له دون تردد: كتاب صغير جدًا عنوانه "الخلقة الجديدة". ودُهِش الرجل العظيم، وقال لي: لماذا؟ فقلت له: لقد تاهت الكنيسة في مصر عن الخلقة الجديدة، وأصبح كل إنسان خالقًا لنفسه وليس مخلوقًا بواسطة الإيمان. فقال الأب متى المسكين: هذا كلام خطير .. ودار حديث طويل سوف ينشر قريبًا.

الأصولية الكتابية ورفض حرية المحبة:

عندما تكلم القديس باسيليوس عن الاتجاه للشرق، وتمجيد الثالوث، ورشم الصليب، وغيرها[٥]، فقد كان يسجِّل التسليم الكنسي الذي نُقل من جيلٍ إلى جيل؛ لأن الكتاب المقدس بعهديه لم يؤسِّس الكنيسة، وإنما تظن المذاهب الإنجيلية وغيرها -حسب ظن المؤسِّسين- أنها هي التي أُسِّست على الكتاب المقدس.

ولكن لماذا يذكر القديس باسيليوس رشم الصليب وغيره من العلامات؟

الجواب هو؛ لأننا لم نستلم من الرب نفسه موضوعًا معيَّنًا للصلاة غير الصلاة الربانية، وأن الرب ترك لنا حرية الممارسة لكي تحفظ لنا هذه الحرية محبتنا له، وتعلن محبته لنا بالروح القدس واهب هذه المحبة (رو ٥: ٥).

حرية المحبة ألزمت الذين صُلبوا مع المسيح (غلا ٢: ٢٠) أن يضعوا علامة

(٥) راجع ترجمتنا لكتاب "الروح القدس" للقديس باسيليوس، جذور للنشر، القاهرة، ٢٠١٤.

الصليب على كل شيء، وأن يُصبح الصليب هو "عَلَم النعمة"، و"طريق حرية المحبة"، وأن تظهر الأناشيد المسيحية في كل مكان لكي تصبح حياة المسيح أناشيدَ وصلواتٍ، بل ومنهجًا للحياة. ولم يكن وراء هذا كله سفرٌ أو معنىً أو آيةٌ من الكتاب المقدس، بل كان نمو رؤية المحبة التي تتحرك في حرية حسب التسليم الرسولي.

لكن **عندما تطلب الأصوليةُ آيةً أو وصيةً من الكتاب المقدس تكون بمثابة دليل على ممارسات العبادة مثل الثلاث غطسات في المعمودية أو تقديم البخور أو الاتجاه للشرق، فهي تصادر التاريخ الكنسي وتصادر حرية المحبة.**

الترتيب هو الطقس حسب التعليم الرسولي:

مرةً أخرى نؤكد أن انقطاع العلاقة مع تراثنا الآبائي والأرثوذكسي بشكل خاص، كان أحد أسبابه هو اختلاف لغة الكتاب المقدس عن لغة الصلاة، واختلاف لغة الصلاة عن لغة التعليم، وتجاهُل العودة إلى الأصل.

إن أحد أسباب ضعف حياتنا الروحية نفسه هو فقدان العلاقة اللغوية بين الكتاب المقدس وصلوات الكنيسة؛ لأن نقل هذه الصلوات من اليونانية والقبطية إلى العربية قد أضعف استيعاب المعنى، بل والمعاني التي تحددها الكلمات الأصلية. على سبيل المثال كلمة "رئاسة الكهنوت"، فقد فهم القارئ -حسب تطور اللغة العربية- أنها رئاسة بالمعنى السياسي والاجتماعي، ولكن حسب الأصل اليوناني والقبطي **Ⲙⲙⲉⲧⲁⲣⲭⲏⲉⲣⲉⲩⲥ** لا تعني كلمة **ⲁⲣⲭⲏ** الرئاسة بهذا المعنى، بل هي تعني: البدء - الأول - الأصل، ولذلك الأسقف هو الأول في الكهنوت، هو الأصل؛ لأنه خليفة الرسل، ولكنه ليس الرئيس كما هو في النظام الجمهوري، أو في قيادة الجيوش ... الخ ولذلك عندما نذكر الكلمة اليونانية "طقس"، نجد أنها قد وردت في العهد الجديد **ⲧⲁⲝⲓⲥ** عشر مرات هي

بالتحديد (لوقا ١: ٨ – ١كو ١٤: ٤٠ – كولوسي ٢: ٥ – عب ٥: ٦، ١٠ – ٦: ٢٠ – ٧: ١١ (مرتان)، ١٧، ٢١)

وبالطبع لم نكن نتوقع من المرسلين الأمريكان الذين نشروا الترجمة البيروتية أن يقدموا لنا نصًا عربيًا دقيقًا، وهذا ليس اتهامًا لأحد، وإنما حسب الترجمة البيروتية عن زكريا الكاهن أب يوحنا المعمدان: "وبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله .. (لوقا ١: ٨)، ضاعت كلمة طقس تمامًا لكن الصحيح هو:

"وبينما هو يخدم ككاهن في طقس خدمته ..."

"εν τη ταξει της εφημεριας"

الطقس هنا هو بلا شك هيكل العهد القديم.

ولكن في خدمة العهد الجديد، وبسبب تنوع مواهب الروح القدس، يقول الرسول: "ليكن كل شيء بلياقة وبحسب الطقس أو الترتيب" (١كو ١٤: ٤٠). وفي كولوسي: "وإن كنت غائبًا في الجسد لكن معكم في الروح فرحًا وناظرًا ترتيبكم ومتانة إيمانكم في المسيح" (٢: ٥)، أي "ناظرًا طقسكم ومتانة إيمانكم".

وقد دخلت كلمة "**رتبة ملكي صادق**" خلسة في الترجمة العربية البيروتية؛ لأن نص عب ٥: ٦ هو عن الرب نفسه الذي **لم يكن له رتبة كهنوتية**، بل **طقس** ملكي صادق، وتكررت في (عب ٥: ١٠ – عب ٦: ٢٠ – عب ٧: ١١ مرتين – ٧: ١٧، ٧: ٢١).

فهل كانت خدمة الكنيسة بلا طقس، أي بلا ترتيب في عصر الرسل؟

بكل تأكيد لا. وإن كان العهد الجديد لم يقدم لنا وصفًا دقيقًا كاملًا، فإن شذرات متفرقة سوف تدرس في الفصل التالي تؤكد الحرص الرسولي على طقس يوحِّد الخدمة والكنيسة معًا، أمَّا ترجمة كلمة "طقس" إلى "رتبة"، فهي خلل لغوي لا ندري له سببًا، ولكن لم يأت المسيح على رتبة كهنوتية قديمة، وإنما

على طقس تقدمة الخبز والخمر، وهو ما يستوجب العودة إلى الترجمة العربية للكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي أُهملت بسبب النزاع المؤلم والحزين بين من تولى نشر هذه الترجمة، وهو أستاذنا العظيم الأنبا غريغوريوس الذي حورب بكل أنواع العنف المكشوف والمبطن، وبين من حاربوه، وتوقف المشروع دون أن يتم.

لابد من فتح ملفات التاريخ الكنسي، فهي شهادة حق للأرثوذكسية. والذين يحاربون فتح ملفات التاريخ الكنسي عن جهلٍ وخوف هم دعاة نشر الممارسات الشعبية -غفر الله لهم- زجَّ بالكنيسة إلى مستنقع الخرافات والخزعبلات.

الاتهام بالوثنية!

لديَّ قناعةٌ راسخةٌ مبنيةٌ على أكثر من دليلٍ دامغٍ قاطع بأن عقيدة التجسد الإلهي قد غابت تمامًا عن الممارسات السائدة في الكنيسة، وعن الكتابات القبطية، وعن الوعي الكنسي، وهو ما يظهر في عظات وأناشيد عيد تجسد الرب الذي تحوَّل إلى عيد الميلاد. وما أعظم الفرق بين كلمة "ميلاد"، و"تجسُّد".

كان الأب متى المسكين هو أول من حوَّل الأنظار إلى هذه الحقيقة الغائبة، وهي أن الله نفسه جاء واشترك في إنسانيتنا، وصارت "بيت لحم مسقط رأس البشرية المفتداة"، لكن هيهات، فقد ضاع التحذير من إهمال تجسد ابن الله في خضم حرب شعواء قادتها الكراهية.

ما غاب عن الوعي هو أن المنظور والمادي اتَّحد بغير المنظور والإلهي في تجسُّد ابن الله. ولذلك، عندما نتحدث عن "الناسوت"، أي ناسوت ربنا يسوع المسيح، ينتهي هذا الحديث إلى تجريد التجسد من الاتحاد بالإنسان، أي الجسد وكل مكوناته، ويتحول الجسد الإنساني إلى كلمة مجردة هي "الناسوت"، وبالتالي ضاع من الوعي حقيقة التعبير الإنجيلي "الكلمة صار جسدًا وسكن

فينا"، أي في إنسانيتنا، وهي الحقيقة التي جعلت القديس أثناسيوس يؤكد -في تعبيرٍ واضح- أن التجسُّد "قدَّس الجسد" (تجسد الكلمة ٤٣: ٦).

وعلى ذلك يكشف الاتهام بالوثنية غياب الوعي بأن المادة دخلت في تدبير التجسُّد، وأن الإله المتجسِّد تجلى على الجبل المعروف حسب التقليد الكنسي القديم جدًا باسم جبل طابور بنور ولمعان إلهي يضيء أكثر من الشمس[٦]. ورغم محاولات إحياء عيد التجلي، إلَّا أنها انتهت بالفشل، ربما لأنه يجيء في صوم العذراء، وربما لأن الثقافة الغالبة لم تعد تسمح بمكانٍ مناسبٍ لتجسُّد ابن الله، والأدلة على ذلك كثيرة، ولكن ما يهمني أن أؤكد عليه الآن هو أن إكرام وتقديس ما هو مادي مثل الصلبان والأيقونات، وقبل ذلك الإنسان نفسه الذي نال كرامة ابن الله، يرتبط أشد الارتباط بتجسد ابن الله، وذلك على الرغم من أن أحد جوانب الثقافة المصرية والكنسية المعاصرة يتمثل في ثقافة الاستخفاف بالإنسان عمومًا، وخصوصًا الطفل والمرأة، وهو ما يهبط بهذه الكرامة إلى أدنى مستوياتها، وهو ما يتبدى في المعاملة المتعالية التي يبديها الإكليروس للشعب، واعتبار العنف هو الحل الأمثل لكل مشاكل التربية، وانعدام العقلانية في شرح أسباب منع أشياء وتقيد الحريات خوفًا من الشك. وإذا كان الشك يؤكد الكفر عند غيرنا، إلَّا أنه عند الرب نفسه هو "قِلة إيمان"، أي إيمان غير ناضج، لذا كان توبيخ الرب يسوع للرسل هو باستعلان قيامته، ولكنه لم يضرب بطرس الذي جحد الربَّ بقَسَمٍ، ولم يرفض توما، بل كان إعلان المحبة في سؤال الرب لبطرس: "هل تحبني؟" كافيًا لرد الوعي للرسول الساقط، وكان السماح لتوما بأن يلمس الرب كافيًا لرد الإيمان، ولم نسمع التأنيب الذي بات من مكونات الثقافة المعاصرة.

---

(٦) راجع قسمة الأعياد السيدية للابن: "الذي تجلى على جبل تابور قدام تلاميذه القديسين وأضاء وجهه كالشمس". راجع أيضًا: مت ١٧: ١ -٩، مر ٩: ٢ – ٩، لو ٩: ٢٨ – ٣٦، ٢ بط ١: ١٦ – ١٨.

وهكذا يمكننا أن نفهم لماذا كان يوليوس الإقفهصي يجمع أجساد الشهداء؟ لأنها المجال الذي استُعلِن فيه يسوع، وشهادةُ يسوع بالدم وبالموت. ولم يكن حفظ أجساد القديسين هو تكريم لمجرد التكريم، بل إعلانًا عن الشهادة، وأنها تمت في اللحم والدم.

لكن عندما نسمع **الاتهام بالوثنية**، فإننا يجب أن نتوقف قليلًا، ليس للرد على اتهامٍ فارغ يكشف **عن شخصٍ لا يؤمن بتجسُّد ابن الله**، وإنما لإيضاح ثلاث حقائق لا يجب أن تغيب بالمرة عن الوعي:

الحقيقة الأولى: إن المسيحية الحقيقية هي رسالة تكريم للإنسان، ورد الكون المادي الذي أُخضع للبطل إلى حرية مجد أولاد الله (رو ٨: ٢١). لأنه من هذا الكون الذي نعيش فيه، سوف يولد الكون الجديد: السماء الجديدة والأرض الجديدة؛ لأن هذا الكون يمر بمخاضٍ أليمٍ مُوجِع، وهو مخاضٌ يجب أن يكون ليس فقط موضعَ اهتمام، بل تكريمٍ وتقديسٍ لمن جاء وسكن فيه بالجسد ولا زال يسكنه في أجساد ونفوس المؤمنين معطيًا إياهم شركة في مسحته الإلهية بالروح القدس (١ يو ٢: ٢٠).

الحقيقة الثانية: هي أن استعلانات الثالوث في الأسرار الكنسية، لا سيما سر الإفخارستيا هو استعلانٌ إلهيٌّ في الكون والمادة، هو تحول الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه. وهي حقيقة غابت من فكر حركة الإصلاح في شكلها المتطرف عند زوينجلي، ولم ينكرها كالفن أو لوثر، وإنما ابتعدا عن الألفاظ اللاتينية السائدة والوافدة من العصر الوسيط الروماني. هنا بالذات، الكلُّ مدعوٌّ إلى هذه الشركة في الحياة الإلهية: الإنسان الذي صار له وجودٌ مماثلٌ في جوهر الثالوث، أي في إنسانية يسوع المسيح الأقنوم الثاني، والكون الذي يدخل شريكًا في التسبيح، حسبما نرى في المزامير وفي صلوات التسبحة، وعناصر الكون المادي

مثل المياه وزيت الزيتون ... إلخ فقد تجلى ابن الكلمة الله ليرد للخليقة الفرح الضائع بسقوط آدم.

الحقيقة الثالثة: إن جيش الشهداء والقديسين الراقدين ليسوا مجرد أسماء تُطبع في كتب، ولعل القارئ لا يدرك أن كلمة "أيقونة" وردت ٢٣ مرة في النص اليوناني للعهد الجديد، لكن الأيقونة -كما أشرنا، وكما هي في الحقيقة- هي صورة الله المطبوعة في اللحم والدم، أي الإنسان. وهي تُطبع بعد ذلك على المادة؛ لأن بقاء القديسين أسماء مجردة على الورق هو محاولة لإبعاد هؤلاء من الحياة المنظورة الإنسانية التي دُعيت للتجديد.

هذه الحقائق الثلاث لها أساسٌ واحد هو يسوع المسيح الإله المتجسد الذي حمل جسده معه إلى السماء. ولاحِظ تعبير الرسول "أجلسنا معه في السماويات" (أف ٢: ٦)، حرفيًا "المواضع السماوية"، حيث تتحد السماء والأرض، وحيث يعود الكل إلى الله في يسوع المسيح آدم الثاني الرب من السماء.

فإذا كان هذا هو الوثنية، فماذا يكون إيمان صاحب هذا الادعاء سوى أن يسوع قد تحول إلى فكرةٍ في عقله، وكلمةٍ مطبوعةٍ في كتاب أو ترتيلة تقال، أو عظةٍ تحضُّ على الأخلاق المسيحية الجيدة؟

إن كل ما أشرنا إليه يفقد شرعيته ما لم يكن ليسوع وجودٌ حقيقيٌّ في جسد مجده (فليبي ٣: ٢١)، وجسدٌ مستعلنٌ في الأسرار وحياةٌ تنسكب في المادة والروح، وعندما يغيب ذلك، يتحول الإيمان إلى هلعٍ وفزعٍ وخوفٍ من الكون ومن الجسد. وصاحبنا د. حنين عبد المسيح ليس أسوأ من بعض قادتنا الذين عادوا إلى شريعة موسى السابقة على تجسد ابن الله ونقلوا التطهيرات وفرائض طهارة الجسد إلى الحياة الكنسية وزعموا أنها تعليم الكتاب المقدس، وهي فعلاً تعليم العهد القديم الذي لم يَعُد يُلزِم المسيحي حسب قرار مجمع

الرسل ... لكن كل هذا ضاع وغاب؛ لأن الثقافة السائدة تحتقر الجسد وتراه في مستوى منحط، وهو ما يظهر في التمريض وفي التدريس وفي تطبيق النظام والقانون نفسه؛ لأن الإله المتجسد لم يدخل هذه الثقافة، بل هو ما زال بعيدًا عن ثقافة الكنيسة التي تقدِّس أجساد الشهداء أكثر من أبناء وبنات الكنيسة، وتسبِّح والدة الإله بكل ما يمكن أن يقال من أعظم العبارات -وهذا حق وواجب- ولكنها تعامل المرأة باحتقار.

الفصل الخامس

ماذا يعني تجسد ابن الله في الحقيقة والواقع؟

بدايةً، الربُّ يسوع المسيح هو آدم الأخير – الرب من السماء (١كو ١٥: ٤٥) جاء لكي يكون بدايةً جديدةً للجنس البشري. فهو الذي جمع في ذاته كل البشر، بل السماء والأرض معًا، كرأسٍ جديد (كولوسي ٢: ١٨) للخليقة الجديدة (٢كو ٥: ١٧).

هكذا دخل الله الحياة الإنسانية بتجسد الكلمة الذي تجسد وسكن بيننا أو فينا بالجسد (يوحنا ١: ١٤) ولاحظ كيف تحولت العلاقات التالية:

* علاقة الله بالإنسانية: صارت في المسيح كرب، كوسيط، كرأس.
* علاقة الله بالكنيسة: فالمسيح هو رأس جسده الكنيسة.
* علاقة الله بالمؤمنين: صار الربُّ في كل مؤمن، ليس فكرةً في العقل، بل حياةً وشخصًا يسكن في القلوب (كولوسي ١: ٢٧)، وصار تكريم المؤمن لأخيه المؤمن تكريمًا للرب نفسه، لأن الرب "وحَّد" كيانه الإلهي المتجسد بالمؤمنين صانعًا في ذاته، الإنسان الجديد الواحد الذي ليس هو من اليهود ولا من الأمم (أفسس ١: ١٥)، بل من فوق، من الله الآب، حيث ينمو هذا الإنسان الجديد من الله نفسه (كولوسي ٢: ١٩).

هذه العبارات السابقة تصبح بلا مضمون بدون التجسد، وتكون بلا أساس بدون التجسد، وهي تلزمنا بأن نكرِّم كلٌّ الآخر، وأن يكون لدينا الاحترام والتقديس الذي يقدَّم للرب نفسه.

والذين يعتقدون بفكرة مجردة اسمها الإله المتجسد، هم هؤلاء الذين لا يظهر في شعورهم ووعيهم أن هذه الفكرة تتجسد في واقع حي هو الكنيسة، التي لم تكن في أي يومٍ من الأيام "جماعةَ مؤمنين" حسب تقوى الفولكلور الشعبي، بل هي "جسدُ المسيح الحي"، هي الكنيسة التي لا تفصل بين الرب وعلامات التكريم والوقار التي تشير إلى تجسد الرب مثل الصليب، وتقديم البخور للمؤمنين والأيقونات. هذه هي حقيقة الواقع نفسه الذي جاء فيه التجسد باتحادٍ كاملٍ بين اللاهوت والناسوت، وبين غير المنظور والمنظور، بين الروح والمادة، بين السماء والأرض. ولو كان المتجسد في السماء البعيدة ذات "القبة الزرقاء"، أو لو كان يجلس على كرسي مجده في فضاءٍ بعيد، لقلنا إن تكريم ووقار علامات تجسده هي وثنيةٌ فعلًا بسبب "غياب المتجسد"، لكن ما أعظم تناقض هذا التعبير، أي "غياب المتجسد"، إذ كيف يغيبُ مَن هو متجسِّد عن عالم الإنسان. **مَن يكرم مؤمنًا يكرم الرب نفسه، ولو كان المؤمن بدون الرب لتحوَّل الإكرام إلى شبه وثنية**؛ لأن الإكرام شيء والعبادة شيءٌ آخر.

لقد وصف المتطرفون من أتباع المذهب الوهابي مسيحيي العراق وسوريا ولبنان ومصر بأنهم من "عُبَّاد الصليب"؛ لأن "الوهابية" في شكلها ومضمونها هي أقصى حالات التوحيد الراديكالي الذي ينكر كل علاقة بين الله والكون، عندئذٍ يصبح أي تكريم للبشر -مهما كان نوعه- بمثابة رِدةٍ عن "التوحيد"، فهل يجوز لمن تربَّى في كنيسة المسيح أن يسلك ذات المنهج، وأن يصف تكريم الرب في طقوس الكنيسة وفي العلاقات الجديدة بأنها دعوة للوثنية؟ الجواب بكل يقين، لا يجوز؛ لأن هذا ينفي شركة الله في الإنسانية في تجسد ابنه الوحيد.

ولعل إنكار تجسد ابن الله، وغياب العلاقات الجديدة التي جاء بها تجسد ابن الله هو سبب الانحراف نحو "وهابية مسيحية" لا تأخذ إطلاقًا

بالشركة ولا بالتجسد. وقد بدأت بواكير هذه الوهابية القبطية تظهر مبكرًا في دعوة الناس إلى حياةٍ أخلاقيةٍ سامية بدون الروح القدس، روح التقديس، وفي اعتبار النسك اقترابٌ من الله، رغم أن الله هو الذي اقترب وصار كواحد منا، والنسك الحقيقي هو قبول هذه البشارة. كما ظهرت هذه الوهابية في العودة إلى شريعة التطهيرات في العهد القديم، وفرض هذه الشريعة على المؤمنين، ثم تطورت إلى الهجوم على كل ما له علاقة بالشركة في الطبيعة الإلهية، والتي تظهر معالمها في التعليم الرسولي كالآتي:

أولًا: في الشكل shape الخاص بالعلاقة العضوية:

الكرمة والأغصان (يوحنا ١٥: ١)، فهي علاقة عضوية لا يمكن للأغصان أن تحياها بدون الأصل – الجذر – ومن هنا جاءت كلمة أرشي arche بداية / رأس، ولذلك كُتب أن الرجل هو بداية المرأة، أي رأس المرأة (أفسس ٥: ٢٣)، وبدايتنا نحن هو الرأس، أي المسيح "رأس كل رجل هو المسيح"، ولأن "رأس" تعني بداية أو أصل؛ كتب الرسول "رأسُ المسيح هو الله" (١كو ١٢: ٣). و"الكرمة" هي الشكل الذي يُستعان به كاستعارة؛ لكي ينقل بها المضمون إلى الواقع الإنساني -وهو بداية تكوين الإنسان حيث ينمو "الرأس" أولًا ومنه تنمو كل الأعضاء (كولوسي ٢: ١٩)- إلى الحقيقة الماثلة في الحياة الجديدة: الرأس، أي المسيح الذي منه ينمو كل الجسد.

ثانيًا: في الاختبار الحي:

وهو ما يظهر عندما يلمس الإنسان جسده، ويرى فيه الجسد الواحد، رغم أنه مكوَّنٌ من أعضاءٍ كثيرةٍ، إلَّا أن الجسد يظل واحدًا. وتصبح هذه الحقيقة الماثلة أمام الوعي، بل الراسخة في الوعي، هي ذاتها حقيقة الممارسة الكنسية، حيث يدرك الكل أنهم أعضاءٌ في جسدٍ واحدٍ مركَّبٍ

من عدة أعضاء حسب شرح الرسول في (١كور إصحاح ١٢ كله). هذه الحقيقة الراسخة تجعل الرسول يؤكد على أنه إذا كان الاختبار الإنساني الحي يجعل المؤمن يدرك أن جسده الواحد غير قابل للانقسام، ولا يمكن أن تدخل أعضاء الجسد الواحد في حربٍ أو صراع (١كو ١٢: ١٥ وما بعدها)، فإن الحقيقة التي يجب أن ترسخ في الذهن هي أن المسيح كذلك هو جسدٌ واحدٌ لا يمكن أن ينفصل منه عضوٌ بسبب تنوع الأعضاء:

* الجسد واحد وله أعضاءٌ كثيرة (١كو ١٢: ١٢).
* كل أعضاء الجسد الواحد رغم أنها كثيرةٌ هي جسد واحد (١كو ١٢: ١٢)؛ لأنها من طبيعة واحدة.
* كذلك المسيح أيضًا (١كو ١٢: ١٢).

المثال: الجسد الإنساني الحي والراسخ في الوعي والملموس.

التطبيق: المسيح.

ثالثًا: في الأصل الإلهي السمائي:

إذا كان آدم الأخير هو الرب من السماء (١كو ١٥: ٤٧)، فإن الحياة السمائية ليست فكرةً، بل نحن "نُحسب مثل (الرتب الملائكية) القائمين في السماء[١].

* الشركة حسب الطبيعة الواحدة (عب ٢: ١٤)، هي شركة الأولاد في اللحم والدم.
* الشركة في النعمة التي تؤهِّل للشركة في خدمة القديسين (٢كو ٨: ٣).
* شركة في الروح القدس (فيلبي ٢: ١ مع فيلبي ١: ٧).

لكن لاحظ أن هذه الشركة هي من الآب في يسوع المسيح، وهي شركة أبدية. وهذا هو الأصل الإلهي السمائي لها:

(١) صلاة الساعة الثالثة الخاصة بحلول الباراكليت "إذا ما وقفنا في هيكلك المقدس نُحسب مثل القيام في السماء. يا والدة الإله أنت هي باب السماء (باب الهيكل الجديد السمائي)، والقيام في السماء هم رُتَب الملائكة (نقلًا عن كتاب حكمة الآباء المصريين للراهب سمعان بن كليل).

* الحياة أُظهرت.
* الحياة التي كانت عند الآب.
* أُظهرت لنا، أي أُعلنت، وأيضًا أُعطيت؛ لأنها لم تكن "للفُرجة".
* الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به.

لكي يكون لكم أيضًا شركةٌ معنا.

* شركتنا مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (١يوحنا ٢: ١ - ٤).
* شركة حياة أبدية وشركة في المجد الآتي (١بطرس ٥: ١)

ولذلك نحن شركاء الروح القدس (عب ٦: ٤)؛ لأننا نشترك في قداسته، أي في قداسة الله نفسه (عب ١٢: ١٠)، وهذه هي أيضًا شركة الطبيعة الإلهية (٢بطرس ١: ٣ - ٤).

* شركة أيضًا في المذبح؛ لأن الذين يأكلون الذبائح هم شركاء المذبح، ونحن لنا شركة جسد المسيح، أي شركة الدم في الإفخارستيا وفي خبز الحياة (١كو ١٠: ١٥-١٨)، ولذلك يحذِّر الرسول: "لا تقدرون أن تشتركوا (أي تشربوا كأس الرب وكأس الشيطان) في مائدة الرب وفي مائدة الشياطين" (١كو ١٠: ٢١).

هكذا تعود الشركة إلى الأصل الإلهي، إلى شركة الروح القدس (١كو ١٣: ١٤)، وهي الشركة التي جاءت بها نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب.

الشركة والشِّرك والوثنية:

عندما يلغي التوحيد الراديكالي كلَّ علامات ورموز واستعارات وأشكال شركة الله في حياة الإنسان، يفتح بابُ "الإلغاء" كلَّ أبواب الاتهامات -وما أسهل الاتهامات- فهي دفاع الأطفال عن خوفهم، لكن الله الذي أشرك حياته بنا هو الذي منح الإنسان هذه الشركة:

- الشِّرك في المحبة توحيدٌ صحيح.
- توحيد الثالوث الذي أشركنا في حياة يسوع المسيح.
- الشِّرك في المحبة بناءُ شركة.
- شركة المحبة تحفظ الحدود.
- تعبر هوة الموت وتعطي الخلود.
- يظل الله الثالوث مانحًا الوجود.
- يعطي الحياة وبالمحبة يجود.
- يظل الخالق، خالقًا.
- ويبقى المخلوق مخلوقًا.
- فُصِّلت المحبة على الاتحاد الأقنومي في يسوع.
- ظل الناسوت كما هو من العذراء مولود.
- مُجِّدَ بكل أمجاد اللاهوت.
- وظل ناسوتًا.
- يحمل قوة القيامة.
- بعدم الموت يسود.
- هزم الجحيم.
- أقام الإنسانية فيه.
- أجلسها معه في السماويات.
- ألبس المؤمنين عزةَ الأبد.
- طوَّح إبليس وجهنم وما فسد.

غياب الشِركة من راديكالية الإلغاء:

أشرك - يُشرك - شِرْكَةً، وباقي المفردات، هي إحدى كلمات اللاهوت المسيحي التي يمكن أن يطويها المد الفكري والثقافي الذي "يُجرِّم" الشِّرْكة، ويعتبر أن الشركة ذنبٌ عظيم. كان هذا هو الاتهام الذي نشره الأنبا شنودة الثالث في كتابه "بدع حديثة". وعندما يكون أحد الاتهامات هو التعليم "بالشِّرك بالله"، يكون القتل هو النتيجة الطبيعية لهذا الاتهام[٢].

ما هو جوهر المشكلة؟

أولًا: الثالوث هو **شِركة** محبة إلهية بين أقانيم الثالوث. محبة مُعلَنة في الابن بالروح القدس. مُعلنة للدعوة، ودعوة مطروحة للقبول، وقبول للشركة في هذه المحبة.

ثانيًا : التجسد هو **شِركة** الله في الإنسانية، **شِركة** في ميلادنا عندما ولد، و**شِركة** في موتنا لأنه مات لأجلنا، و**شِركة** ترد الحياة لنا لأنه غلب الموت بالصليب وأظهر القيامة والخلود "وبالموت داس الموت" .

ثالثًا: سُكنى الروح القدس هي "**شِركة** الروح القدس" (٢كور ١٣: ١٤)، **شِركة** في شهادة الروح للابن، لأن الروح هو واهب هذه الشهادة (١كو ١٢: ١-٣)، وشركة في بشارة الإنجيل، لأن الروح هو الذي يعطي كلمة الإنجيل الحياة، لأنه روح حياة يسوع (رو ٨: ٢) وهو الذي يشركنا في ميراث المسيح (كولوسي ١: ١٢ - أفسس ٣: ٦)، هو واهب النعمة التي بدونها لا شركة لنا في المسيح يسوع.

---

(٢) راجع كتاب "بدع حديثة"، حيث يقول: "فهم يدعون إذن للشركة في اللاهوت!! ولعل هذا بعض مما يسميه أخوتنا المسلمون "الشِّرك بالله"!!

الحد الفاصل بين راديكالية التوحيد وشركة الثالوث:

ما هو الحد الفاصل بين راديكالية التوحيد وشركة الثالوث؟

إنه حدٌّ ثنائيٌّ يمسُّ الوجودَ الإنساني نفسه والكيان الإلهي؛ لأن كل خطاب عن الإنسان هو بالضرورة خطابٌ عن الله نفسه، فكل ما يقال عن الإنسان يحدد أو يكوِّن صورةً عن خالقه؛ الله. والعكس أيضًا صحيح، فكل ما يُقال عن الله نفسه يعطي لنا بشكلٍ مباشر تعريفًا للإنسان من خلال العلاقة المعلَنة من الله.

فما هو نوع هذه العلاقة حسب التعليم المسيحي الأرثوذكسي؟

أولًا: هي علاقة شخصية، أي أقنومية بين الله والإنسان.

تبدأ هذه العلاقة بالأساس الذي شُيِّد عليه اللاهوت المسيحي كله شرقًا وغربًا، وهي عقيدة الخلق من العدم، فهي أساس كل خطاب لاهوتي مسيحي أرثوذكسي.

لقد جئنا إلى الوجود من العدم[٣]، من لا شيء خُلق الإنسان، فالوجود والحياة والحركة هي من الله، هي هبة الحياة (أع ١٧: ٢٨). ولا ينكر التوحيدُ بكل صوره[٤] خَلْقَ الإنسانِ من العدم، فهذه حقيقة ثابتة في كل كتابات الموحِّدين، ولكن التوحيد السلبي بنوعٍ خاص يَغفَل -ربما عن قصد- خَلْقَ الإنسان على صورة الله ومثاله (تكوين ١: ٢٦). وقد نجد تعبير "صورة الله" عن عظماء الموحِّدين في مدارس التصوف مثل محيي الدين ابن عربي، وجلال الدين الرومي، وغيرهما، ولكن لا يوجد لاهوت صوفي يحدِّد علاقة الإنسان بالله على أنها علاقة "الصورة"، أي الإنسان "بالأصل"، أي الله. أمَّا الحقيقة الراسخة

(٣) راجع كتابنا: حاجتنا إلى الثالوث، جذور للنشر، القاهرة، ٢٠٠٧.

(٤) حسب تاريخ العقيدة المسيحية يوجد نوعين من التوحيد: توحيد إيجابي يعرِّف الذات الإلهية ويشرح حياة الله نفسه، وتوحيد سلبي يكتفي بنفي الشرك وتعدد الآلهة. راجع كتابنا: هل تؤمن المسيحية بإلهٍ واحد؟ جذور للنشر، القاهرة، ٢٠١٦.

في التوحيد الإيجابي، وهو توحيد المسيحية -الذي يثلِّث أقانيم الجوهر الإلهي- فهو يقوم على تأكيد حقيقة راسخة، وهي أن كل اسم أو صفة أو لقب، إنما هو جزءٌ من علاقة، وكل علاقة مع الله هي علاقة وُهبت من الله، وهي ليست علاقة لفظية قائمة على استعمال كلمات أو ألقاب أو صفات بلا مضمون أو بلا وجود أو بلا كيان. فقد رفض اللاهوت الأرثوذكسي هذا الاتجاه التجريدي منذ نهاية القرن الرابع بظهور البدعة "الأنومية"، وهي ثمرة البدعة الأريوسية. فقد حاربت "الأنوميةُ" الأرثوذكسيةَ في محاولةٍ للفصل بين القوة والنعمة من جانب، وجوهر اللاهوت من جانب آخر. فهي صورةٌ من صورِ توحيدٍ يقطع كل أوصال العلاقة الأقنومية بين الله والإنسان، وهي ذات الصورة الأريوسية لتوحيدٍ عَزَلَ الآبَ تمامًا عن الخليقة، وجرَّد الإعلان عن ذات الله في الابن مِن كل ما هو أزلي وحقيقي في الذات الإلهية؛ عندما جعل الإعلان عن الأب، أي الابن يسوع المسيح، مخلوقًا متميزًا عن باقي المخلوقات.

هكذا نعود إلى ما سبق وقررناه في السطور السابقة وهو:

* إن الإعلان الإلهي عن الله هو أساس كل خطاب عن الإنسان.
* إن تحديد طبيعة الإنسان ومكانته هو بدوره أساسُ كلِّ خطابٍ عن علاقة الإنسان بالله.

لذلك، فـ "صورة الله ومثاله" ليست مجردَ وصفٍ لفظيٍّ يُستهان به؛ لأنه وصفٌ عن الوجود الإنساني الحقيقي. فلا وجودَ حقيقيًّا للإنسان بدون الصورة والمثال، بل حتى في حالات تفكُّك الصورة الإلهية في البشر الساقطين في الشرور، يظل في قلب كلِّ واحدٍ منهم قبسًا أو لمحةً من الصورة الإلهية يعبِّر عنها:

* طلب الجمال والسعي وراءه.
* العطش لحبٍ حقيقي مثالي.

* البحث الدائب عن الكمال.

* السعي وراء الحقيقة رغم التكاليف.

حتى وراء يأس أشرِّ الخطاةِ يكمن في قلب كلِّ واحدٍ منهم رغبةٌ دفينةٌ في النفس تظهر في الندم على الفشل في أن يكونوا بشرًا، وفي الندم على ما فعلوه، وفي تمني أن تكون لهم حياة غير تلك الحياة التي عاشوها وأفسدوها. ذلك العطش للتغيُّر وللتجديد والتمني يؤكد أن الإنسان -حتى في سقوطه- لا زال يحمل قبسًا من صورة الله.

على أن الصورة الإلهية لا وجودَ حقيقيًّا لها بدون علاقة مع الله، بدون علاقة شركة تعطي للإنسان مكانةً عند الله كصورة الله ومثاله. ولا يمكن أن يكون للإنسان "صورة الله" بدون أن يكون له شركة مع الأصل وُصِفَت في تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس بأنها شركة (في القوة العاقلة لله الكلمة) (تجسد الكلمة ٣: ٣).

بل خُلق الإنسان لكي يكون "ظِلًّا للكلمة" (تجسد الكلمة ٣: ٣).

فهو يتبع الكلمة، وهذه هي أول ملامح العلاقة الأقنومية بين أقنوم الكلمة الابن والإنسان الكائن كأقنوم يحمل الصورة الإلهية.

ثانيًا: إن **الخلقَ من العدم** هو أساس الخطاب اللاهوتي عن "النعمة"؛ **لأن الإنسان المخلوق من العدم لا يملك كيانه، ولا يمكن له أن يحدد "مصيره" بدون خالقه.**

كانت هذه هي مشكلة آدم الأول: تحديد المصير بدون الله، تحديد الذات هو نفسه تحديد المصير؛ لأن الإنسان كمخلوق يصنع كيانه، كل أعمالنا تكوِّن وتطوِّر الكيان الإنساني الموهوب من الله. هذا هو ما حدث وما يحدث. والإنسان الذي لا يصنع كيانه بالشركة في يسوع المسيح، لا يدرك أنه بدون الله "فارغٌ"،

والفراغ هو الموت، هو النهاية أو المصير الذي اختاره آدم الأول والذي انتشر في الجنس البشري كله؛ لأنه وُلد "خارج الجنة"، أي "خارج علاقة الأقنومية". وهنا تأخذ قضية الوراثة دلالتها، فهي تؤكد حقائق قد تغيب في احتدام عواطف ومشاعر البحث عن سبيل الخروج من المأزق، هذه الحقائق هي:

* **وحدة الجنس البشري**؛ لأن البشر رغم وجودهم كأفراد إلَّا أن هذا الوجود لا يمكن فهمه بالمرة بعزل كل فردٍ عن الآخر؛ لأننا نولد ونحيا مع غيرنا وليس فقط بمساعدة غيرنا، بل لأن وجودنا ذاته لم يأتِ من العدم، بل من العدم قبل الخلق، ولكن بعد الخلق، بالولادة. ولعل تقدُّم علم الوراثة، أظهر لنا حقيقة وراثة الصفات الشخصية لكل فرد مهما كان انتمائه الاجتماعي.

* **وحدة الحياة العقلية**؛ لأنها ليست ثمار جهدِ فردٍ واحدٍ بعينه، بل هي ثمرة الشركة الإنسانية في التقدم، أو حتى في النكوص والتراجع عن النمو وعن التطور.

هكذا سارت الإنسانية كلها عبر التاريخ، ترث اللغة، والعادات والأفكار، بل والمعتقدات نفسها[٥].

الصورة الإنسانية حسب راديكالية التوحيد:

الصورة الإنسانية حسب راديكالية التوحيد ليست هي "صورة الله"، بل "صورة الإنسان". قد نجد فيها ملامح "الفِطرة"، وهي ملامح مطلوبة وجيدة، ولكنها لا تحمل في داخلها سوى حدود "الفِطرة"، فهي بلا تطلُّعٍ لما هو أعلى وأسمى، بل تكتفي بالبقاء في دائرة "الطبيعة". لقد حفظت المسيحية الشرقية

(٥) وراثة الموت من آدم هو ما يؤكده اللاهوت الأرثوذكسي، أما وراثة الموت مع خطية آدم فهو ما يؤكده اللاهوت الغربي ابتداء من القديس أوغسطينوس وهو ما يكشف عنه تعبير "الخطية الأصلية". راجع كتابنا: سيادة الموت أم وراثة الخطية، جذور للنشر، القاهرة، ٢٠١٤. وراجع أيضًا للمؤلف: خطية آدم ووراثة الموت، بحث آبائي من العصر الرسولي إلى القديس ساويرس الأنطاكي، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢١.

الأرثوذكسية أهمية الطبيعة الإنسانية، ولكنها أكَّدت على تطلُّع الطبيعة الإنسانية لأنْ يكون الإنسانُ شخصًا، أي أقنومًا. فلا طبيعةً إنسانيةً نامية متطورةً بدون أن يكون الإنسان شخصًا يسعى إلى ما هو أعلى وأسمى، فتدخل الطبيعة دائرة العلاقة الأقنومية لكي يرتفع الإنسان ثانيةً نحو الأصل.

لقد جاءت راديكالية التوحيد ووُلِدَت من الخوف من الوثنية، وهو خوفٌ حقيقيٌّ له تاريخٌ في كل شعوب الأرض التي عَبَرَت مراحل الوثنية في حقبة من حقبات تاريخها، لكن ما هي دلالة الوثنية؟ هي البحث عن "إلهٍ" خاضعٍ لسيطرة الإنسان. إلهٌ يمكن للإنسان أن يستخدمه كما يشاء في العبادة وفي السحر وفي الشعوذة لإرضاء النزوات الإنسانية لكي يصبح الإلهُ "عبدًا للإنسان". هكذا انقلب الوجود من صورةٍ لله تسعى وراء الإله الحقيقي إلى صورةٍ إنسانية تسعى وراء ما زيَّفه الإنسانُ عن نفسه. لقد جاء التوحيد الراديكالي لكي يضرب ويخلع الوثنية من جذورها، ولكنه مع نجاحه في خلع جذور الوثنية. خلع الصورة الإلهية أيضًا.

أوصال الشركة الإلهية الإنسانية حسب الكلمة المتجسد:

لم يفقد الإنسان الصورة الإلهية بالسقوط؛ لأنه كان قد أُقيم قبل السقوط إلهًا للكون، ورغم تشوُّه تلك الصورة بعد السقوط، إلَّا أنه ظل على حاله أيضًا إلهًا للكون.

السقوط هو إنه أراد أن يكون ذلك الإله بدون الله.

"أيها الرب سيدنا ما أمجد اسمك ...
مَن هو الإنسان حتى تذكره
وابن آدم حتى تفتقده
تنقصه قليلًا عن ألوهيم[٦] **..."** (مزمور ٨: ٤).

(٦) حسب الأصل العبراني.

وقد أكد مزمور ٨٢: ٦ - ٧ ذات التعليم.

من صلوات المزامير ندرك أن الإنسان هو "ملك الكون"، وأنه يقدِّم التسبيحَ مع كل الخلائق:

"اهتفي للرب يا كل الأرض ...
ليعُجَّ البحرُ وملؤه
المسكونة والساكنون فيها
الأنهار لتصفق بالأيادي
الجبال لترنم معًا أمام الرب" (٩٨: ٤ - ٩ راجع مزامير ٩٩-١٠٠-١٠٤).

"ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمةٍ صُنِعَت
ملآنةٌ الأرضُ من غناك" (مز ١٠٤: ٢٤).

وبدأت الحقيقة تظهر أكثر بمجيء الكلمة، فهو قائد الكون الذي يحرِّك كلَّ الكائنات نحو غاية وجودها (القديس أثناسيوس، الرسالة إلى الوثنيين ٤١: ٣)، فهو خالق كل الأشياء الذي "فيه خُلِق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى .. الكل به وله قد خلق" (كولوسي ١: ١٦).

الكل به،
الكل له قد خُلق.

لقد جاء الكلمة ليس فقط من أجل خلاص البشر، بل لتجديد الخليقة التي تئن، ودخلت مخاض التجديد في انتظار انعتاقها من عبودية الفساد (رو ٨: ٢١ – ٢٢).

هكذا تدخل الخليقة الليتورجية مع الإنسانية المفتداة؛ لأن الكلمة المتجسد هو الرب ملك الخليقة الجديدة الذي يجمع تحت رأسِهِ الكلَّ ما في السموات وما على الأرض (أفسس ١: ١٠). وبالرغم من ذلك، فقد غابت المياه، والأشجار، والأرض، والزروع، والحيوانات ... الخ. بل غاب نهر النيل من صلوات المتطرفين من الإنجيليين.

هكذا قُطِعَت أوصال الشركة.

فأصبحت الخليقةُ بلا نعمة لأنها خليقةٌ ساقطة، حتى بعد التجسد، وبعد أن مشى الله بقدمي إنسان على الأرض!!

والإنسان صورة اللهِ تُرِكَ بعيدًا عن الخطاب اللاهوتي. فُصِلَت الصورةُ عن الأصل، فكيف وما هي غاية التجديد؟

يقولون علانيةً: اِقبل المسيح ربًّا ومخلصًا. هذا حسنٌ ومطلوب، لكن ما هي علاقة الشركة الجديدة في المسيح؟ وأين هو وضع الإنسان الجديد الذي يقود الخليقة نحو الانعتاق؟ وأين المياه التي تقبل استدعاء الروح القدس، وهي ذات المياه التي اعتمد فيها يسوع؟ وأين ثمر الأرض الذي يقدِّم خبز الإفخارستيا مع عصير الكرمة ...؟

وهكذا يقف الأصوليون وفي يدهم الكتاب المقدس وحده بلا ليتورجية؛ لأن الفكر الأصولي هو فكر غير مسيحي، رغم كثرة كلمات وفصول الكتاب المقدس التي يقدِّمُها هؤلاء سواء كان ذلك عن حُسن نية، أو عن سوء نية: عن حُسن نية لأنهم يظنون أنها الإيمان، وعن سوء نية لأنهم يسعون لهدم العبادة المسيحية الأصلية القديمة.

ما هي أوصال الشركة التي قُطعت باسم الكتاب المقدس؟

ليست الخليقةُ فقط هي التي أصبحت خارج الشركة، بل طال الأمر أيضًا القديسين. هؤلاء ماتوا، وصارت الكنيسة بلا تاريخ، وحشروا شفاعة الرب يسوع وشفاعة الروح القدس في جدلٍ عقيم كانت الغايةُ منه أن تَفصِل شفاعةُ الربِّ الكنيسةَ عن أعضائها الذين رحلوا عن هذه الحياة الفانية إلى الحياة الغالبة بالنعمة. وهكذا ساد الموت من جديد على التاريخ، وأصبح للموت سيادةٌ على القديسين، وجعلوا من الرب مجموعةَ أفكارٍ تقال:

* فهو لا علاقة له بعلامة الصليب.
* وهو لا شأن له بالأيقونات.
* هو بلا مذبح وبلا هيكل.
* لا يقدَّم له البخور مع الملائكة والقديسين والشعب.
* الرب يجلس في السماء، ومحبوسٌ في كتب التراتيل لا توجد له علامة أو رمز على الأرض تشير إلى حقيقة تجسده.
* الإنسانُ ليس مَلِكَ الكون، والكونُ لا علاقة له بالصلوات.

مثالٌ على غنوصية الأصوليين:

سمعنا ولا نزال نسمع من الأصوليين الإنجيليين الذين يدَّعون أنهم "كتابيون"، أي يتبعون الكتاب المقدس وحده: إنَّ عشاءَ الرب هو ذكرى لما حدث في علية صهيون، هو ذكرى لعشاء الرب، هو فريضة أسَّسها المسيح نفسه.

ويندفع أصحاب الحماس الأرثوذكسي للرد ... ولكن دون الانتباه إلى أن هذا الأساس الفلسفي هو غنوصيٌّ أصلًا، وليس كتابيًا، أي من الكتاب المقدس.

فالغنوصية في شكلها وجوهرها الفلسفي هي فصل الروح عن المادة، وفصل الإنسان عن الكون، وتقسيم الإنسان إلى ثنائية الجسد والروح، ثم تقسيم الله نفسه إلى إلهٍ خيِّر صنع عالم الروح، وإلهٍ شرير صنع عالم المادة المنظورة. الغنوصيةُ كانت حاجزًا ضد انتشار إنجيل تجسد ابن الله، ولا زالت تظهر في بعض مدارس اللاهوت والنسك.

أولاً: ما هو مضمون الذكرى في العهد القديم والجديد؟

١- لا يجب أن يغيب عن الوعي المعاصر أن الذاكرة في الثقافة المعاصرة شرقًا وغربًا هي "تذكُّر حدثٍ عَبَرَ وانتهى، وما تبقَّى منه هو ما يمكن أن نتذكره"، مثل حرب ٦٧، أو الحرب العالمية الثانية، أو غيرها من أحداث لم يعد لها وجود

في الواقع، وهي موجودة في العقل وحده، وحتمًا في كتب التاريخ. لكن يبدو أن الكتابيِّين لا يميِّزون بين الثقافة السائدة والوحي المقدس.

يقول الله لبني إسرائيل عن الفصح: "ويكون لكم هذا اليوم تذكارًا فتعيِّدونه عيدًا للرب .." (خروج ١٢: ١٤). التذكار هنا ليس ذكرى لما حدث فقط؛ لأن صانع هذا الحدث هو الله، فالذكرى هنا -حسب الوحي- أن "تصنع هذه الخدمة (العبادة في أسبوع الفصح) في هذا الشهر ... وتخبر ابنك في ذلك اليوم قائلًا من أجل ما صنع إلى الرب حين أخرجني من مصر. وتكون لك **علامةٌ** على يدك وتذكارًا بين عينيك" (خروج ١٣: ٦ - ٨). التذكُّر هنا هو خدمةٌ، صلاةٌ، جانبٌ أساسيٌّ في العلاقة بين الله وبني إسرائيل، هو أحد "أركان العهد"، فتحفظ هذه الشريعة في وقتها من سنة إلى سنة (خروج ١٣: ١٠).

٢- في العهد الجديد يقول الملاك لقائد المئة كرنيليوس: "صلواتك وصدقاتك صعدت تذكارًا أمام الله" (أع ١٠: ٥)، ولم يكن التذكار هنا أن الله تذكَّر كرنيليوس كما نتذكر نحن حدثًا ما، بل كانت أمام الله حقيقةٌ جعلت الله ينظر إلى هذا الأممي لكي يفتح باب البشارة للأمم لقبول الروح القدس؛ "وبينما بطرس يتكلم بهذه الأمور حلَّ الروح القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة" (أع ١٠: ٤٤)، فالله يذكر الذبائح والصلوات (مزمور ١٤١: ٢)، مثل البخور الصاعد إلى الله. وحتى في الكنيسة البخور ليس رمزًا للصلاة، بل هو علامةُ وجودِ العهد الأبدي بين الله والإنسان، فهو تقدُمةٌ تثبِّت الرجاء في قلوب المؤمنين.

ثانيًا: التسليم الرسولي لعشاء الرب

إذا قرأنا بدقة التسليم الرسولي لعشاء الرب[٧] نلاحظ أننا لا نجد في كلمات الرب نفسه في إنجيلي متى (٢٦: ٢٦ - ٣٠)، ومرقس (١٤: ٢٢ - ٢٦) عبارة "هذا

(٧) لم تعرف الكنيسة الجامعة ذلك الاسم الغريب "العشاء الأخير" الذي وفد مع كتابات عصر الإصلاح البروتستانتي، فقط لدينا اسمٌ واحدٌ في الكتاب المقدس وهو "عشاء الرب" (١كو ١١: ٢٠).

اصنعوه لذكري"، وليس لدى الكتابيِّين أيَّ تفسيرٍ لوجود هذه العبارة في التسليم الرسولي (١كو ١١: ٢٤). إلَّا أن ما جاء في كرازة الرسول بولس كان هو التسليم الخاص بالحياة الليتورجية، أمَّا ما ورد في الأناجيل، فهو التسليم التاريخي لما حدث فعلا[٨]، فكيف نُقِل هذا التسليم إلى الممارسة الكنسية حسب التسليم أو التقليد غير المدوَّن في أسفار العهد الجديد؟

كذلك الأمر، إذا سألنا كيف استطاع الرسل جميعًا -وبالذات بولس- حذف شريعة الختان في اليوم الثامن، وهو موضوعٌ لم يذكره الرب يسوع نفسه لا نصًّا، ولا حتى بإشارةٍ ضمنية، ومع ذلك كان قبول الأمم يتم بدون إلزامهم بشريعة الختان (أع ١٥: ٢٠ - غلا ص ٢).

تحذير:

وهنا نسوق تحذيرًا للكتابيِّين الذين يساندون الهجوم على عقائد المسيحية وتاريخها العريق الطويل استنادًا إلى أخطاء البعض، فالمسيحية ليست هذا أو ذاك من الأساقفة أو القساوسة، وأخطاء البشر وخطاياهم أمرٌ مسلَّمٌ به لا يحتاج إلى إثبات، ولكن التعليم والإيمان لا علاقةَ له بخطايا وانحرافات قيادات كنسية.

كذلك نلفت النظر إلى أن ما يصدر في الغرب من مؤلفات ليس هو الرأي النهائي أو آخر الأبحاث، بل كلُّ موضوعٍ هو ملفٌّ مفتوح للدراسة، والدليل على ذلك أن الهجوم الذي بدأ في القرن السابع عشر انحسر في نهاية القرن العشرين، كما أن حقائق التاريخ شيء وخيالات مَن يكتبون شيءٌ آخر. والمزج بين الكذب والكراهية وقيادة حملات بغضة ضد المسيحية بدعوى دراسة تاريخية هو أمرٌ مضحك؛ لأننا في بلدنا العظيم أهملنا دراسة تاريخنا وتركنا وثائق التاريخ

(٨) وردت عبارة "اصنعوا هذا لذكري" في لوقا (٢٢: ١٩)، باعتبار أن لوقا هو كما نعرف كان أول مَن دوَّن التسليم الذي قبلته الكنيسة (لوقا ١: ١).

وأصبح لنا مزاج غريب في المزج بين الخيال والوهم والمطامع التي نريد أن نحققها لأنفسنا.

"اصنعوا هذا لذكري" (١كو ١١: ٢٤ – لوقا ٢٢: ١٨ - ١٩)

* لم يقل الرب هذا ذِكر عشائي – أو موتي – أو .... الخ، بل ذِكري أنا remembrance of me
* كما أن الفصح لم يكن ذكرى لخروج بني إسرائيل، بل ذكرى عمل الله.
* فالذكرى هي عملٌ إلهي من جانب الله، واحتفالٌ إنسانيٌّ بما يفعله الله. وما فعله الله ليس حدثًا يُستحضَر في الذاكرة حسب سيكولوجية الإنسان الأوروبي. لذلك كانت الذبائح "a'zkarah"، أو حسب الترجمة السبعينية "تذكارًا" (لاويين ٢: ٢ – ٢: ٩ – ٢: ٤ وغيرها)، أي تذكارٌ للرب نفسه. في هذا الإطار الكتابي نفسه ذُكِر التسليم الرسولي كما دوَّنه لوقا وبولس: "اصنعوا هذا لذكري"، وسجَّل لوقا التكوين الرسولي لليتورجية: "ابتداء من موسى وجميع الأنبياء يفسِّر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب" (لوقا ٢٤: ٢٧)، ثم "أخذ الخبز وبارك وكسر وناولهما" (لوقا ٢٤: ٣٠)[٩].

"فصحُنا المسيحُ قد ذُبِح لأجلنا" (١كو ٥: ٧)

سكب الدارسون مِن كل المذاهب كميات كبيرة من المداد بكل الألوان حول العشاء الرباني الذي أُسِّس في أسبوع الفصح، ابتداءً بما سجَّله الرسول بولس حتى رسائل الفصح لأساقفة الإسكندرية، وبشكلٍ خاص أثناسيوس الرسولي، وكيرلس الكبير.

---

(٩) راجع كتابنا: القداس الإلهي، جذور للنشر، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٦٣ وما بعدها. راجع أيضًا كتابنا أركان العبادة المسيحية، جذور للنشر، القاهرة، ٢٠١٣. راجع أيضًا كتابنا: الليتورجية القبطية مدرسة اللاهوت الأرثوذكسي، جذور للنشر، القاهرة، ٢٠١٧.

ومن التسليم الليتورجي والتسلسل التاريخي تبيَّن لنا أن لغة ميليتو Melito أسقف ساردس[١٠] في الجيل الثاني لا تختلف عن لغة القديس أثناسيوس في الجيل الرابع. كما وجدنا أنفسنا أمام هذه المفردات: المائدة – المذبح – الحمل – الفصح – المن – خبز الله النازل من فوق.

ومن التسليم الليتورجي نعرف أن مائدة الرب هي فصحُ الكنيسة، فصحُ الأمم، وأن مائدة الرب هي المذبح، وأن الفصحَ هو الحمل، وأن المسيحَ هو حملُ الله، وهو أيضًا المن السماوي، وكذلك هو خبز الله النازل من فوق.

الفصحُ كان ذبيحةً لكي "يعبر ملاك الموت"، ولكن الفصح كان وليمةً أيضًا (خروج ١٢). وقد أكل الربُّ الفصح مع تلاميذه الاثني عشر، وحضر يهوذا العشاء الرباني، وقبل ذلك غسل الأرجل.

وهنا يبرز الخلاف الذي ثار بين الشرق الأرثوذكسي، والغرب البروتستانتي حول المذبح ومائدة الرب، فمائدة الرب طبقًا لمنهج الشرق الأرثوذكسي:

- المائدة هي فصحٌ وذبيحة؛ لأن المسيح قد ذُبِحَ.
- ومائدة الرب (١كو ١٠: ٢١) هو الاسم الذي احتفظت به القداسات.
- "الحَمَل" أو بدقة "حمل الله" هو أحد ألقاب الرب يسوع. وعندما قال يسوع "خذوا كلوا هذا هو جسدي"، فقد كان يقصد أنه هو حمل الفصح، حمل الله الذي يرفع خطية العالم.

كما أن المذبح هو عطاءُ الرب لذاته، أي جسده ودمه، والمائدة هي خبز

---

(١٠) راجع الفصل الحادي عشر بعنوان: الصليب وذبائح العهد القديم في اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي، في كتابنا: موت المسيح على الصليب حسب تسليم الآباء، جذور للترجمة والتوزيع والنشر، القاهرة، عدة طبعات، حيث أوردنا نص أقدم مقالة عن الفصح، وهي عظة الأُسقف مليتون أُسقف ساردس في أسيا الصغرى، وهو نصٌ مشهور جداً يعود إلى عام ١٩٥م، وربما قبل ذلك بقليل، فهو مِن مؤلفات القرن الثاني. راجع أيضًا في ذات الفصل ماذا تقول رسائل القديس أثناسيوس الرسولي لعيد الفصح عن الرمز والحقيقة، وكيف شرح التسليم الرسولي الخاص بذبائح العهد القديم.

الله النازل من فوق، ولذلك حفظت الليتورجيات الأرثوذكسية اسم "المائدة" للتأكيد على أن الموضوع عليها هو خبز الله النازل من فوق من عند الآب. ولكن رفض البروتستانت مبدأ وتعليم المذبح؛ لأن المسيح ذُبِحَ على الصليب، وبذلك لا توجد ذبيحة على المذبح؛ لأن الرب "دفع الثمن" وأكمل الكفارة يوم الصلبوت.

هنا الخلافُ واضحٌ، ولكن اسم "مائدة الرب" يؤكِّد لنا ثلاث حقائق:

أولا: كمال وتمام وعد الرب بأن يعطي جسده خبزًا للحياة.

ثانيًا: بقاء المائدة كوليمة سماوية يدعونا إليها المسيح نفسه في نداء الرب: "خذوا كلوا هذا هو جسدي".

ثالثًا: المائدة هي مائدة الملكوت، وهي تفسر لنا الكثير من طقوس القداس على النحو الذي شرحناه في كتابنا "القداس الإلهي"[١١].

كذلك يؤكد لنا اسم "المذبح" أيضًا ثلاث حقائق:

أولا: عطاء المسيح وذبحه لذاته بالإرادة قبل خلق العالم.

ثانيًا: تقديم هذه الذبيحة بواسطة الكنيسة لكي ندخل نحن إلى ذات شركة الذبح لكي نُذبح معه ونموت معه.

ثالثًا: لا يمكن لأحد أن يأكل جسد الرب ويشرب دمه، إلَّا إذا كان للذبح وجودٌ يؤكِّده "المذبح"؛ لأن عطاء الجسد والدم هو عبور الرب حاجز الموت على الصليب وكسر شوكة الموت وإعلان الخلود بالقيامة؛ لأنه هكذا صار إلينا الخلاص ليس بموت الرب وحده، ولا بقيامته وحدها، ولا بتجسده وحده، وإنما بعمل المسيح الواحد المتعدد الذي يلاشي الانفصال بين الله والإنسان بالاتحاد الأقنومي،

(١١) راجع كتابنا: القداس الإلهي، مرجع سابق.

والذي يبيد الموت على الصليب، ويعلن الحياة بالقيامة. ونحن نأخذ هذه الأفعال الثلاثة في الرب الواحد غير القابل للانقسام، فنحن نأخذ نعمة اتحادنا به بسبب تجسده، ونأخذ عطية هزيمة الموت والدينونة بسبب صلبه، ونأخذ هبة الخلود والحياة الأبدية بسبب قيامته؛ ولذلك تقول صلواتنا الليتورجية: "يُعطى عنّا خلاصًا وغفرانًا للخطايا، وحياةً أبديةً لمن يتناول منه"، لتأكيد عمل الرب فينا الذي يُوهَب لنا في الإفخارستيا.

* فالمذبح والمائدة معًا هما معًا العطاء الإلهي للحياة الأبدية.

وهكذا يتضح لنا أن صراع مدارس التفسير حول كلمات الرب في إنجيل يوحنا ص ٦ (٦: ٥٣ - ٥٦) لا مبرر له. كان حديثُ الربِّ بعد معجزة الخبز، وانتهى الحديث في مجمع كفر ناحوم، وكانت المناسبة هي فصح اليهود (٦: ٤). والاحتفال بعيد الفصح كان احتفالًا بنزول المن، وهو ما جعل الرب يقول إنه هو "المن أو الخبز من السماء" (٦: ٣٢). ولم يكن الكلام عن الإيمان بالمرة حسب ادعاء بعض المفسرين[١٢]؛ لأن الرب ذَكَرَ الجسد والدم، وكلتا الكلمتين "جسد" و"دم" لا يمكن أن يصبحا رمزًا (يوحنا ٦: ٥٤)، بل هما يسوع المسيح نفسه خبز الله النازل من فوق، الواهب الحياة للعالم (يوحنا ٦: ٦٣).

* فالذبيحة والمذبح والكاهن والمائدة لا يمكن فصلهم.

الفصحُ عيدٌ دائم

في شرح ذهبي الفم لكلمات الرسول يلفت القديس يوحنا ذهبي الفم النظر إلى أن هذا العيد هو:

---

(١٢) راجع ص ٣٧١ في الطبعة الخامسة لكتاب:
Alan Richardson, An Introduction to the Theology of the NT.

"عيدٌ لكل أيام حياتنا. ومع أن الرسول قال: "لنُعيِّد"، فهو لم يكن يقصد مناسبةً معيَّنةً مثل الفصح أو العنصرة، وإنما كان يقصد عيد المسيحيين الدائم. هذا العيد الذي يفوق كل الأعياد لأجل ما وُهِبَ فيه من عطايا فائقة وصالحة. لأجلنا تجسد ابن الله. وحررنا من الموت ودعانا إلى الملكوت ... إنه عيدٌ دائمٌ لكل أيام الحياة، ولذلك قال الرسول: "افرحوا في الرب كلَّ حين" (فيلبي ٤: ٤). في العيد لا يلبس أحدٌ منَّا ملابس قذرة؛ لأن وليمة العُرس قد أُقيمت، العُرس الروحي، لأن الرب قال: "إنَّ ملكوت السموات يشبه ملكًا صنع وليمة عُرسٍ لابنه" (متى ٢٢: ١)، وهنا العُرس، وهنا الوليمة التي صنعها الملك لابنه، فهل يوجد عيدٌ أعظم من هذا العيد؟ ..."

(عظة ١٥ على ١كو ٥: ١-٧ راجع الترجمة الإنجليزية ص ٨٥ - ٨٦).

تداعيات فصل الرأس عن الجسد:

عندما تحول الرب يسوع إلى فكرةٍ في عقول الذين يدَّعون الإيمان به دون الشركة في حياته وموته وقيامته، تم فصل رأس الكنيسة (المسيح) عن الكنيسة، أي الرأس عن الجسد، ودخل هؤلاء في نفق الغنوسية المظلم، وهكذا وجدوا أنفسهم أمام التداعيات الآتية:

١- عُزلة المسيح عن جسده، فهو غائبٌ في السماء، فُصل عقليًا في عقول غنوصيي القرن الحادي والعشرين.

٢- تحوَّل الإلهُ المتجسد إلى عالم الروح وحده وترك العالم المادي المنظور: الكون – الكنيسة – الإنسان، فالمسيح الربُّ لم يعد لجسده الممجد في السماء (فيلبي ٣: ٢١) أيةُ علاقةٍ، لا بالأرواح الإنسانية، ولا بأجساد المؤمنين بالمرة إلَّا من خلال الفكر، واختفى الاتحاد الأقنومي في الرب الواحد المتجسد وضاع لأن المسيح أصبح فكرةً لا تظهر إلَّا في التراتيل، ولا علاقة له بالمؤمنين إلَّا من خلال

الوعظ والصلاة، وهي علاقة يقولون عنها إنها علاقة (روحية)، في حين أنها في الواقع ليست علاقة روحية، بل عقلية فقط، إنسانية تمامًا، بلا استعلان للمسيح بالروح القدس، ولكن دخلت كلمة "روحانية" في الأحاديث والعظات، وتحوَّلت من "روحانية" مصدرها وأساسها الروح القدس، إلى "روحانية" صوفية غنوصية؛ لأن المسيح له المجد ليس حاضرًا في جسده يملأه بالروح القدس ويغذيه روحيًّا وجسديًّا، وإنما على مستوى العقل والأفكار.

٣- هذا كله عائدٌ إلى غياب الأسرار، وإلى انعدام العلامات، فقد أصبحت "علامة ابن الإنسان" (متى ٢٤: ٣٠)، أي الصليب المكرم بلا تكريم وبلا دلالة، وهكذا صوَّب الغنوسيون سهم الوثنية نحو "عرش رب المجد الذي صعد عليه لكي يملك على الأحياء والأموات بالمحبة".

هكذا نَخَرَ سُوسُ العصر الوسيط، ومنظومات لاهوت العصر الوسيط في حياة الكنيسة، فأفرز التعليم د. حنين عبد المسيح، كما أفرز هجوم الأنبا شنودة على الأب متى المسكين وعلى كاتب هذه السطور، وأصبح معنى كلمة "إنسان روحاني" أنه الإنسان الخانع الذليل المقهور، وليس الإنسان "المملوء من الروح القدس".

وعندما غاب الروح القدس الرب المحيي عن إعلان يسوع المسيح ربًّا ومخلصًا في الكنيسة، تحوَّلت الطقوس إلى علاماتٍ غامضة، وصار البخورُ أكثر غموضًا؛ لأن التعليم بالوليمة الملوكية غاب بدوره.

ملحق

خلافًا لتقوى العصر الوسيط:

الصليب،...
هو قوة الحياة التي أخذناها في المعمودية،
وفي مسحة الميرون

قراءة وتأصيل لما نشره دكتور. حنين عبد المسيح[1]

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٨ أغسطس ٢٠٠٩.

قرأتُ ما نشره د. حنين عبد المسيح، عن عبادة الأصنام في الكنيسة الأرثوذكسية.

وهو في الحقيقة مثله مثل ألوفٍ من **الأقباط الضحايا الأبرياء** الذين وجدوا أنفسهم بين عشيةٍ وضحاها يصارعون الحياة والفكر في مرحلة دقيقة من التاريخ شكَّلتها محاورٌ ثلاثة. فهو مثل غيره من الأغلبية الساحقة من الأقباط الذين **شربوا حتى الثمالة من مستنقع العصر الوسيط الأوربي**، من ناحية. ومن ناحية أخرى **رزحوا تحت وطأة رواسب الثقافة المصرية التي تشرب كل يوم من راديكالية التوحيد الإسلامي**. أضف إلى ذلك ما ترسب -على مدى قرون طويلة- في وجدان الأقباط من أوطاخيةٍ عدَّلت وطوَّرت في شكلها الأخير السائد في أدبيات العصر الوسيط القبطي.

ليس غريبًا أن يلتقي الإسلام مع النسطورية، ومن قبلها الأب الروحي الآريوسية، ولا مع المونوفيزية (الأوطاخية)، فالكل لدية اتجاهٌ واحدٌ، هو إلغاء الإنسان والكون، والفصل التام والمطلق بين ما هو إلهي وما هو إنساني.

ولم يكن غريبًا أن تأتى حركة الإصلاح في صورتها المتطرفة علي يد زوينجلى وليس على يد لوثر براديكالية تلغي وحدة السماء والأرض في المسيح (أفسس١: ١٠)، وإنكار كل مستوى للشركة بين الثالوث والبشر في الابن له المجد وفي الروح القدس. ولم تجد تلك الدعوة المضادة -لما ساد في العصر الوسيط الأوربي- بقيادة الكنيسة الرومانية - التي لم تحارب الممارسات الشعبية السائدة في تلك الفترة- إلَّا ذات الحل القديم الذي نادت به هرطقة الغنوصية، أي البتر الكامل والتام لكل ما جاء من التاريخ القديم؛ العهد القديم، الجسد الإنساني، الكون المنظور،

هربًا من مسئولية النمو الشاق والصاعد إلى صورة الله في يسوع المسيح الإله المتجسد.

ما هو جوهر المشكلة في فكر د. حنين عبد المسيح؟

أولاً: هو ضحية التعليم السائد الذي مازال يتمسك بكلِّ شراسةٍ بتقوى العصر الوسيط.

أمَّا رؤية البخور يُقدَّم للصليب، والأيقونات، الرهبنة...الخ على النحو الذي قدَّمه، فليست جديدة، بل سبق أن عُرضت في الجيل السابق علينا، والجيل المعاصر لنا. فقد عرضها بنيامين شنيدر في كتاب "ريحانة النفوس"، وحارب فيها بشراسةٍ طقوسَ وعقائد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي كانت قد خرجت جريحةً تئنُ تحت وطأة نير العصر العثماني وقبله العباسي فالأموي؛ لأن مصر -كما قال أستاذنا الكبير لطفي السيد- لم يحكمها مصري منذ فتح مصر على يد الإسكندر الأكبر حتى ثورة يوليو ١٩٥٢، فقد كانت مزرعة روما، ثم مزرعة دمشق، ومزرعة بغداد، ثم اسطنبول، ولندن. فالمحاصيل الزراعية، والخِراج، بل حتى طين وادي النيل حُمِل إلى لندن. كل هذا انعكس على السياق العام الذي عاش فيه الأقباط، وشكَّل إطارًا عامًا لما تخلَّف عن المحاور الثلاثة التي أشرنا إليها.

لكن ما يهمنا أن نشير إليه بكل قوة أنه لا يمكن مع فترات السحق والقتل وتدمير العقل، وسيطرة البطش على الثقافة أن ينمو تيارٌ ثقافي يقبَل تجسُّد ابن الله، **ولا نغالي إن قلنا إن التجسُّد بكل ما يعبِّر عنه من معاني مازال بعيدًا عن الوعي الكنسي المعاصر**، وإن كان القمص متى المسكين قد أفلت منه؛ لأن الله لا يترك نفسه بلا شهود، مثلما أفلت منه الأنبا بولس البوشي الأسقف الوحيد الذي استوعب روح الآباء في العصر الوسيط القبطي.

راديكالية الإلغاء

ما الذي يُلغي الآخر؟ ونقصد بالآخر هنا "الله".

ليس الإلغاءُ مثل النفي؛ لأنه إذا كانت عبارة "لا إله إلَّا الله" تعبِّر عن نفيٍ لكل صور وأشكال الألوهة، فهذا جيدٌ ومطلوب، ولكن دون الانزلاق إلى الإلغاء. لأن النفي يعترف ضمنيًا بما يُنفى، أمَّا الإلغاء، فهو ليس مجرد إنكار، بل تدميرٌ وقلعٌ لما هو موجود، ويصبح كل ما هو كائن كأن لا وجود له.

ولكن **التجسد جمع معًا الآخر والآخر، الله والإنسان في شخصٍ واحد، هو ربنا يسوع المسيح. ووحَّد المسيحُ بين الألوهة والإنسان في إعلانٍ جديد**، هو البذل والمحبة التي لا تعرف الحدود، بما فيها حدّ الموت نفسه. ورفع الإنسان من عابدٍ للأصنام إلى رتبة الألوهة والتبني والخلود بمجد القيامة وسُكنى الروح القدس.

ولكن تلك الدعوة ببشارة الحياة، لم تجد المجتمع الإنساني ولا حتى الثقافة التي تقبل أن يكون الإنسان مساويًا لمجد وشرف وكرامة ابن الله. فقد كانت هذه الدعوة هدمًا لهرم السلطة في الإمبراطورية الرومانية، وكان دفاع القديس أثناسيوس عن قرار مجمع نقية ٣٢٥م يؤكد هذا الصدام العنيف. وكان ما أزعج الإمبراطور قسطنطين هو "الواحد مع الآب في الجوهر - Homo-ousios"؛ لان هذا لا يجعل للسلطة المطلقة مكانًا ولا يعطي لها شرعيةً إلهيةً للحكم القائم على سلطةٍ مطلقة، فقد أصبح كلُّ إنسانٍ تحت حكم الإمبراطور = (يساوي) المسيح ابن الله؛ لان المسيحَ جاء ليكون "بكرًا بين إخوةٍ كثيرين". بل تأمَّل شدة وقع كلمات الرسول: "وارثون لله ووارثون مع المسيح" (رو ٨: ١٧). وبالتالي كانت القضية المطروحة هي كيف يمكن التعامُل مع الآخر الذي له رأسٌ في جوهر اللاهوت ويحمل ذات الطبيعة الإنسانية، أي المسيح؟

ولم يكن ارتداد يوليانوس الجاحد، وهو الذي تربَّى وعاش في بلاط الإمبراطور

قسطنطين عن دين يسوع المسيح غريبًا بالمرة، فقد رأى بعينيه غروبَ الثقافة اليونانية – الرومانية على يد المسيحية، ولذلك حارَب المسيحيين، وأطلق عليهم اسم "الجليليين"، أي "أتباع يسوع الذي من الجليل"، ومنعهم من تدريس الآداب اليونانية القديمة، تلك التي كتبها هوميروس وغيره. ولو عاش يوليانوس عشرَ سنواتٍ فقط لشهدت الإمبراطورية أكبر حركة ارتداد واضطهاد؛ لان يوليانوس استوعب قصور وعجز الوسائل التي مُورست تحت حكم دقلديانوس وغيره.

بل لقد كان غريبًا أن يعاني اليهود تحت حكم هادريان، ومنع ممارسة "الختان" بقوة القانون، وصودرت الأملاك تمامًا كما حدث مع المسيحيين؛ لأن روما رأت أن الولاء لإله اليهود يزعزع سلطان الإمبراطور ويفتح باب الثورة، تمامًا كما رأى نسل قسطنطين أن الإيمان بإلهٍ واحد متجسد وثالوث يزعزع مكانة السلطة المطلقة؛ لأن الدعوة ترفع من شأن الإنسان.

وهكذا من تفاعلات ثقافة تقدِّس السلطة المطلقة، وحضارة قامت على نشر السلام الروماني بالقوة والخضوع لسلطان روما، وفلسفة لا تقبل مطلقًا أن يسكن الله ويتحد بالإنسان وأن يفتح الباب لشركة في الحياة الإلهية، واستنادًا على بعض نصوص الكتاب المقدس، نصٌّ من هنا (أمثال ٨: ٢٢)[١] ونصٌّ من هناك (يوحنا ١٧: ٣)[٢] وجدوا ما يفتح الباب لهدم دعوة الشركة في الحياة الإلهية.

ولم يأتِ عصر الأمويين – العباسيين – المماليك – العثمانيين – بثقافة إنسانية تعطي للإنسان أي قيمة. ألم يسمع أحمد عرابي كلمة تلخص الموقف كله "أنتم عبيد إحساناتنا" من فم الخديوي سلطان وحاكم مصر المطلق؟

---

(١) "اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ مُنْذُ الْقِدَمِ".

(٢) "أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَه".

أمام السلطان المطلق "ثقافيًا" لا مجال بالمرة لدعوة الإله المتجسِّد إلَّا عند الشهداء والأبطال، أمَّا عامة الناس، فالحرص على الحياة مهما كان نوع هذه الحياة لا يفارق الإنسان ولا يقاومه المجتمع نفسه.

راديكالية إلغاء التجسُّد

نلتقي عبر التاريخ بكثير من المدارس الراديكالية وليدة الثقافة:

- الدوستية: أي تلك التي اعتبرت جسد وإنسانية الرب يسوع خيالًا.

- الأريوسية: التي فزعت من التنازل الإلهي وتواضُع ومحبة الله للبشر، وبالرغم من أنها جعلت من يسوع نبيًّا، إلَّا أنها لم تمتنع عن استخدام ألقاب مثل "الرب" و"الإله" و"الله" باعتبارها ألقابًا "شرفيةً" وردت في أسفار العهد الجديد.

- الأبولينارية: التي رأت في العقل الإنساني مصدر الخيال وجموح الفكر المحرك، بل ينبوع الشر ورفضت أن يكون ليسوع المسيح عقلًا إنسانيًا.

- النسطورية: التي عجزت عن أن ترى أن الجنين المولود من الأم العذراء هو الله وجاءت لتقول قبل غيرها: «**الله لم يلد ولم يُولد"، وتلك هي عبارة نسطور نفسه.**

- الأوطاخية: وهي أكثر الكل راديكالية، فهي تلغي الناسوت كله، وهو حلُّ الغنوصية، لا داعي بالمرة للجسد، فقد ذاب مثل قطرة عسل (وليس الخل) في بحر اللاهوت.

لكن تلك المدارس كانت تصطدم بالسرائر الكنسية، بالكنيسة جسد المسيح الحي، بالقديسين الأحياء والراقدين بيسوع (١ تسالونيكى ٤: ١٤)[٣].

---

(٣) "لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا نُؤْمِنُ أَنَّ يَسُوعَ مَاتَ وَقَامَ، فَكَذلِكَ الرَّاقِدُونَ بِيَسُوعَ سَيُحْضِرُهُمُ اللهُ أَيْضاً مَعَهُ".

ويمتد خط الفصل؛ المسيحُ في السماء لا صلةَ له بالأرض، ورافد هذه الفكرة غير المسيحية هو أن الأسقف أو القس ينوب عنه ويمثله، هكذا تم فصل "الرأس، أي المسيح عن الجسد، أي الكنيسة". وإذا عجز الفصل عن ذلك، تحولت السرائر الكنسية: المعمودية، الميرون، الإفخارستيا، إلى رموزٍ لما حدث في الماضي، وأصبحت بالتالي مجرد علامات أو رموز تُنهض الذاكرة، **أمَّا بقاء الشركة في حياة المسيح كلها بالروح القدس، فهو لا يحول السرائر الكنسية إلى رموز، بل استعلان المحبة الإلهية**.

إن ما غاب من الوعي هو أن التجسد هو اتحاد اللاهوت بالناسوت بدون وساطة "الزمان"، وبدون وساطة شريعة موسى، وبدون أي وساطة أخرى، وبالتالي فلا وجودَ لرموزٍ وعلامات تدل على ما حدث، بل رموز وعلامات تدل على:

- ما هو حادث الآن، أمس واليوم وغدًا.
- على ما يُعطى وهو الشركة.

تلك هي أساسات الممارسات الكنيسة كلها من عقائد وطقوس (ترتيب)، فهي تعلن للإنسان ما يناله، وتؤكد بقاء ما أخذه.

ما أعظم الفرق بين أن يكون الصليب مجرد علامة تُمارَس بحركة اليد، وبين أن يكون الصليب هو ختم المعمودية والميرون، وبالتالي يكون علامةً على دخولنا إلى أعماق الشركة في محبة المسيح الفائقة. أليس تحريك اليد من الشمال إلى اليمين، هو انتقالنا من الدينونة والموت إلى الحياة الأبدية؟ أليس تحريك اليد من اليمين إلى الشمال حسب طقس (ترتيب) الروم هو سُكنى الروح القدس في القلب؟ أليس هذا هو الجانب السري في الحياة الدائمة التي لا انقطاع فيها حتى بالموت البيولوجي؟ **ولكن إن تحول الصليب إلى علامة خارجية لا تنبع**

من قلب الإنسان، ومن قوة وعمل الروح القدس، فإن الطقس يفقد علاقته بالسرائر، ويغري السذج بالهجوم عليه.

وماذا عن البخور؟

الصلبان من المعادن والأخشاب وغيرها، ليست في جوهرها قطعًا فنيةً وأشياءَ تُقتنى. كانت قديمًا توضع على أجساد الشهداء قبل استعمالها؛ لأن الشهيد هو تجسُّدٌ حقيقيٌ في اللحم والدم لصليب يسوع نفسه. وكانت قديمًا تُوضَع حول العنق بعد المعمودية وليس قبلها، لكي يحمل كل مسيحي ختم الانضمام إلى الكنيسة. وكانت قديمًا -حسب رؤية معلمي الكنيسة- الاحتفال اليومي لكل مسيحي بالمصالحة مع الله ومع الكون ومع غيره من البشر. حتى في العصر الوسيط كتب أسقف بابليون الأنبا يوحنا يقول: "كيف ترشم نفسك بعلامة الصليب وتُبغض أخيك أو تكرهه؟".

ولكن يبدو أن هذه الرؤية أصبحت غريبة عن الثقافة السائدة في أيامنا. وقوام هذه الرؤية هي:

- إن الكون كله الذي يتمخض الآن في مخاض الميلاد نحو الحياة الأبدية وفداء الجسد بالقيامة (رو ٨: ٢٢)، هو الكون الذي "يشرب من نهر النعمة الإلهية من الآب بالابن في الروح القدس".

- كما أن المياه تدخل شريكًا من الكون في ميلادنا.

- وكذلك الزيت كمسحةٍ من شجرة الزيتون مع أطياب لها رائحة لا تفسَد، مؤكِّدةٍ لنا أن الجسد مُسح بعدم الفساد في يسوع.

- أمَّا البخور فقد غاب عن الوعي المعاصر أن القداسات وكل "ترتيب"، أي طقوس الكنيسة، هي وليمة العريس السمائي التي تجمع كل المفديِّين الذين رحلوا والذين مازالوا علي قيد الحياة. حيث يجلس الرب على رأس المائدة وعن

يمينه الملكة وعن يساره المدعوين وحول المائدة الملائكة والشعب. هذا هو طقس أو ترتيب جسد المسيح الكنيسة. ويُقدَّم البخور لكل هؤلاء وللشعب الحاضر الشريك أو الشركاء في وليمة المسيح له المجد. الكل يُقدَّم له البخور؛ لأن الكون المادي المنظور لم يُستبعَد من الفداء؛ ولأن ما هو **مادي** هو في ناسوت الرب نفسه، وقد تجلى بالنور الأزلي غير المخلوق، ولأن هذا ليس قاصرًا على الرب وحده بل يجمع كل "أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يوحنا ١١: ٥٢).

فهل يُقدَّم البخور للصلبان والأيقونات؟

إن الدفاع من العهد القديم هو دفاعٌ باطل مهما بدا مغريًا للقارئ. وإنما الدفاع الأرثوذكسي الحقيقي هو أن "الكلمة صار جسدًا وسكن بيننا"؛ لكي يقدِّس الكل: الإنسان والكون بكل ما فيه، وأن نقدِّم الكون بكل ما فيه لله؛ لأننا أصلًا خُلقنا آلهةً تُقدِّم الكونَ لله حسب كلمات المزمور الثامن[٤]. **وعندما غابت الهوسات والتسبحة السنوية من الوعي المعاصر لم ندرك أن المسيح يتجلى في الكون، فهو "ينفخ في الأشجار حتى تُزهِر"**، وكل الخليقة تشترك في ليتورجية كونية، ولذلك صارت الصلبان والأيقونات والبخور والقداسات، وحدة واحدة إلهية – إنسانية، رأسها المسيح. وصارت المادة تلمع بالاستعلان الإلهي، ليس من تلقاء ذاتها، ولا لأننا نراها بعين الخيال البشري، وإنما لأن الحقيقة الكامنة فينا، الحقيقة الأبدية التي أخذناها في السرائر، لا تختلف عن ما هو كائن في الكون الصغير، أي كون الكنيسة الذي هو "خميرة الملكوت" المطلوب منها أن تخمِّر العجين كله. الصلبان مهما كان نوعها، والبخور، والمذبح، ليست أشياءَ منفصلةً

(٤) "أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ حَيْثُ جَعَلْتَ جَلاَلَكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ! مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ أَسَّسْتَ حَمْداً بِسَبَبِ أَضْدَادِكَ لِتَسْكِيتِ عَدُوٍّ وَمُنْتَقِمٍ. إِذَا أَرَى سَمَاوَاتِكَ عَمَلَ أَصَابِعِكَ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوَّنْتَهَا. فَمَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ!. وَتَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ جَمِيعاً وَبَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضاً. وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ. أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ".

عن الحقيقة التي أخذناها والتي نعيشها. عندما هجرنا اللغة القبطية، غاب عنّا أن الميرون له اسمٌ آخر هو ذات اسم البخور ⲡⲓⲥ̀ⲑⲟⲓⲛⲟⲩϥⲓ وهو ذات اسم ذبيحة الصليب، وهو اسم من أسماء الصلاة، الكل يشترك في مجد المسيح، مجد عدم الفساد، وفى التقديم والبذل.

كيف تم تفكيك الكنيسة في عصرنا؟

لا أريد أن أخوض في عرض التهكم والسخرية، بل والشتائم أحيانًا التي انهالت علي القمص متى المسكين، بخصوص موضوع الكنيسة، فهذا حديثٌ آخر يطول، ولكننا لن نخوض فيه لأنه لا يخدم في النهاية إلّا بقاء تلك النار التي تقضي على ما تبقى من حياة الكنيسة. لكن إذا حاولنا تحليل تعليم واحد من التعاليم السائدة في عصرنا، وهو التعليم بأن المسيح الرب دفع دمه ثمنًا لخطايانا، فما هي تداعيات هذا التعليم الوافد إلينا من العصر الوسيط الأوربي؟

١- وُضع الصليب خارج الحياة الإنسانية كما نحياها الآن، فهذا حدثٌ تمَّ على مستوى علاقة الآب بالابن دون أن يمس الحياة الإنسانية في داخلها. ويجرد الصليب من كونه علامة الانتصار وسحق الموت، ويصبح أداة الانتقام أو التشفِّي وليس علامة المصالحة. كما ينـزعه عن الحياة اليومية، فلا علاقة بين المعاناة اليومية الروحية أو الاجتماعية والمصلوب يسوع المسيح.

٢- يفصل بين الصليب والقيامة ويحول الصليب إلى شيء، أي يحول شخص المصلوب أقنوم الله الكلمة إلى ثمن، في حين أن الثمن شيءٌ آخر غير الشخص، وهكذا يعود بنا إلى أفظع ما تصنعه الخطية، وهو تحوُّل الكائن إلى شيء.

٣- هل بعد أن دفع المسيح يسوع الثمن يصبح للإفخارستيا أي قيمة؟ وهل يمكن أن نقول إن الدم في الكأس هو عهد الرب الجديد، بعد أن دُفع للآب؟!

وهكذا، مَن ذا الذي يرشم الصليب أو يُقبِّله، إذا كان شيئًا غريبًا لا جذور له في الحياة الشخصية، بل وكفَّ عن أن يكون صفةً شخصيةً ليسوع المسيح: "يسوع الناصري المصلوب قد قام" (مرقس ١٦: ٦).

عذرٌ ولا عذر

إنني أعذر د. حنين عبد المسيح، ولكني لا أعذر بالمرة الذين جلسوا على كراسي المعلِّمين ينشرون تقوى زائفة تهدم السرائر وتحارب الثالوث، إذ تحوله إلى صفات ذاتية أو جوهرية، وتسخر من الكنيسة جسد المسيح، وتنكر سُكنى الروح القدس، فتفصل الكنيسة كلها عن ينبوع الحياة الإلهية، وتمارِس سر المعمودية في سرعة طقس "أحد التناصير" بلا إعدادٍ وبلا تعليم، لتدور عجلة الطقوس بلا مضمون روحي عقائدي آبائي، لكي يُولَد جيلٌ يعيش كل جوانب الإلغاء في ثقافةٍ شبه إسلامية تطرَّفت، فتحول النفي إلى إلغاء(٥).

عندما شرحوا طقوس الكنيسة علي أنها ترتيب، وأن كل جماعة تحتاج إلى نظام يوحِّد العبادة، كان هذا هو ربع الحقيقة، أما الباقي فهو:

- أنها ترتيبٌ يقود إلى غاية.
- ترتيبٌ موازٍ للحياة الشخصية التي نالت التجديد في السرائر.
- ترتيبٌ يقود إلى الشركة في الإعلان الإلهي.
- ترتيبٌ يعلِن استمرار نعمة الله.

غفر الله لنا جميعًا

جورج حبيب بباوي.

---

(٥) رغم أن هذه الثقافة أنجبت جلال الدين الرومي – الحلاج – أبو اليزيد البسطامي – رابعة العدوية – ابن عربي – ابن الفارض وغيرهم من عظماء الحياة الروحية في الإسلام، إلاَّ أنه تم فرض ستار من التعتيم على معظمهم لأسباب معروفة، طبعاً لا سيما "الحلاج" الذي يثير اسمه غضب الكثيرين من دعاة الإلغاء عند المسلمين.

الفرق بين الاختلاف في الرأي والرؤيا
عقائديًا وسياسيًا[٦]

صديقنا المجتهد يسري صموئيل، سبقه صديقٌ مجتهدٌ آخر هو سوستانيس الذي لم أعد أقرأ له ما يجود به علينا من كتابات ولمحات إلهية – إنسانية رصينة، كلاهما معًا طلبا فتح ملف خاص بـ "المصريات"، وهو موضوعٌ -حسب العنوان السائد في صحافة الأقباط- يُحسب من «الأمور المسكوت عنها»، وحق الملكية الفكرية لهذه التسمية على ما أظن هو لجريدة وطني.

عقائديًا، اختلاف الرأي حقٌ إلهيٌّ تعطيه المعمودية والميرون والإفخارستيا، وهي أسرار الانضمام إلى الكنيسة، مع ملاحظة أن هذه الأسرار لم تُحسب حسابًا عدديًا في زمن الآباء العظام، بل حُسِبَت "سرائريًا" للتمييز بينها، ولتقدير العطية الخاصة التي تُعطى لكي عضو ينضم إلى "جسد المسيح الواحد الكنيسة" (١ كو ١٢: ١١ - ١٣).

فمن تعدد الخطية وانقسامات الشر، نأتي إلى المسيح يسوع رب الحياة؛ لكي يكون هناك تعدد أعضاء، أي تمايز يحفظ الوحدانية التي أتى إليها، وهي يسوع الواحد. والعضو الواحد إذا تمايز برأيٍ، أو رؤية، فهي تُعد بمثابة إشراق إلهي يحفظه في خصوصيته التي تهددها الخطية من الداخل، أو انقسامات الجماعة التي تجعلها تسقط في إنكار الهوية الكنسية التي أعطتها لها بسبب الانضمام إلى المسيح. هذه الهوية هي "العضوية في جسد الرب يسوع الواحد"، وهي العضوية التي لا تقبل إلَّا التعدد، طالما هو "خدمة المحبة وخدمة شركة

(٦) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ١٥ مارس ٢٠١٣.

الأخوة"؛ لأن الطلب الواحد للشعب -الذي نطلبه في القداس الغريغوري بالذات- هو "أساس الكنيسة".

الخلاف السياسي في الرأي يؤخذ دائمًا على أنه تهديدٌ لقيادة الزعيم، أو خروجٌ على الخط العام للحزب؛ لأن الأحزاب تنشأ أصلًا للمعارضة. وفصل المُعارِض في أحزاب تتمسك بالديموقراطية الغربية مثل حزب العمال أو المحافظين في بريطانيا، هو ما أعرفه لأنني عشت هناك قرابة ٤٠ سنة، وكنت أعرف ما يدور سياسيًا، لا سيما ما يتصل بمصر، وقرار استقالة أنتوني ناتنج من وزارة إيدين ١٩٥٦ وزارة العدوان الثلاثي، انتهت بالخروج من الحزب نفسه.

لكن الكنيسة لا تعرف المعارضة لأسباب إلهية ثابتة وهي:

١- الكنيسة لها حياة واحدة، هي حياة يسوع المسيح نفسه التي وُهِبَت من الآب في يسوع الإله المتجسد بالروح القدس، "الفاعل" والواهب كل العطايا. وحسب تشبيه الرسول، فإن أعضاء الجسد الواحد في الجسد الإنساني لا يمكن أن تُعارِض بعضها، فلا تُعارض الأذن اليدين أو العينين. وحتى قول الرب يسوع: "لا تجعل شمالك تعرف ما تفعل يمينك لكي تكون صدقتك في الخفاء" (متى ٦: ٣ - ٤) لا يعني أن هناك تعارضًا بين اليدين؛ لأن هذا القول هو قولٌ يعرفه كل مَن درس أسلوب التخاطب الآرامي القديم، حيث يكون العطاء دائمًا باليد اليمنى، خصوصًا في التوزيع بالذات: الأموال - الطعام ... الخ. فاليد التي توزِّع تعرف سبب التوزيع، وهو احتياج الآخر، ولكن اليد التي لا توزِّع، وهي اليد الشمال، فقد كانت عند عامة الناس -لا سيما الفريسيين- تقوم بغسل الأعضاء الخاصة، وهي تعتبر -حسب المشنا- يدٌ غير طاهرة، وهي بذلك تعبِّر عن سيادة الناموس علينا. طبعًا، القولُ غامضٌ لمن لم يدرس الخلفية الآرامية السائدة في فلسطين في زمان تجسد الرب يسوع.

٢- الاختلاف السياسي حتى حول حلٍّ أو حلولٍ، هو أحيانًا خلاف حول

مصالح اقتصادية يدافع عنها بعض أعضاء الحزب ضد أعضاء نفس الحزب أو ضد الحزب المعارض حتى لو كان رأي حزب المعارضة صحيحًا. لكن ذلك غريب تمامًا على الحياة الكنسية.

أقول لكل من يُسري وسوستانيس إن هذا المقال هو بداية حديث عن «مصريات» تمسَّك فيها عددٌ من القيادات القبطية بروح الأحزاب وتركوا ما تقدِّمه الحياة الكنسية، وهو "الجسد الواحد والروح الواحد والهدف الواحد والرب الواحد والإيمان الواحد والمعمودية الواحدة"، وأرجو أن يلاحظ القارئ العزيز لهفة رسول الرب وهو يكتب إلى كنيسة أسَّسها هو تُحارَب من الداخل لا من الخارج فقط:

"أطلب إليكم أنا الأسير في الرب أن تسلكوا كما يحق للدعوة التي دُعيتم إليها بكل تواضع ووداعة وبطول أناة محتملين بعضكم بعضًا في المحبة".

ثم هي صرخةُ أبٍ:

"مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح (عطية الروح القدس) برباط السلام (الصليب لأن الرب صنع السلام والصلح بدم صليبه)" (كولو ١: ٢٠).

"جسد واحد"، هو الكنيسة (١كو ١٢: ١٢).

"روحٌ واحد"، هو الروح القدس موزِّع العطايا (١كو ١٢: ١٣ - ١٤).

"كما دعيتم في رجاء دعوتكم الواحد يسوع.

"بربٍّ واحد" .. رأس الجسد ..

"إيمان واحد" .. يوحد الكل في اعتراف واحد ..

"معمودية واحدة"، جعلت الكل أبناء بالتبني (غلا ٣: ٢٦ - ٢٩).

"إلهٌ وآبٌ واحد للكل الذي على الكل وبالكل (بالابن) وفي كلكم" (بالروح القدس حسب شرح القديس ايريناوس) (أفسس ٤: ١ - ٦).

وكل قبطي حقيقي يمارس الصلاة يعرف أن هذا المقطع من رسالة أفسس هو "بولس" صلاة باكر، وهو يسبق صلاة باكر حسب ترتيب الأديرة الباخومية، وهو ترتيب كنيسة الإسكندرية. هذا هو دستور الكنيسة، ليس فيه "توافق"، بل وحدة. وليس فيه تنازل، بل بذل، وفيه الشركة والاجتهاد ورباط السلام وقبول عمل الروح الواحد، ولذلك يختم رسول يسوع رب المجد هنا بقوله: "ولكن لكل واحد منا أُعطيت النعمة حسب قياس هبة المسيح" (أفسس ٤: ٧). ولأن ما يُعطى يُوهب، فقد أُقيم إمبروسيوس -وكان موعوظًا- أسقفًا فور اختياره قبل أن يكمل مدة التعليم (ثلاث سنوات). وفي العظة ١١ على رسالة أفسس يذكِّر ذهبي الفم الكنيسة بأن "توزيع هبات المسيح ليست حسب قياس إيمان مَن ينال الموهبة حتى لا يسقط من نال الموهبة في الانتفاخ ويحتقر الذين لم ينالوا موهبةً مثله أو عطايا أعظم تجلب الصراعات، بل حسب قياس موهبة المسيح؛ لأن قوة هذا التعبير الرئيسي هي في شركة الكل في: المعمودية، الخلاص بالإيمان ..".

وماذا تعني كلمة "قياس"؟ هي لا تعني حسب جدارة (استحقاق)؛ لأنه لو كان الأمر بالاستحقاق، لَمَا نال أحدٌ شيئًا، ولكن من عطيته (المسيح) نحن نأخذ".

هذا لا يمكن تطبيقه على أي نظام سياسي؛ لأن الزعيم والبرنامج السياسي هو على الكل (فوق الكل وبالكل، – وهي العبارات الخاصة بالثالوث في أفسس ١: ٧)، هي واقع إدارة الصراعات السياسية.

كيف يُصاغ فكرٌ سياسيٌ في قالب ديني، وما هي الأهداف المبتغاة من الصياغة الإعلامية السياسية الفجة التي تُحشد في قوالب فكرية غامضة غير واضحة المعالم؟

جاد علينا الأخ يسري صموئيل عازر بمقال للأستاذ ماجد غطاس نشره على صفحته على موقع التواصل الاجتماعي Facebook يأخذ فيه بمنهج الإعلام السياسي.

قد يبدأ الإعلام السياسي بمديحٍ في سطر أو عبارة، ثم ينتقل إلى ما يعتبره هو القضية الكبرى، وقد نقل الأخ ماجد سطورًا وترك سطورًا تشغل عدة صفحات كاملة من ردنا على د. حنين عبد المسيح، الذي نُشِر على موقع الدراسات القبطية واللاهوتية بعنوان: خلافًا لتقوى العصر الوسيط: الصليب هو قوة الحياة التي أخذناها في المعمودية ومسحة الميرون. وهنا ننقل ما قاله الكاتب الأستاذ ماجد غطاس:

"قد أختلف مع أستاذي الدكتور جورج حبيب بباوي، وهذا لا يسقط حقه في أنه أستاذي الذي تتلمذت له. في معرض كتابه منظومة العصر الوسيط قال في صفحة ٩ عن خلاصة شرح الطقوس في العصر الوسيط يقول (الخلط بين الرمز والعلامة من ناحية وفقدان العلاقة بين الحقيقة والعلامة من ناحية أخرى. فليس لدينا في الكنيسة الأرثوذكسية رموزًا خاصة بالماضي بل لدينا واقع واحد ربط السماء بالأرض ووحدهما معًا تحت رأس واحد هو يسوع المسيح" أف ١: ١٠) إلى هنا كلام رائع لأننا بالتأكيد، إنما نرمز لشيء لعدم وجوده كغائب أو بكونه بعيدًا، لكن حين أراد الدفاع عن المذبح والشموع والأيقونات والبخور قال (ما لدينا ليس رموز ولكن علامات تدل على وجود سمائي إلهي دخل دنيا البشر بتجسد الكلمة ابن الله (يو ١: ١٤). لدينا حضور وحلول لا ينقطع تشير إليه علامات متعددة هي السابقة الذكر) بمعنى أن المذبح هو علامة حضور وحلول حقيقي للرب المتجسد وليس رمز وهذا أقوى دفاع عن الشموع والبخور والمذبح، وهو دفاع مصيبة أكثر ضررًا من لو قلت أنه رمزًا. لأن الرمز وإن كان غير مقبول أيضًا لأنه تغييب لله وهو المرموز إليه ولكن أن أعتبر الحجر والشمع

والبخور علامة حضور، فهذه هي المصيبة بعينها. فالعلامة الوحيدة لحضور الرب هو استعلان الله في الخليقة بممارسة المحبة والتجديد عن الشكل بتغيير الذهن والضمير، وبالتالي نرى ممارسة فعلية بين أعضاء الجسد الواحد للصورة الإلهية التي طبعت فينا بفعل التجسد وحلول الروح القدس. أما أن أعتبر والشمعة والمذبح علامة حضور أكثر، انحرافًا لو اعتبرتها رمزًا. لأنه وإن كان الله حاضر في كل مكان ولكن الغرض الأساسي من التجسد هو الإنسان وأن الله لا يسكن في هياكل مصنوعة بيد".

ويكتب الأخ يسري ردًا:

"أولًا هذا ليس تعليم الدكتور جورج، بل الإيمان الأرثوذكسي الثابت والمسلم من جيل إلى جيل .. إذا رفضنا المسيح أن يكون المذبح الحقيقي سنرفض بالتبعية أن يكون القربان هو الجسد الحقيقي .. إذا رفضنا حضور الله في المادة وتجليها فنحن نرفض حلول الله في الإنسان بالتبعية .. وصار لباسه أبيض كالنور .. وتفل على الأرض وصنع طينًا وطلى عيني الأعمى .. ولكي لا نرتئي فوق ما ينبغي أن نرتئي .. يعلم البابا كيرلس المتنيح بأن القداس هو دخولنا من الزمني إلى اللازمني فيصير الذي على المذبح هو جسد المسيح المصلوب والقائم ويصير المذبح الذي يحمل هذا الجسد هو المذبح الإلهي الموجود في السماء لأنه كيف يقدم الحجر رب البرية كلها .. سلامي لشخصكم المحبوب".

والأخ ماجد مثل صديق لم أتقابل معه، وهو الأخ ميناس الذي لم يعجبه مقال قصير نُشِر على موقع الدراسات القبطية واللاهوتية نعرض فيه لما جاء في مقالة للأرشمندريت جريجوريوس - نُشرت باللغة الانجليزية على موقع الدراسات القبطية تعقيبًا على محاضرة صوتية لنا بعنوان مجمع خلقيدونية ٤٥١م. وفي مقالنا لم أكن أرد على مقال الأرشمندريت جريجوريوس، بل عرضت

في إيجاز شديد للجوانب التاريخية والتمسك بالماضي، وخبرة الحوار المعاصر، ومراجع كاثوليكية وغيرها تسير في نفس الاتجاه. ولست أدري سر غيظ الأخ ميناس، وإن كان أكثر من صديق قد همس لي بأن دفاعي عن الكنيسة القبطية سوف يجلب عليَّ عداء الكثير من الناس. فحتى ميناس المصري (القبطي) يظن أن الدراسات الأكاديمية في جامعة كامبريدج كانت كفيلة بأن تجعلني أنسى أصلي التاريخي، في الوقت الذي تقول فيه أبسط معارف علم الأنثروبولوجيا إن الإنسان كائن حي تاريخي. ولكن ميناس مثل ماجد، تركا جوهر الموضوع، وصاغا اعتراضاتهما في صياغات سياسية في شكل لاهوتي، وقد بدا للأخ ميناس أن قبول مجمع ٤٥١ هو قبولٌ بحرم ديوسقوروس، ولذلك يجب أن يُرفَعُ الحرم أولًا، وهذا إجراء كنسي سبق وأن حدث مع ذهبي الفم، بل رفعت الكنيسة المشرقية السريانية الحرم عن نسطور، ولم تُصادَر كتب ثيئودوريت الذي حُرِم في المجمع الخامس. وأشار ميناس (وهو طالب دراسات عليا) بأن هذا تقسيم إلى "هم ونحن". ولكن التقسيم السياسي "هم ونحن" غير التقسيم الذي حدث في ٤٥١ لأن الاعتراف بقرارات مجمع، يجب أن يُصحِّح خطأً عقائديًا، بل إداريًا ضد رجل بريء اتُّهِم بالهرطقة دون سند أو دليل، ودون أن يعطى له حق الدفاع عن نفسه كما هو معروف من محاضر جلسات المجمع ذاتها.

أعود إلى اتهام الأخ ماجد، فهو أفظع بكثير من اتهامات "زئبقية" للأخ ميناس سوف ننشر عنها ردًا في مقال خاص إن سمح الرب وعشنا. ولأن الأخ ماجد لم يقرأ جيدًا ما دُوِّن في ص ٤ في الرد السابق الإشارة إليه على د. حنين، نجد أنفسنا مضطرين إلى إعادة نشر أكثر من صفحة من هذا الرد، على الوجه الآتي:

"لكن ما يهمنا أن نشير إليه بكل قوة أنه لا يمكن مع فترات السحق والقتل وتدمير العقل، وسيطرة البطش على الثقافة أن ينمو تيار ثقافي يقبل تجسد ابن

الله، ولا نغالي إن قلنا إن التجسد بكل ما يُعبِّر عنه من معاني ما زال بعيدًا عن الوعي الكنسي المعاصر، وإن كان القمص متى المسكين قد أفلت منه؛ لأن الله لا يترك نفسه بلا شهود، مثلما أفلت منه الأنبا بولس البوشي الأسقف الوحيد الذي استوعب روح الآباء في العصر الوسيط.

راديكالية الإلغاء

ما الذي يُلغي الآخر؟ ونقصد بالآخر هنا الله.

ليس الإلغاء مثل النفي؛ لأنه إذا كانت عبارة "لا إله إلَّا الله" تعبِّر عن نفي لكل صور وأشكال الألوهة، فهذا جيد ومطلوب، ولكن دون الانزلاق إلى الإلغاء. لأن النفي يعترف ضمنيًا بما يُنفى، أمَّا الإلغاء، فهو ليس مجرد إنكار، بل تدمير وقلع لما هو موجود، ويصبح كل ما هو كائن كأن لا وجود له.

ولكن التجسد جمع معًا الآخر والأخر، الله والإنسان في شخصٍ واحد، هو ربنا يسوع المسيح. ووحَّد المسيح بين الألوهة والإنسان في إعلان جديد، هو البذل والمحبة التي لا تعرف الحدود، بما فيها حدّ الموت نفسه. ورفع الإنسان من عابدٍ للأصنام إلى رتبة الألوهة والتبني والخلود بمجد القيامة وسكنى الروح القدس.

ولكن تلك الدعوى ببشارة الحياة، لم تجد المجتمع الإنساني ولا حتى الثقافة التي تقبل أن يكون الإنسان مساويًا لمجد وشرف وكرامة ابن الله. فقد كانت هذه الدعوى هدمًا لهرم السلطة في الإمبراطورية الرومانية، وكان دفاع القديس أثناسيوس عن قرار مجمع نيقية ٣٢٥م يؤكد هذا الصدام العنيف. وكان ما أزعج الإمبراطور قسطنطين هو "الواحد مع الآب في الجوهر - Homo-ousios"؛ لأن هذا لا يجعل للسلطة المطلقة مكانًا ولا يعطي لها شرعية إلهية للحكم القائم على سلطة مطلقة، فقد أصبح كل إنسان تحت حكم الإمبراطور = (يساوي) المسيح ابن الله؛ لأن المسيح جاء ليكون "بكرًا بين إخوة كثيرين"؛ بل

تأمل شدة وقع كلمات الرسول: "وارثون لله ووارثون مع المسيح" (رو ٨: ١٧). وبالتالي كانت القضية المطروحة هي كيف يمكن التعامل مع الآخر الذي له رأس في جوهر اللاهوت ويحمل ذات الطبيعة الإنسانية، أي المسيح؟

ولم يكن ارتداد يوليانوس الجاحد، وهو الذي تربَّى وعاش في بلاط الإمبراطور قسطنطين عن دين يسوع المسيح غريبًا بالمرة، فقد رأى بعينيه غروب الثقافة اليونانية – الرومانية على يدي المسيحية، ولذلك حارب المسيحيين، وأطلق عليهم اسم "الجليليين"، أي "أتباع يسوع الذي من الجليل". ومنعهم من تدريس الآداب اليونانية القديمة، تلك التي كتبها هوميروس وغيره. ولو عاش يوليانوس عشر سنوات فقط لشهدت الإمبراطورية أكبر حركة ارتداد واضطهاد؛ لأن يوليانوس استوعب قصور وعجز الوسائل التي مُورست تحت حكم دقلديانوس وغيره.

.....

رأى نسل قسطنطين أن الإيمان بإلهٍ واحد متجسد وثالوث يزعزع مكانة السلطة المطلقة؛ لأن الدعوة ترفع من شأن الإنسان.

وهكذا من تفاعلات ثقافة تقدِّس السلطة المطلقة، وحضارة قامت على نشر السلام الروماني بالقوة والخضوع لسلطان روما، وفلسفة لا تقبل مطلقًا أن يسكن الله ويتحد بالإنسان وأن يفتح الباب للشركة في الحياة الإلهية، واستنادًا على بعض نصوص الكتاب المقدس، نصٍّ من هنا (أمثال ٨: ٢٢)[٧] ونصٍّ من هناك (يوحنا ١٧: ٣)[٨] وجدوا ما يفتح الباب لهدم دعوة الشركة في الحياة الإلهية.

ولم يأتِ عصر الأمويين – العباسيين – المماليك – العثمانيين – بثقافة إنسانية تعطي للإنسان أي قيمة. ألم يسمع أحمد عرابي تلخص الموقف كله:

(٧) "الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم".

(٨) "أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته".

"أنتم عبيد إحساناتنا" من فم الخديوي سلطان وحاكم مصر المطلق؟

أمام السلطان المطلق "ثقافيًا" لا مجال بالمرة لدعوى الإله المتجسد إلَّا عند الشهداء والأبطال، أما عامة الناس، فالحرص على الحياة مهما كان نوع هذه الحياة لا يفارق الإنسان ولا يقاومه المجتمع نفسه.

راديكالية إلغاء التجسد

نلتقي عبر التاريخ بكثير من المدارس الراديكالية وليدة الثقافة:

- الدوستية: أي تلك التي اعتبرت جسد وإنسانية الرب يسوع خيالًا.

- الأريوسية: التي فزعت من التنازل الإلهي وتواضع ومحبة الله للبشر، وبالرغم من أنها جعلت من يسوع نبيًّا، إلَّا أنها لم تمتنع عن استخدام ألقاب مثل "الرب" و"الإله" و"الله" باعتبارها ألقابًا شرفيّةً وردت في أسفار العهد الجديد.

- الأبولينارية: التي رأت في العقل الإنساني مصدر الخيال وجموح الفكر المحرك، بل ينبوع الشر ورفضت أن يكون ليسوع المسيح عقلًا إنسانيًا.

- النسطورية: التي عجزت عن أن ترى أن الجنين المولود من الأم العذراء هو الله وجاءت لتقول قبل غيرها: "الله لم يلد ولم يولد"، وتلك هي عبارة نسطور نفسه.

- الأوطاخية: وهي أكثر الكل راديكالية، فهي تلغي الناسوت كله، وهو حل الغنوصية، لا داع بالمرة للجسد، فقد ذاب مثل قطرة عسل (وليس الخل) في بحر اللاهوت.

لكن تلك المدارس كانت تصطدم بالسرائر الكنسية، بالكنيسة جسد المسيح الحي، بالقديسين الأحياء والراقدين بيسوع (١ تسالونيكي ٤: ١٤)[٩].

(٩) "لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضًا معه".

وهنا نتساءل: لماذا أهمل الأخ ماجد هذه السطور؟:

"ويمتد خط الفصل، المسيح في السماء لا صلةَ له بالأرض، ورافد هذه الفكرة غير المسيحية هو أن الأسقف أو القس ينوب عنه ويمثله، هكذا تم فصل "الرأس أي المسيح عن الجسد أي الكنيسة". وإذا عجز الفصل عن ذلك، تحولت السرائر الكنسية: المعمودية، الميرون، الإفخارستيا، إلى رموزٍ لما حدث في الماضي، وأصبحت بالتالي مجرد علامات أو رموز تُنهض الذاكرة، أمَّا بقاء الشركة في حياة المسيح كلها بالروح القدس، فهو لا يحول السرائر الكنسية إلى رموز، بل استعلان المحبة الإلهية.

إن ما غاب من الوعي هو أن التجسد هو اتحاد اللاهوت بالناسوت بدون وساطة "الزمان" وبدون وساطة شريعة موسى، وبدون أي وساطة أخرى، وبالتالي فلا وجود لرموز وعلامات تدل على ما حدث، بل رموز وعلامات تدل على:

- ما هو حادث الآن، أمس واليوم وغدًا.

- على ما يُعطى وهو الشركة.

تلك هي أساسات الممارسات الكنسية كلها من عقائد وطقوس (ترتيب)، فهي تعلن للإنسان ما يناله، وتؤكد بقاء ما أخذه.

ما أعظم الفرق بين أن يكون الصليب مجرد علامة تُمارَس بحركة اليد، وبين أن يكون الصليب هو ختم المعمودية والميرون، وبالتالي يكون علامةً على دخولنا إلى أعماق الشركة في محبة المسيح الفائقة. أليس تحريك اليد من الشمال إلى اليمين، هو انتقالنا من الدينونة والموت إلى الحياة الأبدية؟ أليس تحريك اليد من اليمين إلى الشمال حسب طقس (ترتيب) الروم هو سكنى الروح القدس في القلب؟ أليس هذا هو الجانب السري في الحياة الدائمة التي لا انقطاع فيها حتى بالموت البيولوجي؟ ولكن إن تحوَّل الصليبُ إلى علامةٍ خارجية لا تنبع

من قلب الإنسان، ومن قوة وعمل الروح القدس، فإن الطقس يفقد علاقته بالسرائر، ويغري السذج على الهجوم عليه.

وماذا عن البخور؟

الصلبان من المعادن والأخشاب وغيرها، ليست في جوهرها قطعًا فنيةً وأشياء تُقتنى. كانت قديمًا توضع على أجساد الشهداء قبل استعمالها؛ لأن الشهيد هو تجسُّد حقيقي في اللحم والدم لصليب يسوع نفسه. وكانت قديمًا توضع حول العنق بعد المعمودية وليس قبلها، لكي يحمل كل مسيحي ختم الانضمام إلى الكنيسة. وكانت قديمًا -حسب رؤية معلمي الكنيسة- الاحتفال اليومي لكل مسيحي بالمصالحة مع الله ومع الكون ومع غيره من البشر. حتى في العصر الوسيط كتب أسقف بابليون الأنبا يوحنا يقول "كيف ترشم نفسك بعلامة الصليب وتبغض أخيك أو تكرهه؟".

ولكن يبدو أن هذه الرؤية أصبحت غريبة عن الثقافة السائدة في أيامنا. وقوام هذه الرؤية هي:

- إن الكون كله الذي يتمخض الآن في مخاض الميلاد نحو الحياة الأبدية وفداء الجسد بالقيامة (رو ٨: ٢٢)، هو الكون الذي "يشرب من نهر النعمة الإلهية من الآب بالابن في الروح القدس".

- كما أن المياه تدخل شريكًا من الكون في ميلادنا.

- وكذلك الزيت كمسحة من شجرة الزيتون مع أطياب لها رائحة لا تفسد، مؤكدة لنا أن الجسد مُسح بعدم الفساد في يسوع.

- أما البخور فقد غاب عن الوعي المعاصر أن القداسات وكل "ترتيب"، أي طقوس الكنيسة، هو وليمة العريس السمائي التي تجمع كل المفديين الذين رحلوا والذين لا زالوا على قيد الحياة. حيث يجلس الرب على رأس المائدة وعن

يمينه الملكة وعن يساره المدعوين وحول المائدة الملائكة والشعب. هذا هو طقس أو ترتيب جسد المسيح الكنيسة. ويُقدَّم البخور لكل هؤلاء وللشعب الحاضر الشريك أو الشركاء في وليمة المسيح له المجد. الكل يُقدَّم له البخور؛ لأن الكون المادي المنظور لم يُستبعَد من الفداء؛ ولأن ما هو مادي هو في ناسوت الرب نفسه، وقد تجلى بالنور الأزلي غير المخلوق، ولأن هذا ليس قاصرًا على الرب وحده بل يجمع كل "أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يوحنا ١١: ٥٢).

فهل يُقدم البخور للصلبان والأيقونات؟

إن الدفاع من العهد القديم هو دفاع باطل مهما بدأ مغريًا للقارئ. وإنما الدفاع الأرثوذكسي الحقيقي هو أن «الكلمة صار جسدًا وسكن بيننا»؛ لكي يقدِّس الكل: الإنسان والكون بكل ما فيه، وأن نقدم الكون بكل ما فيه لله؛ لأننا أصلًا خُلقنا آلهةً تُقدِّم الكون لله حسب كلمات المزمور الثامن[١٠]. وعندما غابت الهوسات والتسبحة السنوية من الوعي المعاصر لم ندرك أن المسيح يتجلى في الكون، فهو الذي «ينفخ في الأشجار حتى تزهر»، وكل الخليقة تشترك في ليتورجية كونية، ولذلك صارت الصلبان والأيقونات والبخور والقداسات، وحدة واحدة إلهية - إنسانية، رأسها المسيح. وصارت المادة تلمع بالاستعلان الإلهي، ليس من تلقاء ذاتها، ولا لأننا نراها بعين الخيال البشري، وإنما لأن الحقيقة الكامنة فينا، الحقيقة الأبدية التي أخذناها في السرائر، لا تختلف عن ما هو كائن في الكون الصغير، أي كون الكنيسة الذي هو "خميرة الملكوت" المطلوب

(١٠) "أيها الرب سيدنا ما أمجد اسمك في كل الأرض حيث جعلت جلالك فوق السماوات! من أفواه الأطفال والرضع أسست حمدًا بسبب أضدادك لتسكيت عدو ومنتقم. إذا أرى سماواتك عمل أصابعك القمر والنجوم التي كونتها. فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده!. وتنقصه قليلًا عن الملائكة وبمجد وبهاء تكلله. تسلطه على أعمال يديك. جعلت كل شيء تحت قدميه. الغنم والبقر جميعًا وبهائم البر ايضًا. وطيور السماء وسمك البحر السالك في سُبل المياه. أيها الرب سيدنا ما أمجد اسمك في كل الأرض".

منها أن تخمِّر العجين كله. الصلبان مهما كان نوعها، والبخور، والمذبح، ليست أشياء منفصلة عن الحقيقة التي أخذناها والتي نعيشها. عندما هجرنا اللغة القبطية، غاب عنّا أن الميرون له اسمٌ آخر هو ذات اسم البخور πὶⲥⲑⲟⲓⲛⲟⲩϥⲓ وهو ذات اسم ذبيحة الصليب، وهو اسمٌ من أسماء الصلاة، الكل يشترك في مجد المسيح، مجد عدم الفساد، وفي التقديم والبذل"(انتهى الاقتباس).

استخدام قوالب سياسية لمحاصرة الكاتب:

"دفاع هو مصيبة أكثر ضررًا" وحشد المتناقضات وكلمات قمعية مثيرة: مصيبة ⟵ أكثر ⟵ ضررًا.

مصيبة تعيب من؟ - تضر من؟ - وما هو الضرر الأكثر؟

"تغييب لله وهو المرموز إليه". لم ترد هذه العبارة في كل السطور السابقة التي اقتبسناها من ردنا المشار إليه، بل هي من تأليف الأخ ماجد، وهذا حقه.

يقول أيضًا: "ولكن ان اعتبر الحجر والشمع والبخور علامة حضور فهذه هي المصيبة بعينها". ثم يقع في حفرة العصر الوسيط: "فالعلامة الوحيدة لحضور الرب هو استعلان الله في الخليقة بممارسة المحبة والتجديد عن الشكل بتغيير الذهن والضمير ..". ثم كال بمكيال لا أعرفه ولم تعرفه الكنيسة الأرثوذكسية عبر عصور الضعف الروحي فقال: أما ان اعتبر ان الشمعة والمذبح علامة حضور أكثر انحرافًا». والانحراف هي سمة من سمات الخطاب السياسي المصري المعاصر .. انحراف عن حضور الله في كل مكان ما عدا الكنائس – وحضور الله في كنائس ليس فيها شموع ولا مذابح تجده في الترتيل والصلوات والأسهار في اجتماعات صلاة .. ثم لماذا مباني الكنيسة طالما أن الله في صورة الإنسان، وهو موجود في كل مكان؟ ولماذا احترام وتقديس الكتاب المقدس، واستخدام الموسيقى والشعر والأزهار والورود والأشجار، بل ورسومات فاخرة على نوافذ

الكنائس تحمل صور لوثر وكالفن وزوينجلي، وأحيانًا رسوم الذين تبرعوا ببناء الكنائس؟ كانت كنيسة Ridely Hall في كامبريدج في انجلترا لديها نافذة ملونة عليها صورة العلامة أوريجينوس السكندري وبجانبه أثناسيوس. وفي كنيسة البلمند في لبنان كانت توجد أيقونة مجمع خلقيدونية ٤٥١ قبل أن تُسرق رُسِم فيها ديوسقوروس وتاج الأسقف على الأرض في موقفٍ مُهين.

أما الجدير بالذكر فهو استخدام الأخ ماجد لتعبير **العلامة الوحيدة** لحضور الرب هو استعلان الله في الخليقة بممارسة المحبة .. وهو ما يعني -عنده- أن الإنسان أصبح **علامةً**، وهذا جيد، أمَّا كلمة **وحيدة** فهي خطأٌ غير مقصود منه لأن علامة ابن الإنسان هي الصليب المجيد الذي يسبق ظهور الرب الأخير (متى ٢٤: ٣٠)، وكانت أول علامة لاستعلان مجد يسوع -حسب الأصل اليوناني لإنجيل يوحنا- هي تحويل الماء إلى خمر، فهي ليست آية، بل علامة σημειον ولم يستخدم إنجيل يوحنا كلمة آية مطلقًا، بل علامات (يوحنا ٢: ١١ – ٢: ١٨ – ٢: ٢٣). وما نقول عنه إنه معجزات أو آيات هو ترديدٌ لفكر العصر الوسيط؛ لأن حضور المتجسد ابن الله تدل عليه علامات كونية، هي الشفاء وطرد الشياطين، ولذلك يذكر إنجيل يوحنا (٤: ٥٤) هذه العلامة الثانية، وهي إقامة ابن خادم الملك في كفر ناحوم. وفي يوحنا ٦: ٢ تبع الجمع الكثير يسوع لأنهم أبصروا العلامات Signs ولذلك أطلق العالم الكاثوليكي ريمون براون الاسم الخاص على فصول ٢-٩ الفصل الخاص بعلامات محبة اللوغوس رب الخليقة – راجع الكلمة σημειον في قاموس العهد الجديد، فهي الحضور الإلهي الذي يرتب استعلان الخليقة الجديدة، لأن اللوغوس لم يكسر قانون الطبيعية أي الخليقة، بل أعلن أن الخليقة كانت قبل السقوط الآدمي تتحرك بهذا الشكل المجيد.

ولكن هذه الراديكالية الإنجيلية تحذف الكون؛ لأنه لم يكن شريكًا للإنسان

في السقوط، وتنكر أن الكون مدعوٌّ إلى أن يشترك في الفداء، فما هي مصادر هذا الحذف السائد في العبادة والوعظ، بل والترتيل الذي لا يعرف إلَّا يسوع + الفرد المؤمن الذي هو **علامة** تجعل الله يغيب؟

إنها بكل يقين تقوى العصر الوسيط التي شُيِّدت على مجموعة من الثنائيات، وهو ما نناقشه حالًا.

ثنائية الوعي الإنساني التي ورثناها من العصر الوسيط

في عبادةٍ لا تعرف التجسد ولا التبني ولا سكنى وعمل الروح القدس في القلب والإرادة، وإيحاءات «العلامات» في خدمة الثالوث للإنسانية في يسوع ابن الله المتجسد وسكناه فينا بالروح القدس، يغيب موضوع التمييز بين الرمز والعلامة؛ لأن الحاضر هنا هو الله الثالوث، وحضور الثالوث يُدرَك بعلامات الحضور، وهي ليست رموزًا؛ لأن الرمز هو ما حدث في الماضي، ولا ماضٍ في الحاضر الحي.

لكن ثنائية الوعي هي التي تفصل بين الحضور الحقيقي لله على المذابح، المستعلَن باستدعاء الروح القدس (الغائب عن اجتماعات الشِّيع)، وبين علامات الحضور: الكلمة - الصلوات - الاستنارة الداخلية التي ترى بالروح القدس، أي بالنور الإلهي. إن ما استُعلن هو ما تركه جيلٌ معاصر لنا لأنه ورث تعليم العصر الوسيط الذي هو ثمرة الثقافة السائدة والذي لا زال يمسك برقبة الكنيسة يحاول خنقها، وهو كما وصفه أستاذنا الكبير د. وهيب عطا الله «مملوءٌ بالأغاليط». وهي أخطاء جاءت من عدة مصادر:

أول هذه المصادر، هو الثقافة السائدة التي ترفع الله على حساب سقوط الإنسان، وتفصل بين الله والإنسان بوسيط اسمه الشريعة الموسوية، وتضع يسوع رب الشريعة تحت حكم الشريعة لكي ينال الفقهاء مكانتهم الفائقة

في الحكم على مصائر الناس، وهو ما ظهر في نوال كل واحد منهم في العصر العثماني لقب "وكيل شريعة الأقباط"، وبالتالي لم يعد أيٌّ منهم "وكيل أسرار العهد الجديد" التي لا تسمح بسلطة؛ لأن الأسرار لا تعطى ولا تمارَس إلَّا من خلال النعمة وبعمل الروح القدس.

ثانيًا: انعدام الرؤيا الرسولية بالتغيير الجذري الذي جاء به تجسد ابن الله في شركة الله الثالوث في حياتنا وشركة الإنسان في حياة الثالوث، ذلك النغم الإلهي الذي تعبِّر عنه التسبحة: **"هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له"**. هذه الشركة المتبادَلة، رأسها ومصدرها يسوع الذي جاء بتحول Metamorphosis جذري في اللغة وطريقة التعبير - جوهر ونوع الصلوات - والعلاقات الإنسانية - والإنسان والكون - والكيان الإنساني نفسه، وهو ما نعبِّر عنه بعدة كلمات لاهوتية: الإخلاء Kenosis التدبير Economia السر Mystery وهي موضوعات متكاملة غير منفصلة.

لم نقترب بعد من أعماق تراثنا الأرثوذكسي الخاص بالتجسد قبل وبعد ٤٥١. لا زلنا والمياه عند الركبة في انتظار استعلان رؤيا حزقيال النبي عن النهر العظيم الذي غطس فيه النبي، وعلامة فيضان ذلك النهر هو رش الماء بعد نهاية القداس الإلهي[١١].

أكتبُ هذا من أجل الجيل الجديد السريع في الغضب، وهو ليس حلًا لأي مشكلة، والسريع في حشد الاتهامات، وهو تشبُّه بالوضع السياسي السائد منذ ثورة ١٩٥٢ التي قامت للإصلاح، ولكن بجدول قاسٍ من الاتهامات السيئة لِمَا تحقق قبل ١٩٥٢ الذي وُصِف بكلمة عامة غير دقيقة باسم "الرجعية".

ثالثًا: كان تقسيم الوجود هو: الله فوق - الأرض من تحت، ثم الهاوية شيول Sheol. ثلاث طبقات منفصلة لم يعرفها سفر المزامير الذي تغنَّى بالخالق

(١١) راجع دراستنا عن القداس الإلهي، منشورة على موقع www.coptology.com.

الذي يزرع ويسقي ويربي ويحرس أبواب أورشليم ويقدِّم الطعام لفراخ الغربان (مزمور ١٤٧)[١٢]، ويرسل الهواء البارد ويحول الماء إلى ثلج، ثم ينفخ فيه فيصير ماءً، فهو يلعب ويفرح مع الخليقة لأنه رأى أن كلَّ حيٍّ فيها "جميل جدًا" أو حسب الترجمة السائدة "حسنًا". وساد بعد انتشار الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة أن الخطية هي انفصالٌ عن الله، وهي فكرة مصدرها التاريخي أوهام الكهف الذي وصفه أفلاطون، والذي يكون فيه الإنسان جالسًا في داخل الكهف، لا يرى النور بل يرى انعكاس الكائنات وظلالها وهي تعبُر من أمام فتحة الكهف؛ لأن الإنسان سقط من عالم الحقيقة إلى عالم الجهل، وحُبِسَ في الجسد عقابًا له، فنزل إلى الأرض[١٣].

والخطأ الأساسي الذي وقع فيه تعليم العصر الوسيط هو فصل اللوغوس عن الخليقة، رغم أن التعليم الرسولي هو أن "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان"، وقد شرح رسول المسيح هذه العبارات بالذات بأن كل شيء به وله قد خلق (كولو ١: ١٥).

---

(١٢) "سَبِّحُوا الرَّبَّ، لأَنَّ التَّرَنُّمَ لإِلهِنَا صَالِحٌ. لأَنَّهُ مُلِذٌّ. التَّسْبِيحُ لاَئِقٌ. الرَّبُّ يَبْنِي أُورُشَلِيمَ. يَجْمَعُ مَنْفِيِّي إِسْرَائِيلَ. يَشْفِي الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَيَجْبُرُ كَسْرَهُمْ. يُحْصِي عَدَدَ الْكَوَاكِبِ. يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ. عَظِيمٌ هُوَ رَبُّنَا، وَعَظِيمُ الْقُوَّةِ. لِفَهْمِهِ لاَ إِحْصَاءَ. الرَّبُّ يَرْفَعُ الْوُدَعَاءَ، وَيَضَعُ الأَشْرَارَ إِلَى الأَرْضِ. أَجِيبُوا الرَّبَّ بِحَمْدٍ. رَنِّمُوا لإِلهِنَا بِعُودٍ. الْكَاسِي السَّمَاوَاتِ سَحَابًا، الْمُهَيِّئِ لِلأَرْضِ مَطَرًا، الْمُنْبِتِ الْجِبَالَ عُشْبًا، الْمُعْطِي لِلْبَهَائِمِ طَعَامَهَا، لِفِرَاخِ الْغِرْبَانِ الَّتِي تَصْرُخُ. لاَ يُسَرُّ بِقُوَّةِ الْخَيْلِ. لاَ يَرْضَى بِسَاقَيِ الرَّجُلِ. يَرْضَى الرَّبُّ بِأَتْقِيَائِهِ، بِالرَّاجِينَ رَحْمَتَهُ. سَبِّحِي يَا أُورُشَلِيمُ الرَّبَّ، سَبِّحِي إِلهَكِ يَا صِهْيَوْنُ. لأَنَّهُ قَدْ شَدَّدَ عَوَارِضَ أَبْوَابِكِ. بَارَكَ أَبْنَاءَكِ دَاخِلَكِ. الَّذِي يَجْعَلُ تُخُومَكِ سَلاَمًا، وَيُشْبِعُكِ مِنْ شَحْمِ الْحِنْطَةِ. يُرْسِلُ كَلِمَتَهُ فِي الأَرْضِ. سَرِيعًا جِدًا يُجْرِي قَوْلَهُ. الَّذِي يُعطِي الثَّلْجَ كَالصُّوفِ، وَيُذَرِّي الصَّقِيعَ كَالرَّمَادِ. يُلْقِي جَمْدَهُ كَفُتَاتٍ. قُدَّامَ بَرْدِهِ مَنْ يَقِفُ؟ يُرْسِلُ كَلِمَتَهُ فَيُذِيبُهَا. يَهُبُّ بِرِيحِهِ فَتَسِيلُ الْمِيَاهُ. يُخْبِرُ يَعْقُوبَ بِكَلِمَتِهِ، وَإِسْرَائِيلَ بِفَرَائِضِهِ وَأَحْكَامِهِ. لَمْ يَصْنَعْ هكَذَا بِإِحْدَى الأُمَمِ، وَأَحْكَامُهُ لَمْ يَعْرِفُوهَا". هَلِّلُويَا.

(١٣) راجع رد القديس كيرلس على تعليم أفلاطون والاتهام الموجَّه إلى العلامة أوريجينوس بالقول بوجود النفس وسقوطها كسبب لوجودها في الجسد، وذلك في مقدمة شرح الإصحاح الأول على إنجيل يوحنا وقد جاء الرد في ٢٢ اعتراض.

وأعاد نفس الشرح في (عب ١: ٣) «حامل كل الأشياء بكلمة قدرته»، ولذلك بدا تعريف الخطية بأنها "انفصالٌ عن الله" تعريفًا غريبًا على ما تقدمه الأسفار عن الله الذي يحفظ كل الكائنات في الوجود، والذي عُبِّرَ عنه منذ بداية العصر الوسيط بـ "ضابط الكل"؛ لأنه يمنع الخليقة من العودة إلى العدم، وشرح الخليقة كعمل إلهي متصل يقوم به الابن له المجد: "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يوحنا ٥: ١٧)، بل وجاء الرب لكي يعلِّمنا بنقاء الحكمة: "أبي يشرق شمسه على الأشرار والأبرار ويمطر على الصالحين والأشرار" (متى ٥: ٤٥)، بل ونرى في ٩٠٪ من أمثال الرب يسوع أن الملكوت هو على الأرض، وأن الله يعمل في كل ما هو أرضي حتى قبل المصالحة في يسوع المصلوب؛ لأن قاعدة الخلاص هي الخلق، وقاعدة الخلق هي المحبة الإلهية والصلاح الفائق الذي خصص له القديس أثناسيوس الفصول الأولى الثلاثة في الرسالة إلى الوثنيين، والفصول الأربعة الأولى في تجسد الكلمة.

إن تعريف الخطية بأنها الانفصال عن الله هو تعريفٌ تعسفي يخدم كل الهرطقات وكل مدارس الفكر التي وُلِدَت بعد ذلك، والتي تنكر أن الله خلق وحفظ كل الكائنات، وأنه لا زال يسوس ويعول العالم أو الكون، بل يصطدم هذا التعريف مع وقار وتقوى الهوسات الأربعة في التسبحة السنوية؛ حيث يقف كل قبطي مسيحي يسبِّح مع كل الكائنات من الأشجار والنباتات والزروع وكل الخليقة، الثالوث القدوس.

فلم يكن اللوغوس خالق الكون بعيدًا، بل هو "الجالس مع الآب على كرسي مجده"، وهو الذي نزل من السماء لأجلنا نحن البشر حسب كلمات قانون الإيمان، إلَّا أن التنازل الإلهي للتجسد لم يُستوعَب بعد في الوعي المعاصر الشديد التمسك بثنائية العصر الوسيط، والتي لا بد من تحديدها حتى لا نبدو

كمَن يحاول أن يقبض على الريح بيديه إذا كان الملكوت السماوي في السماء فقط.

الثنائية ليست عددية، بل في اختلاف الطبائع مثل الروح والمادة – الزمان والأبد – الله والإنسان – الجسد والروح (وهي ثنائية تعود أصلًا إلى الإيمان بأن الجسد مادة محضة)، وحتى في العصر الحديث عندما جاء تيار دي شاردان اليسوعي والعالم الانثربولوجي بمقولة إن المادة هي إحدى مظاهر الروح، مُنِعَ من التدريس، ومُنِعَت كتبه من النشر والقراءة في داخل جدران الكنيسة الكاثوليكية. وفي ذات السياق حاول الأنبا شنودة الثالث إصدار قرار حرمان بمنع وتحريم كتاب القمص متى المسكين عن "الإفخارستيا" بسبب فقرة ذكر فيها الراهب القبطي إن الشكر في معجزة إشباع الآلاف كشف عن سر تقبُّل المادة مواهب الله، وعن دعوة المادة إلى الشركة في أسرار الملكوت. وخُفِّفَ المعنى هذه الفقرة نتيجة الاعتراض، وضاعت الفرصة، وأذكر أنني عشت أيامًا لا أستطيع فيها النوم أو الأكل أو حتى الخروج من المنزل بسبب الكآبة؛ لأن عملًا عظيمًا تاريخيًا ولاهوتيًا كان سيُدمَّر بسبب فقرة عَجَزَ قارئها عن استيعاب أن الجسد أو الناسوت الذي أخذه الرب يسوع هو جسد الإنسان الأول آدم من تراب الأرض، والذي تحول فيه إلى آدم الثاني في مراحل الولادة والمعمودية وتجارب البرية والصلب والقيامة والصعود لكي "يكمُل" تكوينه ويصبح آدم الثاني السمائي الذي في كل هذه المراحل التدبيرية التي جاء بها الإخلاء (فيلبي ٢: ٦)، **كان جسده، أو بالدقة الشديدة، كانت إنسانيته تتأقنم صاعدةً نحو غاية الاتحاد الأقنومي، وهي خلق الإنسان الجديد في داخل كيان جديد هو أقنوم الله الكلمة؛ لكي يصبح هذا الخلق جديدًا أبديًا مُصانًا بالاتحاد غير خاضع للفساد، وبذلك يصبح الإنسان مدعوًّا في يسوع إلى أن يكون مثل يسوع في مجد إنسانيته.**

ثنائية الله والإنسان: إذا بدأنا من عصر التنوير بأن الإنسان هو مركز الكون وليس الله، وصلنا إلى نقطتين: الأولى هي ضرورة استبعاد الله، والثانية هي أن الله هو صورة الإنسان وليس الإنسان هو صورة الله، وهي العبارة المشهورة التي لصقت بالفيلسوف الألماني فيورباخ، ولكنها صارت بعد ذلك التعبير عن قطع كل علاقة ممكنة بين ما هو إلهي وما هو إنساني والاكتفاء بإلغاء الإنسان، طالما أن الإنسان هو مجرد إنسان ينتمي إلى الطبيعة بفعل النشوء والارتقاء[١٤] وهي نظرية لم تعد مقبولة بالمرة، وكان ولا زال إيماني بأن اصل الحياة الواحد هو اللوغوس Logos Spermatikos (وهي فكرة تبناها أوريجينوس من أفلاطون وأفلوطين ودافع عنها مكسيموس المعترف (ق ٥)، وهي بمثابة القانون العقلي أو Logic الموضوع في كل كائن من الذرة Atom إلى الأشجار والإنسان والنجوم، وهو الذي يحدد لها مسار تاريخها وغايتها وعملها. ويجب أن نلاحظ أن القديس أثناسيوس في شرحه الموسَّع لم يكرر ما قاله أوريجينوس، لأن كتاب الرسالة إلى الوثنيين، وتجسد الكلمة هو ردٌّ على كتاب المبادئ للعلامة أوريجينوس، وبالذات التعليم بالخلق من العدم وعناية اللوغوس بكل الكائنات المادية وحفظها لكي تنال التجديد في اليوم الأخير، وهو ما لم يعبِّر عنه كتاب المبادئ بنفس الوضوح الذي عبَّر به القديس أثناسيوس، والذي رفض أزلية الخليقة بتأكيد خلقتها من لا شيء، مؤكِّدًا أن بقاء العالم هو عمل الرحمة والصلاح الإلهي.

لكن الإنسان كمخلوق ينتمي إلى البيئة فقط، لا يصلح للتدين بأي دين، وبشكل خاص اليهودية – المسيحية – الإسلام؛ لأنه إذا كانت البيئة هي التي

(١٤) لم يقل دارون إن الإنسان تطور من القرد بل القرد والإنسان معًا من أصل واحد. والذين يحاربون دارون يحاربون شبحًا من الماضي. الطريق إلى الكلية الملكية باسم دارون كانت تبعد عن مكان إقامتي في كامبردج ٥ دقائق وكنت أشاهد المجموعات التي حملها معه دارون لكي يؤكد بها نظريته في كل زيارة إلى كلية دارون الملكية في Silver Street.

تحدد أصل الإنسان وغاية وجوده ومصيره بالعودة إلى عناصر البيئة، يكون الإنسان هنا مرجعًا لذاته. وعكس هذا يكون الله هو كل شيء، ومرجع الإنسان هو الله وحده، وبالتالي يلغي الله وجود الإنسان، وهي ذات الفكرة التي سقط فيها د. يوسف زيدان دون أن يدري في كتاب "اللاهوت العربي"؛ إذ وقع بين اختيارين: أن الإنسان لا يريد مخلصًا "من فوق من السماء"، وبذلك أنكر التنزيل واللوح المحفوظ الأزلي (القرآن السابق على خلق الإنسان). والاختيار الثاني هو مرجعية الشريعة الإلهية التي تفقد دورها الإلهي عندما تخضع لأحكام العقل والتقنين؛ لأن كل فقيه هو ثمرة زمانه، ولا يمكن أن يكون أي إنسان إلَّا ثمرةً لعصره وما قبل عصره. وتفريعًا على ذلك، أخشى أن ندخل إلى أصولية آبائية بأن نلغي كياننا ومعرفتنا لأن واحدًا من الآباء القديسين قال هذا والأب الآخر قال ذاك، ومن أجل ذلك جاء علماء الآباء في جامعات اليونان باسم جديد هو علم الآباء الجديد، وإن كنت أفضِّل الاسم الإنجليزي السائد Neo Patristic Synthesis وقد تزعَّم هذا الاتجاه زيزولاس وياناراس ونيللوس (الذي مات مبكرًا قبل أن يكمل رسالته).

لكن ثنائية الله والإنسان تحاصر الإنسان من اتجاهات أربعة:

الاتجاه الأول: وفيه يواجه الإنسان ذاته فقط، سواء كان ذلك من خلال فكر ديني، أو في مدرسة من مدارس الإلحاد. الوجود الإنساني المنغلق الذي لا يسمح للإنسان بأن يعلو Tranced على كيانه، وهو وجود طبيعي Natural من الطبيعة إلى الطبيعة يسمي الكون Cosmos وهي كلمة تستدعي وجود الخالق، بينما الطبيعة كلمة تستدعي القوانين والتطور، وتحذف وجود الخالق بشكل غير مباشر.

الثنائية هنا هي ثنائية كيان إلهي، وآخر إنساني بلا لقاء.

الاتجاه الثاني: وهو أكثر تسامحًا، وهو يقول إن الله في السماء والبشر على الأرض، فالله خلق الإنسان ورتَّب كل شيء بالشرائع الأخلاقية، وأنزل الكتب على الأنبياء، لكن بين الله والإنسان "بونٌ شاسعٌ" تفصل فيه الشرائع، وأقصى ما يصل إليه الإنسان هو أن يكون إنسانًا فاضلًا ذو أخلاق جيدة حددها له الله، ورسم لها العقاب الذي أعده لمن يتجاوزها. عَرِفَ هذه المدرسة قدماء مصر (الفراعنة)، ونصادف هذه المدرسة في أدبيات اسلامية – مسيحية عرفتها المسيحية العربية أولًا، ودخلت أدبيات الإسلام عن طريق طقوس الدفن والجنازات وتشييد المقابر وتخليد ذكرى الموتى الذي يذكر عنه القديس أثناسيوس في الرسالة إلى الوثنيين أن مرثاة أوزيريس كانت تُرتَّل في أيامه (ربما في الاسكندرية)، وهو ما يتردد صداه لدينا عندما نحتفل بمآثر الراحلين حتى من الطغاة والكذبة تقال بالكيل الكبير بعد رحيل هؤلاء.

أن أكتب عن المصريات، يعني أنني وجدت نفسي استعد لقبول قرار حرمان ثالث ورابع؛ لأن ما نراه اليوم هو عودة إلى فرعونية تحت ستار الأرثوذكسية، بينما لا تؤمن به الأرثوذكسية في عقائدها، بل وحتى طقوسها التي لم تُفهَم بعد إلَّا بأنها الوجه المنظور للسر، سر المتجسد مُوحِّد السماء والأرض، والكنيسة والكون، والمادة والروح، ومعلِن بقيامته "مخاض الخليقة" (رو ٨: ٢٢)، وهو الموضوع الغائب من تعليم الشيع الإنجيلية والذي سقط فيه بعض الأرثوذكس[١٥]؛ لأن مخاض الخليقة يطرح علينا بقوة ضرورة إمساك تجديد الخليقة في بدايتها في يسوع المسيح، ونهايتها المستعلَنة في حياة الرب نفسه الذي أظهر نهاية دهور (عصور) التجديد بالقيامة والصعود والمجيء الثاني معلنًا به مجده الذي سبق وأعلنه على جبل طابور.

وهكذا -سياسيًا- يقول الأخ ماجد إن الشموع والبخور والمذابح "مصيبة

(١٥) الذين ينتمون طقوسيًا إلى الأرثوذكسية، دون أن ينتموا إليها عقائديًا ونسكيًا.

كبرى"، وطرح علينا ادعاء العصر الوسيط من جديد، العصر الوسيط الذي رفض أن يكون الإنسان نفسه ذبيحةً (رو ١٢: ١) وظنَّ أن الخدمة العقلية -حسب ترجمة بيروت "العبادة العقلية"- هي الوعظ والتعليم، في حين أنها هي خدمة اللوغوس نفسه التي كرز بها الرب، أي افتقاد المرضى والأيتام والأرامل التي وصفها رسول يسوع المسيح القديس يعقوب بـ (الديانة النقية) (يع ١: ٢٦ - ٢٧) واعتبرها الرب يسوع مقياس المحبة في يوم الدينونة العظيم.

وإجابة الأخ يسري عن تجلي المادة هي عين الصواب، ويضاف إليها أننا لا نحرص على القديم لأنه أصيل، فليس كل قديم أصيل؛ لأنه ما أكثر الأشياء القديمة التي ثبت فشلها؛ لأنها أتت بالجمود والتخلف أو بالعجز عن ملاحقة ما حدث من تطور في حياة الإنسان.

هذه الثنائية تفشل في أن ترى المذبح المصنوع من أي مادة، علامةُ ذبحٍ تقف شامخةً شموخ الديمومة، تظل في هياكل الكنائس مئات السنين تحمل أسماء الشهداء وأسماء الرسل؛ لأن هؤلاء هم قربان المسيح لله الآب وللعالم والإنسانية، وهو قربانٌ محفورٌ، ليس في تاريخ على صفحات الكتب كفكرة، بل في حضور المسيح الحي في عالمنا الذي يحتاج إلى ذبائح حية يومية تشهد للخلاص والمحبة شهادة لحم ودم قام بها غيرنا، ولا نسمح بأن تدخل بطون الكتب أو تصبح ترتيلة تُقال تسبَحُ في عالم الكلام والنغم، بل تجد لها التعبير المادي؛ لأن صانعها يسوع المسيح هو خالق المادة، وهو مؤسِّس الكون المنظور وراعيه الصالح، وهو الذي يقوده إلى يوم الإعتاق من "البُطل" الذي فُرِضَ عليه عنوةً بسبب فشل اختيار آدم لمشروع الصورة الإلهية، وسقوطه في مشروع مزيَّفٍ هو اختيار ذاتي لذاته، وهو حالة الوجود المنغلق الذي عندما احتاج الإنسان فيه إلى الله؛ اخترع العبادة الوثنية، كما شرح القديس أثناسيوس في الفصول الثلاثة الأولى من كتابه الرسالة إلى الوثنيين.

المصيبة الأكبر هي تحول المسيحية إلى نشاط عقلي رُسِمَ بدقةٍ بالغة في التراتيل والعظات، تعيد الإنسان إلى حياته العقلية -هذا جيد ونافع- ولكنه يتوقف عند حدود المعرفة العقلية. هنا -في مجال المعرفة- المحيط الأطلنطي أصغر بكثير من عقل أي إنسان استوعب قدراته العقلية. وبحيرة راكدة المياه، هي أكبر بكثير من إنسان سلَّم عقله تسليمًا كاملًا لما يُنكر، فقد وُصِفَ الفكر بالكفر حسب مقولة الراحل الكريم د. نصر حامد أبو زيد، والفرق بين الكلمتين شاسع مع فرق طفيف في ترتيب الحروف. والسائدُ الآن على الساحة السياسية، تكفير مَن تختلف معهم، وعلى الساحة المسيحية يسود الاتهام بالهرطقة، وهو ذات الاتهام وإن كانت المفردات مختلفة هذه المرة.

العلامة لا تجلب الحضور لأن هذا شائعٌ في السحر والشعوذة. ورحم الله الزميل دولور رفلة، أول قبطي أعرفه كتب بحثًا عن السحر، وهو طالب في الكلية الإكليريكية، في القسم النهاري، السنة الثالثة، قرأه د. وهيب عطا الله المشجِّع الأول على البحث -كما قال- "قرأته بلهفة"، ولكن مات البحث والباحث بعد ذلك بقليل، ورحل أستاذ الباحثين بعد أن حوصر في الدور الثالث من مبنى الإكليريكية، ومُنِع من الخدمة، وتهجَّم عليه من لا يُجرؤ على البحث .. أليست طقوس السحر كما قال ترتليان تقليد طقوس (ترتيب الكنيسة) بخداع شيطاني؛ لكي تصيب الإدراك بالعمى الروحي. ألم نسمع عن دلال المزامير واستخدام المزامير في السحر، بينما استخدام المزامير في طرد الأرواح الشريرة لا سيما مزمور ٢٧، ٩١ معروف حتى في زمن ترتليان وما قبله، فكيف يتحول الذي جاء به الروح القدس إلى سلاحٍ في يد الشيطان؟! الذين درسوا السحر قالوا بصوتٍ واحد إن المزمور يُقرأ معكوسًا، وهنا لا أريد أن أقدم أمثلة لأنني لا أخدم الشيطان، لكن الشيطان قدَّم لنا مثلًا معروفًا في الانثروبولوجيا، وهو قراءة الأسماء الإلهية معكوسة، والمثال المسموح به مشهور عندنا هو: «ع ي س ى - عيسى» وهي

قراءة معكوسة للاسم الآرامي الشائع «يسوع - ي س و ع»، وقراءة الاسم معكوسًا هي قراءة الساحر.

و"يسوع" عبرانية تعني المخلِّص، أما "عيسى"، فهي بلا معنى، تفقد معناها لأن شخص يسوع وعمله وكيانه وحقيقته يعبِّر عنه الاسم: "يدعى يسوع لأنه يخلِّص شعبه من خطاياهم"، وهكذا -بالقراءة المعكوسة- يضيع الخلاص الذي حُفِظَ في الاسم الذي لا يوجد اسمٌ آخر تحت السماء به ينبغي أن نخلص (أع ٤: ١٢).

لكن الحضور المتجسد للرأس الذي منه كل أعضاء جسده (كولو ٢: ١٩) هو الذي تشير إليه العلامة. والعلامة هي جزءٌ من الصلوات ومن الإيمان نفسه ومن الشركة في ذاك الذي له علامات إنسانية، وهو "المريض والسجين والعريان والجائع"، هؤلاء هم أيقونات يسوع الحية التي لا نريد أن نراها، بينما رسم صورة أيقونة يسوع هي دعوة لتجديد البصيرة لكي ترى أن اللون والخشب يحملان ملامح إنسانية، وأننا بالخطية ننسى إنسانيتنا التي لها وجهٌ مشرقٌ في يسوع وحده (لوقا ٢: ٥٢)، والوجه المصلوب والمنكسر في الانسانية "السجين" وكل زملاء المنكسرين والمرضى والأرامل. الوجه المشرق بالحياة في عالم توشك الظلمة أن تغيب فيه، ولكن الذي يظن أن إشعال شمعة هو علامة نور، نقول له ليست هي النور، بل النور الحقيقي جاء إلى العالم، ومع ذلك يظل حضوره المتجسد سرًا رآه الذين لبسوا ملابس الليتورجية في المذابح الحية من عظام ولحم البشر وأن أعظم الملابس هي ما يُقدَّم للفقير، فلم يسقطوا في ثنائية الله والكون، بل لأن المتجسد جاء و "جعل الاثنين واحدًا"، جمع الكل تحت رأس واحد ما في السماء وما على الأرض (أفسس ١: ١٠).

فقد ملأ العالم كله بحضوره الإلهي المتجسد؛ لأنه ليس بكر البشر فقط، بل بكر كل خليقة (كو ١: ١٥). واسأل نفسك: ماذا سمعت عن هذا العمل الكوني

ليسوع ملك الكون وليس ملك الكنيسة فقط؟ وقبل أن تقتطع هذه العبارة لكي تنضم إلى فئة تسعى إلى هدم الكنيسة القبطية من الداخل تحت شعار "كلنا يسوع"، احسب في حساب دقيق:

* هل الصليب هو موتٌ عن الخطية (رو ٦: ٢)، أم أنك تعيش نصف الحقيقة، وهي أن يسوع مات عنك فقط؟ هذا حق، إذن كيف تحول موت يسوع إلى موتك أنت معه في المعمودية، وكيف تحول ذلك الموت السري، وهو أصلًا من محتويات (رو ٦: ١ - ٨، الموت معه والقيامة معه)، فكيف تحولت المعمودية إلى رمز؟ ومتى تحول الموت إلى رمز؟ ما هو المرموز إليه هنا، وكيف صُلِبَ بولس مع يسوع بعد موت يسوع بعدة سنوات "مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا" وأضاف، بل "المسيح يحيا فيَّ " (غلا ٢: ٢٠)؟

* لست أدري بأي قدرة تحوَّلت كلمة **علامة** إلى **آية** في إنجيل القديس يوحنا "هذه هي أول علامات Signs التي فعلها يسوع"، فأعلن بها مجده؛ لأن الخالق اللوغوس حوَّل الماء خمرًا (يوحنا ٢: ١١)، ولم يحمر وجه الماء خجلًا، فصار مثل الخمر حسب وعظة أحد الإنجيليين المشهورين الذي رحل عن هذه الدنيا، وهو كلام نترك للقارئ التعليق عليه.

نحن نتكلم عن علامات الملكوت، وليس "الآيات" والخوارق؛ لأن الملكوت هنا على الأرض، وهذه هي علامات الملكوت. أما المعجزات فقد صُنِّفَت -في العصر الوسيط- ضمن ما هو فوق القانون الطبيعي، في حين أن شفاء المرضى وقيامة الأموات هي من علامات الحياة الجديدة الحاضرة الآن في يسوع رب الحياة الذي له أيضًا السلطان على الهاوية بسبب قوة القيامة وغلبة الجحيم.

المصيبة الأكبر هي بحر الفكر غير المنضبط بعلامات الحضور الإلهي في الكون كله في المزامير، ونسيان أن "السموات تحدِّث بمجد الله"، ونسيان أن

المجد هو إشراقٌ حقيقيٌّ، وليس مجرد فكرة تُسمَع في عظة، وعبارة قد تؤثر في الشعور والإدراك. هذا جيد، ولكن لأن الحضور الإلهي يُشرق دائمًا رغم عتمة الفكر تأتي العلامات، لا لكي تذكِّر العقل الغائب عن الوعي، إذا ما دخل هذا العقل بحر الفكر، بل لتضع علامة ليس لها علاقة بفكر الإنسان، بل هي خارج الفكر مثل البخور – علامة الصليب – المياه – الشموع – الأيقونات، علامات ثابتة لا يمكن للعقل أن يلعب بها أو يعيد تكوينها؛ لأنها غير قابلة للتكوين، بل تتحدى التجديد الذي يراه الفكر في فكرة جديدة مثيرة، إلى تجديد الوعي بالحضور الإلهي الذي هو فوق كل فكر.

وعبر تاريخ ٤٠٠ سنة من حركة الإصلاح، غابت الحياة النسكية، ثم عادت إلى الكنائس اللوثرية والأنجليكانية في نهاية القرن التاسع عشر، وإن وظلت بعيدة عن الحياة الكنسية العامة، ولذلك تدفقت البوذية – الهندوكية على أمريكا الشمالية معقل حركة الإرساليات لكي تملأ فراغ هذا الغياب بالتمويل المالي والبشري، فنشر البوذيون ما يزيد على ٣ آلاف -حسب الإحصاء الرسمي- من مراكز للتأمل والعبادة في وسط أمريكا. وأدرك المهاجرون من إيران وتركيا الأهمية الإنسانية لحركة التصوف الإسلامي، ونشر أتباع جلال الدين الرومي أكثر من ٥٠ ألف مركز في أمريكا لنشر تصوف جلال الدين الرومي الذي ترجمه المستشرق الإنجليزي نيكلسون أستاذ العربية والفارسية سابقًا بجامعة كامبريدج في مؤلفه المشهور "المثنوي"، وقد صدر منه على ما أعرف جزآن بالعربية، وتوقفت حركة النشر لأن الكتاب ستة أجزاء بالإنجليزية، وهو أعظم ما كتبه مسلم عن المحبة الإلهية بعد أن درس مار إسحق السرياني، ويوحنا سابا الملقب عندنا باسم "الشيخ الروحاني".

ولا يوجد لغز وراء اختفاء الاتحاد بالمسيح في التعليم الإنجيلي القديم، سوى أن كل ما يحتاجه الإنسان قد فعله المسيح، فهو قد دفع الثمن، وأعطى البراءة

للإنسان، ودفع الدين، وما على الإنسان إلَّا العودة إلى حَدَثٍ تاريخي حَدَثَ يوم الجمعة على الجلجثة. وبالتالي صار الصليب ليس أكثر من حدثٍ تاريخيٍّ يحياه الإنسان في الذاكرة، فكيف يتفق ذلك مع التعليم بالاتحاد بالمسيح، وما لزوم هذا التعليم أصلًا إذا اقتصر الأمر على التذكُّر العقلي؟ ولست أظن أن بعض أقباط كنيسة مصر من الأرثوذكس غرباء على هذا الاتجاه العقلاني، بل هم أحياء وأحباء له يدافعون عنه، وهم لذلك انقسموا إلى الفريق الذي يحاول تدمير الأب متى المسكين الذي يعاني اليوم من مقارنة ظالمة مع توما الإكويني رسول الفكر الفلسفي الأرسطوطالي، بينما متى المسكين راهبٌ شرب من مياه الحياة النسكية ورأى في صفاء بعض ينابيع الفكر المسيحي العالمي عند الروس واليونان والكاثوليك وبعض الأنجليكان والإنجيليين ما هو متناغم مع التعليم، ومع المنهج الروحي الأصيل الذي كسر الأب متى المسكين سلاسل العصر الوسيط وأفلت منها؛ لأنه عاد إلى مناهل الأرثوذكسية السابقة على عصر الانحطاط الروحي الذي جاء بالانقسامات التي بدأت فعلًا من سنة ٤٣١ وتبعها ٤٥١ ثم امتد خط التقسيم إلى الغرب نفسه.

إن طوفان الفكر تحدٌّ من سلطانه علاماتُ الملكوت. فالمذبح يبقى كما هو مهما تغيَّر الفكر، استقام أم انحرف أم انجرف. ولأن من هذه العلامات يحرك الروح القدس القلوب؛ وُلِدَ عظماء رجال الصلاة في كنائس لها مذابح وبها أيقونات وتشتعل فيها الشموع ويرتفع فيها البخور؛ لأن الكنيسة التي تُبنى بالطوب، هي "بيت الملائكة"، ولأن الآتين إلى الصلاة، يأتي كلُّ مصلٍّ منهم بملاكه الحارس -وهو تعليم أصبح غير معروف الآن- لكي تلتئم الكنيسة في تسبيح أرضي – سمائي بقيادة الرأس الواحد.

الاتجاه الثالث: وهذا الاتجاه طُرِحَ على الساحة بعنفٍ شديد بعد هزيمة

١٩٦٧، ومؤداه أن الله تخلى عن مصر لأنها تركت الشريعة، بينما الثابت أن الهزيمة حدثت نتيجة عدم التقدم العسكري التكنولوجي، حسب شهادة الأستاذ هيكل في كتابه خريف الغضب، وحسبما نشرت مراكز الأبحاث في لندن ونيويورك.

كنت طالبًا في جامعة كامبريدج، وقد انتهيت من الماجستير M. A. عندما أغلقت مصر مضايق تيران وهي مياه إقليمية مصرية في وجه الملاحة الإسرائيلية. واشتعلت الحرب ولم نسمع عن غارة واحدة لسلاح الطيران المصري على إسرائيل، في الوقت الذي كانت مصر تعلن فيه عن سقوط عدد من الطائرات الإسرائيلية، ثم عادت إذاعة القاهرة تقول إن بريطانيا تحارب إلى جوار إسرائيل، وإن حرب ١٩٥٦ هي ذاتها حرب ١٩٦٧ مع غياب فرنسي ووجود مشبوه للأسطول السادس .. وقصص كثيرة.

منذ اللحظة الأولى بات واضحًا أن عودة القوات المصرية إلى خط الدفاع الثاني بعد ثاني وثالث يوم للمعركة وسقوط مدينة بورسعيد بعد قتال بطولي للجيش والشعب، أن القضية لا علاقة لها بالشريعة الاسلامية أو المسيحية أو اليهودية، وأن الحقيقة الغائبة هي انعدام الخبرة العسكرية، وانعدام التفوق العلمي؛ إذ لم يكن لدينا بالمرة خطة لخوض حرب مع إسرائيل.

الاتجاه الثالث هذا يضع الله قيدًا مطلقًا على حرية الإنسان وعلى الفكر، وهو اتجاه إلحادي بحت رغم أنه يتكلم عن الله ٢٤ ساعة في الـ ٢٤ ساعة. لأنه يتكلم عن إله حقبة زمانية غابت منذ عدة قرون. إلهٌ تكلم منذ عدة سنوات وصمت. هو قابعٌ على عرشه، بينما الحياة الإنسانية تتقدم بقوة العقل الذي لا يعترف أصحاب هذا الاتجاه بوجوده إلَّا كعقل عبدٍ لا يجب أن يفكر، بل فقط يخضع. وقبل أن تتهم أيًا من المسلمين، فالاتهام يطال عددًا كبيرًا من

المسيحيين أيضًا .. وذلك عندما نسمع عن الله الذي عمل أيام أنطونيوس والبابا كيرلس السادس، بينما تخلى عنا تمامًا طوال عصر الرئيس حسني مبارك، الله الغائب في زمانٍ جميلٍ مضى. ولم نعد نسأل عن أخطاء القيادة؛ لأن القيادة الكنسية "تنزيلٌ من رب العالمين" ولها الحق في أن تمنع وأن تمنح حق التظاهر، بل وأن تختزل كل أقباط مصر في حفنة من قياداتٍ تحمل بعض الألقاب التي جادت بها على نفسها، دون أن تمارس العمل السياسي مطلقًا، وهكذا تحولت الكنيسة إلى مؤسسة سياسية. وهنا بالذات يبرز دور الشريعة في الإسلام السياسي الذي غاب عنه الكهنوت المنظور، وحلَّ محله شيوخٌ أكثر سلطانًا من بابا روما، يُصدرون الفتاوى بقتل من يعارضهم، يقابلهم على الجانب الآخر أساقفةٌ يُصدرون الحرم على مَن يسأل سؤالًا. والفرق ضئيل؛ لأن مَن يصدر فتوى بالقتل هو صادق فيما يقول؛ لأنه لا يقبل الاعتراض على ما لديه من نصوص، أمَّا مَن يحرِّم السماء على الكاثوليك والإنجيليين فهو كاذب؛ لأنه أصلًا لا يملك حقًا، بل انتزع حق الديان العادل.

والحديث -في هذا الاتجاه- طويل؛ لأن الله من فوق، والإنسان من تحت يعمل ما يشاء، سواء من كان في يده كتابٌ يمنحه سيف القتل، أو من اقتنص -دون وجه حق- سيف الحرمان، والله ترك له الحرية، فهو ليس على الأرض، ولم يتجسد، والذي يُقطع ليس عضوًا في جسد ابنه!!!

الاتجاه الرابع للثنائية: هو اكتشاف الرسالة من خلال النصوص، وحشد الكلمات. وقد وُلِد هذا الاتجاه في براءةٍ تامة على يد علماء اللاهوت المدرسي Scholastic للدفاع عن وشرح المسيحية في الغرب. وفيه يقف المسيحي على أرض التاريخ – الكتب – النصوص؛ لكي يقرر ما هو الحق وما هو الباطل. ومنه وُلِدت مدرسة عصر الإصلاح، ومدارس نقد الكتاب المقدس بأنواعها.

الأساس الذي استند إليه الخليفة عمر بن الخطاب في عدم العمل "بحد السرقة" في عام المجاعة هو أن "النص حمالُ أوجهٍ". ومن مدارس الفقه الإسلامي دخلت هذه العبارة إلى بعض مدارس "فقه مسيحي"، ووُلِدت مدارس علوم وتفسير الكتاب المقدس، ووضع بعض علماء العصر الوسيط مقدمات في تفسير الكتاب المقدس، والتفرقة بين أنواع التفسير، أشهرها مؤلفات الأسقف بطرس السدمنتي وغيره، ووُلِدَ أيضًا تفسير الكتاب المقدس كتابيًا Biblical ومنه نشأ اللاهوت الكتابي Biblical Theology ....إلخ والموقف يذكرني بما حدث من انفلات أمني في مصر في أعقاب ثورة ٢٥ يناير. والمشكلة أن المفسِّر ليس لديه خارطة طريق، ولا بوصلة إلَّا -في أكثر الحالات- الجدل الأكاديمي السائد، والأبحاث التي سبقته، ثم رأيه الذي انتهى إليه. وقد حضرت مناقشة رسالة دكتوراه، قدم فيها الطالب البريطاني رسالته بعنوان المسيح يهوه إله العهد الجديد، وقيل له إنه سيرسب؛ لأن هذا يضايق الأساتذة اليهود، ولأن اسم يهوه غير موجود في العهد الجديد، ودار البحث عن معنى اسم الرب المأخوذ من اقتباسات عديدة من العهد القديم - الترجمة السبعينية التي استخدمت كلمة Kyrios للرب إله العهد القديم، وأن ذات هذه النصوص الخاصة بالله استُخدمت للرب Kyrios في العهد الجديد، فهو ليس مجرد سيد، بل الرب، وحمى النقاش، ولكن فاز الطالب بالنجاح لأنه عاد إلى أهم ما يسبق كل نص، وهو شخص المتكلم، وأن الحدث الذي جعله يتكلم، وما يتكلم به وعنه لم يكن أمرًا بشريًا.

عادت بي الذاكرة إلى هذه المناسبة وأنا أقرأ كلمات أخ مصري فاضل ربما لم يدرس العصر الوسيط، يصف فيها شرح **العلامة** على أنه "دفاع مصيبة أكثر ضررًا من لو قلت رمزًا لأن الرمز وإن كان غير مقبول (لم يقل عند مَن مِن الناس وفي أي مذهب) أيضًا لأنه تغييبٌ لله". وهنا نسأل: عندما وضع بولس الرسول هاجر

وسارة؛ الأولى رمزًا لليهود، والثانية، أي سارة أم اسحق رمزًا للمؤمنين (غلا ٤: ٢١-٣١)، وهي من مقاطع العهد الجديد التي تُضايق اليهود جدًا؛ لأن سارة مصرية ولم تكن عبرانية، ولكن العاقر، وهي الأمم، ولدت أكثر من التي لها زوج، هي كنيسة الأمم أورشليم السماوية؛ لأن أورشليم الأرضية مستعبَدة مع بنيها، إذا كان الأمر هكذا، فهل يجوز أن نقول إن استخدم كلمة **رمز** هنا كان حسب قول كاتب المقال هو تغييبٌ لله؟ ثم استطرد ليقول إنني اعتبر "الحجر والشمع والبخور علامة حضوره فهذه هي المصيبة بعينها"، هكذا بسطرٍ واحدٍ شَطَبَ التاريخ السابق كله، أليس لأن الإنسان نفسه ذبيحةً، يقدِّم عمله، وتسبيحه كل يوم هو ذبيحة، كما أن الطعام والمال والمنازل .. الخ هي تقدمة ذبائح روحية لله، أم نقول للمسيحي أنت مسكين وعريان وسوف نكتفي بالصلاة عليك يوم تموت من الجوع؟

عندما سمعت خطابًا للرئيس محمد مرسي يقول فيه إنه سوف يحل مشاكل مصر في ١٠٠ يوم أشفقت كثيرًا عليه وعلى كل الذين يعملون معه؛ لأن الدولة المصرية كانت تعاني مراحل انهيار داخلي حُذِّر منه الرئيس السابق، ولكنه لم يكن يسمع. على سبيل المثال برنامج تحديد النسل، تحول إلى برنامج تنظيم الأسرة، وقالوا إن تحديد النسل حرام، وضاع الاثنان، ولم نسأل كيف يمكن أن نحيا بسكان يتوالدون بمعدل مليون كل سنة حتى وصلنا إلى ما بين ٨٥ أو ٩٠ مليون (طبعًا هناك ٥ مليون غائبون من بعض الإحصائيات وهو الفرق بين ٩٠ و٨٥ وهو أكثر من ثلاثة أرباع سكان إسرائيل) .. من الذي سيقدم القوت لهؤلاء؟ وتنشر الصحافة صور القاهرة كما كانت منذ ٨٠ أو ٥٠ سنة ولم تقل إن تعداد سكان القاهرة كان لا يتعدى ٥ مليون، والآن يزيد على ٢٠ مليون، ما علاقة هذا بالمصيبة التي حددها الأخ ماجد، وهي تغييب الله، وإن الله لا يسكن في هياكل مصنوعة باليد، وهو هنا البيت القديم، هيكل سليمان،

المكان الوحيد لسكنى الله. أما في العهد الجديد، فإن الله يسكن في هيكل ترابي مصنوع أولًا بإرادة الرجل والمرأة أي ثمرة الزواج، ولكنه يتحول إلى هيكل للروح القدس في انتظار ذلك التحول الأخير الذي سيجي مع قيامتنا.

الخطاب السياسي إعلاميٌ ورقميٌ يهدف إلى الإثارة والحشد وجمع الأتباع، ولكن تحولنا الداخلي ليس عملًا إعلاميًا يُبحَث، بل حقيقة اختبارية مثالها الواضح ليس الخطاب، مهما كان نوعه، بل شخص يسوع المسيح الذي جاء لكي يحول القديم إلى جديد.

وكما عشنا تحت حكم إعلامي يتدرج بنا من التفاؤل الذي لا أساس له في واقع الـ ١٠٠ يوم، وصولًا إلى أن كل ما سبق هو حكم فاسد، هكذا ليس لدينا مانع من أن نأخذ سطرًا من هنا وسطرًا من هناك في ثورة غضب ومن أجل حشد الأتباع، نقتبس كلمات العهد القديم: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي"، أو كلمات أخرى قيلت في مناسبات تعدِّي العهد بين الله وإسرائيل لكي نجعل من هذه الكلمات دليلًا على نفي مَا وُهِبَ لنا في يسوع المسيح. وخطاب اسطفانوس الشهيد في أعمال ٧ ليس ضد التجسد ولا هو ضد بناء الكنائس، ولم يكن في أي عصر من العصور خطابًا ضد ليتورجية الكنيسة، بل هو ضد الشعب العنيد الذي تمسَّك بسكنى الله في هيكل سليمان ورفض المتجسد الذي سكن في اللحم والدم، والذي كما يقول مار افرام هو "الثوب البشري الذي نسجته مريم" لأن التجسد أعطى للإنسان أن يقدم ثمار جسده من أعمال وزواج وزراعة وصدقة لله الحاضر، وصارت هذه كلها علامات محبة الانسان الحقيقية لأننا لا نحب باللسان ولا بالكلام ولكن بالعمل والحق.

المدارس التي قامت على النصوص تهدم التاريخ، ولا ترضى بعمل إنساني يعبِّر عن الله وعن حقيقة حضوره في العالم.

لقد توقَّفتُ عند عبارة الأخ ماجد غطاس: "أما أن اعتبر الشمعة والمذبح علامة حضوره أكثر انحرافًا". وإذا كان تحديد الانحراف يجب أن يستند على مرجعية، فهل النور يُعد انحرافًا إذا كان علامةَ إشراق؟ وهل المذبح، وهو يسمى أيضًا بالمائدة انحراف؟ وإذا قال الرب إنه هو "المن السماوي" وأن ما نزل من السماء لم يعطِ القيامة، ولكن كان علامة من علامات صدق الله في خلاص الشعب من الموت، ومن الجوع، فهل كان نزول المن والسلوى هو غيابٌ لله؟ وهل شق البحر الأحمر -وهو هنا رمزٌ لعبور الشعب إلى أرض الحرية- كان غيابًا لله وانحرافًا؟ هل منعَ الرمزُ الحضورَ الإلهي؟

أمَّا العبارة الأخيرة، فقد تكون بريئة إذا كان قصد الكاتب أن الغرض الأساسي من التجسد هو الإنسان، والإنسان هو الإنسانية جمعاء، فهي عبارة صادقة، أمَّا إذا كان غرض الرب من التجسد جمع أفرادٍ حوله لا لخلق جماعة الرب، أي الكنيسة، فهي عبارة غير بريئة، وتُعدُّ دعوةً للتشرذم.

القسم الثاني

تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (١)[١]

أرسل لي صديق حميم هذه الترنيمة لفريق الكاروز، بعنوان: يا من تميتني عني:

يا من تميتني عني وفيك تحييني
كل ما في الكون حلمٌ أنت اليقظة فيه
ما عاد منظر فيها يحجبك عني
إذا ما أبصرت بك يا نوري وعيني
حظي ومنيتي أنت وبهذا تخليني
من كل ما لا ينشد لك بترنيمي
وبقربك يفارقني قلبي وما فيه
وفي بعدي لا أصبر عنك يا سكني ومسيري
هوَّنتَ لي هنا الغربة بوجهك الباقي
وإن تعثرت بها حركت أشواقي

وتعليقي هنا في هذا المقال هو عتابُ محبة لمن يرنم ولمن ينشد، حيث افتقرت هذه الكلمات في مجملها إلى ثوابت التعليم الصحيح، وهو نتاج طبيعي لزمنٍ غاب فيه التعليم المسيحي عن الثالوث - التجسد - الصلب والقيامة - سُكنى الروح القدس - شركتنا الكيانية. لذلك لا يجب أن نسبِّح ربنا يسوع على ما نذكره أو ما نتخيَّله نحن، بل نسبِّحه على ما أعطاه لنا: البنوة - الحياة الأبدية - ميراث الملكوت – القيامة من الأموات – شركتنا في العلاقة الأقنومية التي بينه وبين الآب والروح القدس ... الخ.

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٢٣ يوليو ٢٠١٤.

عندما لا تدخل أساسات المسيحية في الصلاة وفي الترنيم، وتتحول الترانيم إلى ما يشبه "المساج" Massage لتحرك عضلات الانفعالات النفسية مثل الأشواق والفرح النفسي واسترداد السلام النفسي، عندئذٍ يصبح ما تقدِّمه هذه الترانيم لا يختلف بالمرة عن التواشيح – الأدعية – الأوراد التي تنشدها فرق التصوف في اليهودية والإسلام، ويكفي أن نذكِّر القارئ الذي يريد أن يفهم، أن نظرةً على أشعار الحلاج - رابعة العدوية - ابن الفارض، وهؤلاء من أقطاب التصوف الإسلامي، تؤكد لنا أن الإطار العام لهذه التواشيح هو حركات وخلجات القلب الساعي إلى الله، وهي سعيُ الإنسان نحو خالقه، وهو شعورٌ حقيقي وأصيل في النفس الإنسانية التي خُلِقت أصلًا على صورة الله ومثاله (تك ١: ٢٦)، ولذلك فالإنسان دائم البحث عن خالقه - هذه نزعة إنسانية جيدة لا ضرر منها بالمرة، ولكنها تتعارض مع أبسط حقائق التعليم المسيحي، وهي أن الله هو الذي جاء إلينا، وهو الذي يبحث عنا كما عبَّرت عن ذلك أمثال الرب يسوع: الخروف الضال - الدرهم المفقود وغيرها، عن النور الإلهي المشرق في يسوع المسيح (يوحنا ١: ١-٤). فالحركة الإنسانية تسير بقوة الطبيعة إن كانت تفتِّش عن الله خارج التعليم المسيحي، ولكن الحركة الإلهية المتجسدة هي التي تسير بقوة الإلوهة في يسوع المسيح وبالروح القدس؛ لأن الله يريد الإنسان حرًا من عبودية الموت والخطية، ويؤهِّل الانسان إلى ميراث الملكوت.

لو درسنا كلمات الترنيمة السابقة التي فيها كل براءة وأشواق الطبيعة الإنسانية، للاحظنا غياب حقائق أساسية مسيحية، ليست أرثوذكسية فقط، بل في التراث المسيحي الشرقي والغربي على حدٍّ سواء. ولكي يكون الكلام دقيقًا، لا عامًا يكفي أن نقرأ:

وبقربك يفارقني قلبي وما فيه
وفي بُعدي لا أصبر عنك يا سكني ومسيري

قارن هذه الكلمات بعبارة رسول المسيح بولس: "بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخًا أبًّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤-٦)، فالقلب، وهو في تراثنا المسيحي العالمي، ليس هو تلك العضلة التي تدفع الدم، بل هو الكيان الروحي كله: الفكر - الشعور - العواطف - الإرادة - الخيال، والأهم هو "الوعي" بحضور الروح القدس الذي يحمل إلينا المصلوب والحي القائم من بين الأموات. إذن، فالقلب لا يفارِق؛ ولكن ما فيه يحتاج إلى تجديدٍ وتقديسٍ بالروح القدس. أمَّا "الفناء" في الله الذي تكلم عنه أقطاب التصوف الإسلامي، فلا تقبله المسيحية لأن الكيان الإنساني: الجسد والروح الإنسانية معًا هما وحدة واحدة يطلبها الثالوث لكي تكون مسكنًا له كما قال الرب يسوع بفمه الإلهي: "إليه نأتي وعنده نصنع منزلًا (مسكنًا) (يوحنا ١٤: ٢٣)، ليس لأن الأشواق والرغبات ودقات الموسيقى هي التي تجيء بالثالوث، وإنما لأن التجسد ملأ الكون والإنسانية بحضور الكلمة الابن الوحيد على المستوى الإلهي المتجسد.

ما عاد منظرٌ فيها يحجبك عني
إذا ما أبصرت بك يا نوري وعيني

تعبِّر هذه الكلمات عما وصل إليه هذا الجيل من جفاف، ذلك الجفاف الروحي الذي لمحه الأب متى المسكين في مقدمة كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية. جفافٌ لم يعالَج جذريًّا، فقد غاب عن هذا الجيل التعليم بسُكنى الروح القدس في أعضاء الجسد، وهو ما نراه في رسائل أنطونيوس، وبالتالي تجلي الجسد لأنه هيكل الله.

وتأمَّل كيف غابت قداسة الجسد، تلك التي تُوهَب بالروح القدس بمسحة يسوع المسيح نفسه (١ يوحنا ٢: ٢٧)، وكيف صار الجسد مستعبدًا لإفرازات الجسد، وحركات الطبيعة البيولوجية التي خلقها الله، وتفنن فقهاء العصر

الوسيط (لا سيما في المصادر العربية) بكل ما يمكن نقله دون تمييز عن يهودية اللاويين والتثنية، بل وعن الإسلام الذي له وجهة نظر واعتقاد خاص به عن الإنسان (لا مجال له هنا)؛ لذلك صار التقديس الذي يؤخَذُ في سر الشكر تقديسًا مؤقتًا، فَقَدَ الهبة واللمسة الأبدية، وأصبح الإنسان يحتاج إلى الوضوء أو الاستحمام، وهو ما انعكس على قراءة لقاء الرب يسوع مع المرأة نازفة الدم الذي قال الرب نفسه بلسانه عنه: "مَن لمسني" (متى ٩: ٢٠)[٢]، فبالرغم من أنه لم يكن لحادثة الشفاء هذه أية علاقة بالعشاء الرباني، إلَّا أنها في زمان الارتداد عن التعليم المسيحي، تصبح حادثةُ شفاءٍ لا علاقة لها بسر الشكر مثالًا لنجاسة المرأة الحائض، وبالتالي تبررُ المنعَ من التناول.

إن ما حدث قبل كمال التدبير بالصلب والموت والقيامة والصعود وحلول الروح القدس لا يجب أن يُقتطع جزءٌ منه لكي يبني عليه الفقهاء المتأسلمون ممارسةً تُنكر قداسة الإنسان في يسوع المسيح، بل يجب علينا أن نرى العالم كله كمكانٍ تتجلى فيه رحمة وعظمة الله، وبالتالي لا يحجب القلب أو الفكر عن الله. هذه الثنائية الغنوصية الأصل، قد تجاوزها النسك المسيحي بالهذيذ أو الثاؤريا الأولى، وهي تأمُّل الكون الذي تغنَّى به سفر المزامير عن تسبيح الخليقة لله واهب كل العطايا (مزمور ١٤٧ على سبيل المثال لا الحصر).

فقول الترنيمة: "ما عاد منظرٌ فيها يحجبك عني"، وإن كان يبدو بريئًا ويعبِّر عن شوقٍ حقيقي، ولكن تحت هذه البراءة تختفي الثنائية القديمة، فكلُّ منظرٍ في الكون ناطقٌ بمجد الله لا يُبعد الانسان عن الله، ولا عن محبة الله: "السموات تُخبر بعمل يديه .."، ولكن التحليل الدقيق لكلمات الترنيمة يؤكِّد

---

(٢) لم تلمس تلك المرأة هُدبَ ثوبه كما ورد في الترجمات العربية، بل غطاء الرأس الشائع في زمن المسيح Prayer Shawl الذي يشبه إلى حد كبير كوفية طويلة تغطي الكتف حتى وسط الجسد نفسه، وتعرف بالاسم الآرامي Tallit لأن زحام البشر حول الرب، يجعل من المستحيل أن تنحني امرأة وتلمس هدب الثوب، ولذلك، الأصح، أنها لمست غطاء الرأس.

لنا أن الانسان مازال يعيش ثنائية الله والكون، أي أن الله غريبٌ عن الكون، وأن الإنسان يجب أن يُنكر ويجحد الكون. وكلمات هذه الترنيمة، مثل كلمات ترنيمة أخرى، أقدم:

"فكل منظر ها هنا فيه الشقاء والعناء"،

في حين أن كل منظر هنا -مهما كان- يؤكد لنا الحضور الإلهي الدائم ليسوع المسيح.

المحبة الإلهية التي يسكبها الروح القدس (رو ٥: ٥).

عندما يقول رسول الرب: "إن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس الذي أُعطيَ لنا -وهي كلماتٌ غابت في زمانٍ أنكر فيه البعض سُكنى الروح القدس وحذفوا فيه -عن جهلٍ- عبارة رسول الرب: «أنتم هياكل الله وروح الله ساكن فيكم" (١ كو ٦: ١٦)، فقد تحوَّلت حركة السعي لمحبة الإنسان لله، إلى حركةٍ إنسانيةٍ لم تنل قوة النعمة، ولم نعد نسمع عن أنَّات وشفاعة الروح القدس (رو ٨: ٢٦)، فقد غاب هذا كله تحت وطأة الخلاص بالانهماك في التسبيح الذي يُدخلنا في تقوى مزيفة؛ لأنها تبحث عن الله بينما الله هو الذي يبحث عنّا.

إن أشواق الإنسان إلى المسيح بدون صلب الأهواء، وبدون هبة الحياة الأبدية، تقود إلى فراغٍ وعدم؛ لأن إنكار الذات تحوَّلَ من لمسة النعمة فينا إلى Self – Negation بينما لا يمكن إنكار الذات إلَّا بالذات، فلا بُد من وجود الذات "أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" (غلا ٢: ٢٠)، وهذه ليست Self – Negation بل هي إنكارٌ للذات كوحدةٍ Unite وكيانٍ entity مستقلٍ عن الرب، لا التقوى المزيَّفة التي دخلت مع التشديد على صوم الجسد وحده، دون صوم القلب، وإفراز أطعمة وساعات الانقطاع والتي تحوَّلت إلى "أعمال الشريعة"

التي لا تقدِّم الإنسان إلى الله؛ لأن الله هو الذي جاء إلينا (راجع غلاطية، الاصحاح الثاني كله)، وعندما يخرج الإنسان عن كيانه، فهو لا يصل إلى شيء، بل يقع في حفرة العدم.

والكلمات الآتية مثيرة؛ لأنها تدغدغ الشعور ولا تؤكد التجسُّد:

يا من تميتني عني وفيك تحييني
كل ما في الكون حلمٌ أنت اليقظة فيه

والشطر الأول يُبعد الوعيَ عن التجسد، فالمسيح لم يكن أمنيةً، ولكن الشطر الثاني صحيح؛ لأن المسيح أحيا الإنسان فيه، وكان من الضروري التشديد على الصلب والقيامة: "أقامنا معه - أجلسنا معه في السماويات". يا ليتنا نرتِّل كلمات رسول الرب ونترك العموميات التي تقتل الوعي والإدراك بخصوصية الإيمان المسيحي ورسالته.

أما نهاية الترنيمة فهو غريب جدًا:

هوَّنت لي هنا الغربة بوجهك الباقي

وهكذا سقط الاتحاد بالرب يسوع، أي بمن قال أنا هو القيامة.

ثم: وإن تعثرتُ بها حرَّكت أشواقي

ولكن الشوق لا يعيد الإنسان إلى المسيح، بل المسيح هو الذي يعيد الإنسان إلى المسيح بالروح القدس.

أقول لمن يلصق بي تهمة التعصب أو الطائفية، **إن المسيحية الأرثوذكسية ليست طائفة، بل هي الامتداد التاريخي لِما أسَّسه الربُّ والرسل وثبَّته الآباء. إنها كنيسة المسيح في ديار مصر، وتقواها ليست مزيَّفةً، بل تراها في التسابيح القبطية بالذات، تُعيد الإنسان إلى الثالوث، إلى الاتحاد الأقنومي، إلى الأسرار، إلى الكنيسة**

الجامعة (المجمع الكبير في صلاة نصف الليل)، وتغرسنا في تاريخٍ حيٍّ، وشهودٍ وشهداء سلَّموا لنا الإيمان.

ولنا لقاء آخر مع التقوى المزيَّفة.

ملحق

رد الأستاذ ماهر فايز على د. جورج حبيب بباوي في موضوع: يا من تميتني عني

سيدي الأستاذ، والعالم الفاضل د. جورج حبيب بباوي.

لقد تعودت أن لا أعير اهتمامي لنصف متعلم، أو لمدعي علم..يتناول مادة أو منهج خدمتي بطعن أو تشويه..ولكن..أن يفعل ذلك عالم حقيقي وباحث مشهود له مثل حضرتكم..فهذه ساحة نزال ومنازلة أشرُف بالنزول إليها، بفروسية ونبل...عالم أنك تضيف ولا تقلل من قيمة حوار كهذا، بما لديك من حق ونور..إن رفعك الله به على نقصي..يزيدني هذا فخر وفرح. لأن هذا يؤول أولا وأخيرا لمجد الله في المسيح يسوع، ولرفعة منارة كنيسته الواحدة.

أولا: لن أعتب عليك على حضرتكم، اختياركم ل عنوان: «تقوى مزيفة» بشيء..لأن هذا يتهمني في تقواي بالزيف..وهذا اتهام يمسني شخصيا ولا يمس التعليم، لذا؛ لا أدفعه عني..فما فيَّ من نقص يحتم عليَّ قبول أي طعن؛ كتائب وسأظل تائبا ليمنحني الله تقواي. ولكنني- وكما تعلمت- سأدفع عن منهجي ومادة عبادتي؛ الاتهام الخاص بالتعليم.. حيث يخص هذا شعبًا نضع في أفواهه الحق ليعبد ويفرح بإلهه.

و.. إلى الدفوع:

قلت حضرتكم في بداية طرحكم، والذي خرجت به من الخاص (كَ ترنيمة واحدة موضوع الطعن) إلى العام باتهامنا بهذا كما ورد بالنص هكذا:

[ثوابت التعليم الصحيح، وهو نتاج طبيعي لزمنٍ غاب فيه التعليم المسيحي عن الثالوث – التجسد – الصلب والقيامة – سكنى الروح القدس – شركتنا الكيانية. لذلك لا يجب أن نسبِّح ربنا يسوع على ما نذكره أو ما نتخيَّله نحن، بل نسبحه على ما أعطاه لنا: البنوة – الحياة الأبدية – ميراث الملكوت – القيامة من الأموات – شركتنا في العلاقة الأقنومية التي بينه وبين الآب والروح القدس ... الخ.]

كنت أتوقع أن تذكر لي شيئا إيجابيا، ك (أبجدية المسيح) التي بادر موقعكم المتميز بنشرها فور صدورها عام ٢٠٠٦ وبها تسبحة واحدة تجمع أكثر من ١٦٥٨ آية لتحميد وتمجيد أقنوم الابن من كلمة الله، وبثوابت التعليم المسيحي!

أو كباحث مدقق، كان يمكنك بعمل بحث بسيط على شبكة الانترنت، أن تجد لضعفنا إنتاجا مكثف في التسبيح بهذا الحق.. والآن اسمح لي يا سيدي أن أضع روابط لبعض من عينات التسبيح التي نعلن فيها هذا... أطلب لطفكم واتساع صدركم ووقتكم في تفحص هذا.. لا لأجل حوارنا-فقط- بل أضع هذا لأجل إكرام سيدي أمام شعبه، كما أكرمته وسأكرمه.

كما أنني أدعو من هنا، كل من باركه الله بتسبيح معنا، أن يبارك الرب بالرد على حضرتكم بوضع مادة تضيف لهذا النزال بعدًا آخر.

عن الثالوث كترنيمة مسيحي لأني أؤمن بالثالوث:
http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/08-Coptic-Taraneem-Kalemat_Meem-Noun/Masi7i-Le2any-Omen-Bel-Thalouth.html

وترنيمة لك مجدا وإكراما أيها الثالوث القدوس:
http://st-takla.org/lyrics/ar/songs/lam/magdan.html

ثم عن التجسد (أراعي الترتيب الذي سقته حضرتكم في الانتقاد):
ترنيمة: حقًا نؤمن ونعترف ونمجد العجيب، وذكصولوجية التجسد (في البدء كان الكلمة وكان الكلمة الله):

http://www.father-bassit.com/vb/showthread.php?t=12740

وثيؤطوكية على تعظمة العذراء، تعلن تجسد الكلمة:
http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/02-Coptic-Taraneem-Kalemat_Beh-Teh-Theh-Geem/Toaazim-Nafsie-AlRabb-2.html

وإبصالية للتجسد والظهور الالهي عنوانها: هذا هو الابن الوحيد:
http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/09-Coptic-Taraneem-Kalemat_Heh-Waw-Yeh/Hatha-Howa-Al-Ebn-Al-Wahid.html

وترنيمة، لو لم يولد المسيح:
http://www.father-bassit.com/vb/showthread.php?t=50739

وغيرها من عشرات الترنيمات، ففي كل عيد لميلاد رب المجد (نضخ) في دماء الكنيسة التعبدية، مئات الكلمات الكتابية التي تعلن هذا الحق.. وأبدا لم نكن (مغيبين) سيدي الفاضل عن مهمتنا ودعوتنا.

والآن إلى الحق الخاص بالصلب والقيامة:

لن تكفي صفحات موقعكم بكل ما فيه من ثراء كمي وكيفي..أن يوضع مقابلها ما أعطانيه الله بفضل نعمته من كلمات وألحان في هذا المجال، ولم نعبد في اجتماع عبادة طيلة ٢٦ عاما من الخدمة دون أن نسبح بعمل الصليب والقيامة، ولم تخلو ترنيمة لنا في لاهوت الخلاص تحديدًا، لم نذكر فيها بالفخر والفرح صليب رب المجد وقيامته، وسأكتفي بغيض من فيض أعطانيه الكريم:
ذكصولوجية أيها النور الذي أشرق:
http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/01-Coptic-Taraneem-Kalemat_Alef/Aehoa-AlNoor-Allazie-Ashrak.html

هانرنم-يا-من-داس-الموت-المرنم-ماهر-فايز-فريق-الكاروز/

http://www.yafita.com/a/1017168/

وترنيمة يا حياةَ المسيحية
http://st-takla.org/lyrics/ar/songs/yaa/almasi7eya.html

وترنيمة زيدوا المسيح تسبيح:

http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/04-Coptic-Taraneem-Kalemat_Reh–Zein/Zeido-El-Masih-Tasbeeh.html

وترنيمة يا يسوع حبيبي فادي حياتي، وغيرها، ستجدها على موقعنا:
http://www.elkarouz.com/elkarouzteam/Audio-songs/powerpoint.html

والآن في الترانيم الخاصة بالروح القدس:

https://m.youtube.com/results?q= sm=3

وترنيمة: بقوة الروح القدس، يعلن مجد المسيح
https://m.youtube.com/watch?v=fcQEMCNYFyc

وترنيمة: يا نهر النعم الفياض
http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/09-Coptic-Taraneem-Kalemat_Heh-Waw-Yeh/Ya-Nahr-El-Ne3am-El-Fayad.html

ثم محاضراتنا الخاصة بمواهب الروح القدس

https://m.youtube.com/results?q= sm=3

أما عن البنوة: فلنا أكثر من مئة نص ملحن يحتوي موادا كتابية روحية عن البنوة لله. سأذكر بعضها.

ترنيمة، باسم الرب يسوع نأتي:
http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/02-Coptic-Taraneem-Kalemat_Beh-Teh-Theh-Geem/Be-Ism-El-Rab-Yasou3.html

وترنيمة شاكرينك أيها الآب:
http://st-takla.org/lyrics/ar/songs/sheen/shakreenak.html

أما عن الحياة الأبدية، والملكوت... فيكفي أن تكتبها بجوار اسمنا الحقير لتسمع وترى الكثير على عشرات المواقع.. وخاصة على موقعنا... فلا رسالة لنا عبر التسبيح إلا تقديم إنجيل الحياة الأبدية للبشر. وحمد الله وشكره عليها.

أما عن قيامتنا من الأموات، كموت، بالخطايا..فهناك المئات، أذكر منها:

مالناش غيرك إنت:

http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/08-Coptic-Taraneem-Kalemat_Meem-Noun/Mlnash-Ghirak-Anta-Elahna.html

وترنيمة: المجد لك..وفيها عدة أبيات تبدأ ب "صوتك يحيي الموتى لأنك أنت هو الحياة"

http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/01-Coptic-Taraneem-Kalemat_Alef/AlMagd-Lak-Ya-Moheb-El-Bashar.html

أما عن شركتنا في العلاقة الأقنومية بين الابن والآب والروح القدس.. فهذا وضعنا فيه نصوصا عدة.. يدرس بعضها في كليات اللاهوت بألمانيا، كنموذج تعبدي حديث.. لهذا الفكر الآبائي في العبادة. وهو (باندهاش وإعجاب):

http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/02-Coptic-Taraneem-Kalemat_Beh-Teh-Theh-Geem/Be-Endehash-Wa-E3gab.html

ونص آخر يوازيه في قوة الطرح اللاهوتي لصورة الابن فينا:

http://st-takla.org/Lyrics-Spiritual-Songs/01-Coptic-Taraneem-Kalemat_Alef/Ebsaliet-El-Soora.html

والآن إلى موضوع ترنيمة: يا من تميتني عني

لما في العبادة المسيحية من اتساع وجداني وشمولية لموضوعات عدة.. حرصنا أن نضع ونصنع انسجامًا في نصوصنا التعبدية.. فَ الترانيم التي توضع تحت تصنيف لاهوتي يخص الطبيعة الالهية، واللاهوت العقيدي. غير تلك التي توضع تحت اللاهوت الخلاصي، أو الرعوي.. وأيضًا لدينا مجموعة من الترانيم تحمل طابع المناجاة الوجدانية، ومنها ترنيمة (يا من تميتني).. وهي تدرج تحت مصنف آخر من الشعر الصوفي المسيحي.. وهذا له لغته ومفرداته وطرق التعبير فيه، بل ومصطلحاته...

وأستدعي في هذا السياق، ترنيمة: (قلبي الخفاق) لقداسة البابا شنودة، وترنيمة (السائح المسيحي) للصوفي المسيحي الشيخ كامل منصور... ونص (بتصرف) للأب المتنيح متى المسكين بعنوان (نيرك هين):

http://m.youtube.com/watch?v=DZqOb_mAJbA

ومن خصائص هذا النوع من الشعر؛ ضغط الفكرة إلى أقصى حد، وتغطيتها بالطريقة التي تصل بها لمتذوقها دون العبور على من لم يذق.. حفظًا لتدرجه الروحي.. دون المساس بحق الروحاني في الدخول إلى بلده..

والآن لنتابع كلماتكم في نقد الترنيمة، وليعطنا الله نعمة ورحمة في إيضاح الحق فيها من جانبنا أيضا كما تفضلتم.

قلتم:

"وبقربك يفارقني قلبي وما فيه
وفي بُعدي لا أصبر عنك يا سكني ومسيري

قارن هذه الكلمات بعبارة رسول المسيح بولس: "بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخًا أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤-٦)، فالقلب، وهو في تراثنا المسيحي العالمي، ليس هو تلك العضلة التي تدفع الدم، بل هو الكيان الروحي كله: الفكر - الشعور - العواطف - الإرادة - الخيال، والأهم هو "الوعي" بحضور الروح القدس الذي يحمل إلينا المصلوب والحي القائم من بين الأموات. إذن، فالقلب لا يفارِق؛ ولكن ما فيه يحتاج إلى تجديد وتقديس بالروح القدس، أما "الفناء" في الله الذي تكلم عنه أقطاب التصوف الإسلامي فلا تقبله المسيحية؛ لأن الكيان الإنساني: الجسد والروح الإنسانية معًا هما وحدة واحدة يطلبها الثالوث لكي تكون مسكنًا له كما قال الرب يسوع بفمه الإلهي: "إليه نأتي وعنده نصنع منزلاً (مسكنًا)" (يوحنا ١٤: ٢٣)، ليس لأن الأشواق والرغبات ودقات الموسيقى هي التي تجيء بالثالوث، وإنما لأن التجسد ملأ الكون والإنسانية بحضور الكلمة الابن الوحيد على المستوى الإلهي المتجسد."

ونقول:

أولا: لم نذكر في ترنيمتنا ما يشير إلى (الفناء) كما ذكرت حضرتكم، بل أكدنا حياتنا في المسيح بالروح القدس المحيي.. حين قلنا في أول الترنيمة: "فيك

تحييني" فَ أل (نون والياء) تعلن عدم الذوبان الفنائي الذي أشرت إليه.. وفي منتصفها أكدنا قائلين: "يا سكني ومسيري" وفي هذا التأكيد على دور النعمة التي وضعتنا (في المسيح) لنتحد بمجد الله...ولوصولنا إلى الاتحاد بهذا المجد في (المسيح/ الطريق/ المسير).

وفرق كبير سيدي العالم (باللغة وبالحق) أن أقول: يفارقني...وأن أقول (يفنى) وينتهي وجوده ذائبًا أو فانيًا... إنما فعل (يفارقني) هنا فعل لابد من تناوله في سياق (الحضور الإلهي/ القرب) "وبقربك يفارقني"...

فمن من يا سيدي العابد، لم يقل (إراديا) في وعيه بالحضور الالهي: "أحيا لا أنا".. ومن منا في خبرة الوعي الخاصة بالثيؤريا / الكشف الإعلاني.. لا يقول: "في الجسد أو في الروح، لست أعلم".. وهذا الذي قال: "لم تبق فيَّ قوة".. ولكن الأروع في هذا أننا في الحضور الإلهي، و نحن جميعا ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف، كنا في مرآة...نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد بعل الروح القدس... لماذا؟!... لأن في مرآة الحضور تفارقك صورتك وما فيها لترى يسوع المسيح صورة الله وتقتني ما فيها بالروح...ثم يعود إليك قلبك وصورتك، وهو محملاً بهذا المجد وبهذا التغيير.. وهذا المعنى هو ما قصدته بالفعل حين كتبت هذه الشطرة... لأهلها..!

ثم أكملت بعدها: "وفي بعدي لا أصبر عنك يا سكني ومسيري".. لأؤكد وعيي بالاحتياج الدائم للحضور الالهي وللرب نفسه كسكن ومسير/ ترحال دائم.. وهذا الوعي يقتضي حضوري أيضا كفاعل يتجاوب مع نعمة الله وليس ك (فانٍ فيه).

قلت:

ما عاد منظرٌ فيها يحجبك عني
إذا ما أبصرت بك يا نوري وعيني

تعبِّر هذه الكلمات عما وصل إليه هذا الجيل من جفاف، ذلك الجفاف الروحي الذي لمحه الأب متى المسكين في مقدمة كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية. جفافٌ لم يعالَج جذريًا، فقد غاب عن هذا الجيل التعليم بسكنى الروح القدس في أعضاء الجسد، وهو ما نراه في رسائل أنطونيوس، وبالتالي تجلي الجسد لأنه هيكل الله.

وتأمل كيف غابت قداسة الجسد، تلك التي تُوهَب بالروح القدس بمسحة يسوع المسيح نفسه (1 يوحنا 2: 27)، وكيف صار الجسد مستعبدًا لإفرازات الجسد، وحركات الطبيعة البيولوجية التي خلقها الله، وتفنن فقهاء العصر الوسيط (لا سيما في المصادر العربية) بكل ما يمكن نقله دون تمييز عن يهودية اللاويين والتثنية، بل وعن الإسلام الذي له وجهة نظر واعتقاد خاص به عن الإنسان (لا مجال له هنا)؛ لذلك صار التقديس الذي يؤخذ في سر الشكر تقديسًا مؤقتًا، فَقَدَ الهبة واللمسة الأبدية، وأصبح الإنسان يحتاج إلى الوضوء أو الاستحمام، وهو ما انعكس على قراءة لقاء الرب يسوع مع المرأة نازفة الدم الذي قال الرب نفسه بلسانه: "من لمسني" (متى 9: 20)، فبالرغم من أنه لم يكن لحادثة الشفاء هذه أية علاقة بالعشاء الرباني، إلَّا أنها في زمان الارتداد عن التعليم المسيحي، تصبح حادثةُ شفاءٍ لا علاقة لها بسر الشكر مثالًا لنجاسة المرأة الحائض، وبالتالي تبرر المنع من التناول.

إن ما حدث قبل كمال التدبير بالصلب والموت والقيامة والصعود وحلول الروح القدس لا يجب أن يُقتطع جزء منه لكي يبني عليه الفقهاء المتأسلمون ممارسةً تُنكر قداسة الانسان في يسوع المسيح، بل يجب علينا أن نرى العالم كله كمكان، تتجلى فيه رحمة وعظمة الله، وبالتالي لا يحجب القلب أو الفكر عن الله. هذه الثنائية الغنوصية الأصل، قد تجاوزها النسك المسيحي بالهذيذ أو الثاؤريا الأولى، وهي تأمل الكون الذي تغنَّى به سفر المزامير عن تسبيح

الخليقة لله واهب كل العطايا (مزمور 147 على سبيل المثال لا الحصر). فقول الترنيمة: "ما عاد منظرٌ فيها يحجبك عني"، وإن كان يبدو بريئًا ويعبِّر عن شوق حقيقي، ولكن تحت هذه البراءة تختفي الثنائية القديمة، فكل منظر في الكون ناطقٍ بمجد الله لا يُبعد الانسان عن الله، ولا عن محبة الله: "السموات تُخبر بعمل يديه .."، ولكن التحليل الدقيق لكلمات الترنيمة يؤكد لنا أن الانسان لا زال يعيش ثنائية الله والكون، أي أن الله غريبٌ عن الكون، وأن الإنسان يجب أن ينكر ويجحد الكون. وكلمات هذه الترنيمة، مثل كلمات ترنيمة أخرى، أقدم:

"فكل منظر ها هنا فيه الشقاء والعناء"،

في حين أن كل منظر هنا -مهما كان- يؤكد لنا الحضور الإلهي الدائم ليسوع المسيح.

المحبة الإلهية التي يسكبها الروح القدس (رو ٥: ٥).

عندما يقول رسول الرب: "إن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس الذي أُعطي لنا -وهي كلمات غابت في زمانٍ أنكر فيه البعض سكنى الروح القدس وحذفوا فيه عن جهل عبارة رسول الرب: "أنتم هياكل الله وروح الله ساكن فيكم" (١ كو ٦: ١٦)- فقد تحوَّلت حركة السعي لمحبة الإنسان لله، إلى حركة إنسانية لم تنل قوة النعمة، ولم نعد نسمع عن آهات وشفاعة الروح القدس (رو ٨: ٢٦)، غاب هذا كله تحت وطأة الخلاص بالانهماك في التسبيح الذي يدخلنا في تقوى مزيفة؛ لأنها تبحث عن الله بينما الله هو الذي يبحث عنا.

إن أشواق الإنسان إلى المسيح بدون صلب الأهواء، وبدون هبة الحياة الأبدية، تقود إلى فراغٍ وعدم؛ لأن انكار الذات تحوَّلَ من لمسة النعمة فينا إلى Self – Negation بينما لا يمكن إنكار الذات إلاَّ بالذات، فلابد من وجود الذات "أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" (غلا ٢: ٢٠)، وهذه ليست Self – Negation

بل هي إنكار الذات كوحدة Unite وكيان entity مستقل عن الرب، لا التقوى المزيَّفة التي دخلت مع التشديد على صوم الجسد وحده، دون صوم القلب، وإفراز أطعمة وساعات الانقطاع والتي تحولت إلى "أعمال الشريعة" التي لا تقدِّم الإنسان إلى الله؛ لأن الله هو الذي جاء إلينا (راجع غلاطية، الاصحاح الثاني كله)، وعندما يخرج الإنسان عن كيانه، فهو لا يصل إلى شيء، بل يقع في حفرة العدم.

ونقول:

اعذرني سيدي العالم الجليل، لوضع طرحك بالنص..فأنا تعودت احترام الكلمة..وعدم أخذ الكلام كما أفهمه، بل كما تقوله أنت..كما أعتذر للمتابع لهذا التطويل، فلا بد منه.

عندما أقول أنني عندما أرى الكون وما فيه بالمسيح نوري وعيني، فلا يصبح المنظر حجابا لي عن رؤية صانعه وباريه.. أي يصبح الكون مجلى ومعلن لمجد الله، ولا يكون حاجز أو حاجب لعيني...أأكون بهذا أعيش ثنائية الكون والله..بل وأجحد الكون !!

كيف لعين ترى جوهر الأشياء في الله دون أن يكون المنظر (حاجزا) لأنها ترى الكون بعين الخالق وب نوره أن تحيا ما تدعيه عني يا سيدي الفاضل..ألا ترى أنك بالغت قليلا..ربما دون أن تقصد..ولعدم إعمال الدقة في فحصك للنص.

نعم يا سيدي.. فأنا أؤكد في النص على الحضور الإلهي في الكون، لأنني أراه بعين الخالق، وأرى مجده وتجليه في صنعة يديه.. وإلا كنت قد قلت: "أغمضت عيني عن الكون لأراك، أو لكي لا يحجبك عني" !! ولكنني أصر أن "أبصر الكون به فهو نوري وعيني"..

أأمل في المحبة أن تراجع المقولة المطولة التي أسقطتها على النص، وهي

لا تمت بصلة له.. واصبر قليلا سيدي أمام الكلمات ربما رأيت فيها.. ما فيها.. لا ما فيك.. وما قلت أنني أراه بسيدي نوري وعيني.. لا ما رأته عينك سيدي جورج العظيم.

قلت:

يا من تميتني عني وفيك تحييني
كل ما في الكون حلمٌ أنت اليقظة فيه

والشطر الأول يُبعد الوعي عن التجسد، فالمسيح لم يكن أمنية، ولكن الشطر الثاني صحيح؛ لأن المسيح أحيا الإنسان فيه، وكان من الضروري التشديد على الصلب والقيامة: "أقامنا معه – أجلسنا معه في السماويات". يا ليتنا نرتل كلمات رسول الرب ونترك العموميات التي تقتل الوعي والإدراك بخصوصية الإيمان المسيحي ورسالته.

وأقول:

أولا: أشكر الله على غيرتك المقدسة في التشديد على الصلب والقيامة وانجيل الايمان المسيحي الحق.. وأظن – وأرجو ان تحتمل غباوتي قليلا- أنني أوفر منك في هذا.. حيث وضعت هذا في ملايين الكلمات الملحنة، لترددها آلاف الأفواه الناطقة بالعربية.. ولا مزايدة في هذا على عطاء النعمة الخاص به لدينا..

وبعد رحيلنا (أنا وأنت) سيذكر شعب المسيح، ويردد طويلا ما أودعته من نصوص تعبدية في هذا.. وهذا الحوار كله، وما على شاكلته من سجال فكري... سيطويه النسيان.

ولكن المصنف (الشعري) هنا تحديدًا.. وهو صيغة أدبية من "مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" يرقى بفعل الإماته حين يعلن: أن دوري في قبول حمل الصليب، يحتاج لدور رئيس الكهنة ومقدم الذبيحة.. ففعل البذل

يعود لي... وفعل الإماته له وحده.. وهو فعل إماته وإحياء في نفس الوقت "يميتني عني، ويحييني فيه" لأردد "لي الحياة هي المسيح".."آخر يحملك حيث لا تشاء.. قال هذا مشيرا إلى أية ميتة".. ونستطيع أن نقول أيضا أننا وإراديا بالطاعة والامتلاء بالروح القدس " بالروح تميتون أعمال الجسد.. فتحيون". أما الموت عن الذات.. فهو " مع المسيح صلبت -الفاعل مبني للمجهول في الجملة والمعروف إنجيليا- فأحيا لا أنا..."

وعندما أقول: " كل ما في الكون حلما، أنت اليقظة فيه" لا يعني هذا أن المسيح أمنية كما تفضلت وأولت النص...

إنما يعني هذا أن الحياة الحقة تبدأ بيقظة القلب في المسيح.. ليصبح هذا العالم والغربة فيه وكأنه (فترة حلم جميل كان أم قاسٍ).. فالقلب الذي عرف الله اليقظة الحقة.. عاش الحياة الحقة الأبدية وهو هنا عالما بقصر وزوال الحياة الحاضرة...كحلم.

وقلت:

أما نهاية الترنيمة فهو غريب جدًا.

هوَّنت لي هنا الغربة بوجهك الباقي

وهكذا سقط الاتحاد بالرب يسوع، أي بمن قال أنا هو القيامة

ثم

وإن تعثرت بها حرَّكت أشواقي

ولكن الشوق لا يعيد الإنسان إلى المسيح، بل المسيح هو الذي يعيد الإنسان إلى المسيح بالروح القدس.

أقول لمن يلصق بي تهمة التعصب أو الطائفية، إن المسيحية الأرثوذكسية ليست طائفة، بل هي الامتداد التاريخي لِما أسَّسه الربُّ والرسل وثبَّته الآباء.

إنها كنيسة المسيح في ديار مصر، وتقواها ليست مزيَّفةً، بل تراها في التسابيح القبطية بالذات، تُعيد الإنسان إلى الثالوث، إلى الاتحاد الأقنومي، إلى الأسرار، إلى الكنيسة الجامعة (المجمع الكبير في صلاة نصف الليل)، وتغرسنا في تاريخٍ حي، وشهود وشهداء سلَّموا لنا الإيمان.

ولنا لقاء آخر مع التقوى المزيفة.

ونقول:

هل حينما أقول: أن ما يهون الغربة عليّ هو وجه الله الباقي (والذي أعلنت في نفس النص أنه هو سكني ومسيري.. أكون قد أسقطت الاتحاد بالرب يسوع!!..

أو ليس حضور الله بوجهه في حياتي الحاضرة، وأنا مستوطن فيه كسكن "في المسيح" وسائر فيه "الطريق" هو الذي يمنحني القوة اللازمة للانتصار على صعوبات الغربة وجعلها هينة؟!

وهل مع قولي: "تحييني فيك". أكون قد أنكرت فعل القيامة؟!

وهل حينما أقول: "وإن تعثرت بها حركت أشواقي" أكون قد أنكرت فعل المسيح فيا بالنعمة ليحركني إليه..؟!

من هو الذي يشوقنا إليه؟. "تحت شجرة التفاح شوقتك لنفسي"

من هو الذي يحرك قلوبنا إليه رجوعا"...

أو ليس للرجوع خطوات تبدأ بالصغير منها وهو تشويق المسيح فينا بالروح إليه.. ثم بالقرار ثم بالتحرك الفعلي ثم..إلخ؟

من قال في النص، أن الشوق يعيدني إليه؟ ألم أقل أنه المحرك لكل الأفعال بدءا من الشوق وحتى الإخلاء والاتحاد..؟!

إن ما قلته حضرتك أن المسيح بالروح هو الذي يحركني.. هو ما ورد في الترنيمة.. الممتلئة بالفعل الالهي:

يميتني.. يحييني.. ينيرني فأبصر به.. يخليني بأن يملأني بما يمجده وحده. يسكنني به.. يصبح مسيري... يهون لي الغربة.. ويحرك قلبي لأشتاق للأبديات وأن مغترب في الأرض..

أخيرًا:

أشكر محبتكم وأسلوبكم الراقي في عرض الفكر وتناوله.. وسعة صدركم في تحمل غبائي.. جعلكم الله نورًا يجمع ولا يفرق.. ويظهر ولا يخفي.. ويتناول الفكر دائما بهذه الروح الإنجيلية.

سعدت وشرفت بالنزال.. بقدر ما توجعت لما فيه من طعن وتجريح يخص للتقوى وما إليها.. ولكن هذا لا يعول عليه كثيرًا.. فأنا أعرف دوافعكم وقلبكم النقي.. ولن أقع في فخ تناول مقالكم بالإنفصال عن تاريخكم الفكري المشرف في مجال التنوير الروحي... كما فعلتم بدون قصد.. حين تناولتم ترنيمة واحدة من آلاف الترنيمات، وتاريخ من إعلان الحق في العبادة.

من خلال برامج الخبز اليومي على مدار ١٠ سنوات، لم نبعد فيها عن تقديم للإنجيل

وبرنامج استنارة للتلمذة الروحية:

https://m.youtube.com/results?q= sm=3

دمتم لنا د. جورج.. قدوة ومثالا في المسيح يسوع.

تحياتي:

ماهر فايز/ الكاروز

عنه أدمن الصفحة. ٢٥ يوليو ٢٠١٤

تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (٢)[١]

أثلج صدري الشرح والدفاع الذي قدَّمه الأخ ماهر فايز، لما امتاز به من أدب مسيحي جم، وصدق وشجاعة. وقبل أي شيء آخر، لم يكن لا العنوان، ولا السطور التي جاءت تحت هذا العنوان تمس كاتب الترنيمة من قريبٍ أو بعيد، بل هي تتصدى في الأساس لما تزرعه الكلمات في الوعي والإدراك الإنساني الذي لا يمكن أن يقدِّم بالمرة، وينمو ذلك النمو الذي وصفه رسول الرب بأنه «من الله» (كولوسي ٢: ١٩)، إلَّا بثلاث حقائق هي من ثوابت الإيمان المسيحي:

الأولى: الانتقال من العموميات إلى ما هو خاص. وعلى سبيل المثال، سمعت هذه الترنيمة في كنيسة عربية هنا في انديانا، تقول كلماتها:

دم يسوع غالي وثمين

دم تشهد له الملايين

وسئلتُ الحاضرين، ما هو المقصود بالضبط، وما علاقة ذلك بالتحديد الكتابي نفسه عن دم يسوع، وما معنى "دم يسوع ابنه يطهرنا من كل خطية"؟ ولم أسمع ردًا مسيحيًّا كتابيًّا؛ لأن ما يقال في هذا الصدد هو كلامٌ عامٌ بلا تخصيص يفتقر إلى الوضوح وإلى الهدف. غياب الوضوح وغياب الهدف يزعج ضمير أي إنسان مسيحي؛ لأن الدم = الحياة، ولأن الدم هو ما قُدِّمَ لنا وللآب، قُدِّمَ لنا "ذبحًا" كتعبيرٍ عن الحب اللانهائي، وللآب لكي يقدِّس ويخصص الإنسانية إلى ميراث الملكوت. ولم يكن الدم "ثمنًا" دفعه الابن للآب، هذا تجديفٌ لا يليق.

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية ولأرثوذكسية في ٢٥ يوليو ٢٠١٤.

الثانية: الوعي الإنساني لا يتقدم ولا ينمو إذا كان يسير في طريق العموميات، ويتحرك حسب ما تقدمه العموميات. وعلى سبيل المثال، درجنا على استخدام كلمة "عبادة"، وهي كلمة خاصة باليهودية والإسلام، في حين أنه لا عبادة في المسيحية، وإنما حسب العهد الجديد اليوناني - القبطي، لدينا كلمة "خدمة". حاول أن تسأل الفريق الذي يخدم معك يا سيدي العزيز: هل يخدمنا الثالوث في الابن والروح القدس، أم أننا نحن الذين نخدم الثالوث؟ وسوف أترك لك مجال الرد؛ لأن البحث الرائد الذي قمت به هنا في أمريكا عن ذات السؤال جاء بردودٍ غير مسيحية وغير متوقَّعة من كبرى الكنائس.

نحن لسنا "عبيدًا"، بل أبناء الآب الأحرار في يسوع. وعندما يصف رسول الرب نفسه بأنه "بولس عبد يسوع المسيح"، فهو يقصد أن الرب اقتناه كما يقتني السيد في المجتمع الروماني القديم العبدَ من "سوق النخاسة". وبالرغم من ذلك مازال التعليم بالعبودية سائدًا رغم أننا نُقلنا من العبودية إلى حريةٍ أبديةٍ في المسيح، وأترك لكم مراجعة الترانيم التي تصف هذه العبودية؛ لأن هذا هو حقل خدمتك الممتازة.

ومرةً ثانية، أنا لا أقصد شخصًا معينًا، لا أنت أخي الكريم ولا غيرك. حاشا لي من قِبل الرب يسوع أن أُصدر حكمًا على إنسان حتى ولو كان غير مسيحي.

الثالثة: لعلك تعرف ترنيمة "يا سائح للقاء يسوع"، والأخرى "يا من بحضوره نفسي تطيب". مثل هذه الكلمات هي من العموميات التي تصيب الحياة الروحية بالضعف. أساس التسبيح هو الاتحاد بالآب بقوة الروح القدس. ولذلك، فإن الضعف الروحي الحادث عندنا له مكونات لا بُد سبق لك أن رصدتها، وهي بالتحديد:

- اعتبار يسوع فكرة في العقل، مثل ما يقال عن الدم، وبالتالي التنازل عن

يسوع الشخص أو الأقنوم. هنا تصبح العلاقة نفسانية عقلية تقع تحت سيطرة الفكر، تذهب هذه العلاقة وتجيء مع الفكر ومع الشعور؛ لأنها تفتقر إلى الأساس الأبدي، أي اتحاد الرب بنا اتحادًا أبديًا أصبح مهجورًا في زماننا يُمسُّ من بعيد.

- تحول يسوع إلى كائن آخر خارج إطار الحياة اليومية، فهو لا يشارك الأجساد والأرواح. هو في السماء، وعندما أسمع عبارة طلب الغفران على "حساب الدم الكريم"، أجد نفسي أمام أكبر مشكلة، وهي بالتحديد افتقار الخطاة إلى ينبوع الحياة الأبدية الكائن فيهم في يسوع؛ لأن التعليم بانفصال الخطاة عن الرب هو تعليمٌ شائعٌ هدم وأضعف الحياة المسيحية.

ما هي التقوى المزيَّفة التي تفتقر إلى الأساس اللاهوتي؟

أنا لا أطعن في تقواك الشخصية، لأن هذا موضوعٌ لا يخصني، وإنما يقع في إطار علاقتك الشخصية بالرب يسوع، وبالتالي ليس لي أن أحكم فيه على الإطلاق. وللمرة الثالثة أنا لست أقصدك، بل أقصد ما زرعته الترانيم -بشكلٍ عام- من تيار شعبي يفتقر إلى الأصالة وإلى العودة إلى الثوابت.

طبعًا لديكم ترانيم جيدة عن تجسد الرب والصلب والقيامة والروح القدس، والثالوث (رغم ندرة ما لدينا من ترانيم عن المحبة الثالوثية)، ولكني أتصدى هنا للعموميات التي تزيِّف الحياة، وهي بالتحديد، تجعل الحياة تبدو مسيحية وهي ليست كذلك؛ لأن كل ترنيمة مهما كان كاتبها، ومهما كان انتماؤه الكنسي (وهذا لا يخصني)، لا تضع كلماتها خصوصية المسيحية في اعتبارها، لا بُد وأن تزيِّف الحياة.

- الكلمات التي تحول العلاقة بين المؤمن والمسيح إلى وصفٍ خارجي للمسيح لا يصل بعد الوصف العام إلى ما يعطى دائمًا من الرب، تصبح كمن

يصف مباراة كرة قدم، يمدح فريقها ولا يجيد اللعبة نفسها، ويكتفي بالمشاهدة. أعتقد أن هذا واضح. لكن وصف الرب بكل ما لدينا من أوصاف، إذا لم ينقل الوعي إلى ما نناله من الرب، عندئذٍ نسقط في فراغ روحي، لا يهم هنا مصدر الترنيمة أو حتى تاريخها؛ لأن القِدَم لا يعني الأصالة.

- وعندما نصف دون أن نشترك، أو عندما يقتصر الوصف على الصلب والمصلوب وحذف القيامة، فإن ذلك يجعل الصلب والمصلوب يفتقد إلى العمق الأبدي الخالد والانتصار على الموت وإبادة الشيطان، الذي تحول في السنوات الأخيرة إلى قوة مساوية للمسيح يخاف منها الناس.

هذا هو التزييف الذي أقصده.

وثمة مسألة أخرى ذات دلالة هامة، ألا وهي أن كلَّ كلامٍ عامٍ عن الله، لا يجب أن يقال عندنا مهما كان الانتماء الكنسي؛ لأن "الله" قضية عامة عند اليهود والمسلمين. "الله" عندنا هو الآب أبو ربنا يسوع المسيح. نحن نعيش في زمنٍ اختلفت فيه الأمور، وقد عاتبت الأنبا شنودة الثالث -عندما كان مازال يسمعني- على تكرار استخدام عبارة "السيد المسيح"، وقلت له إن العبارة الصحيحة هي "الرب يسوع"؛ لأن كلمة "السيد" ليس لها مكان في اعترافٍ صحيح، والهربُ من عار الشهادة عيبٌ كبير، ولكن الخوف واعتباراتٍ أخرى -أنت تعرفها- لازالت تحكم الكلام عن "السيد المسيح"، وليس "الرب يسوع".

أنا لا أقصدك بالمرة، وإنما هذه هي الحالة العامة التي عندنا والتي يجب أن نتجاوزها.

العواطف الإنسانية العامة لا تكفي

يا ليت كان لديَّ ذات المواهب التي لديك في الكتابة والموسيقى والصوت العذب. إن تسبيح حقائق الأبد التي جاءت إلينا في يسوع رب المجد، ليست عواطف تذهب وتجيء، بل هو الإيمان بما فيه من إرادة توصَف في اللاهوت الشرقي بأنها "تتألَّه"، أي تنال الثبات الإلهي والدعم بالنعمة. الشوق إلى الله هو شوقٌ طبيعي، وقديمًا قال العلَّامة ترتليان: "إن النفس الإنسانية مسيحيةٌ لأنها خُلِقت على صورة الله، فهي مدعوةٌ لأن تفهم حقيقة خلقها على صورة الله". لكن -يا أخي الكريم- تحريك العواطف والانفعالات يقود إلى فراغ روحي لا يصل إليه "العابدون". وعلى سبيل المثال لا الحصر، كم مرة سمعنا مزمور ٢٣ "الرب راعيَّ"؟ المزمور كُتِبَ تحت روح العهد القديم، يفتقر إلى ما ورد في إنجيل يوحنا ص ١٠ عن الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف، ولذلك، العاطفة التي تقول:

راعيَّ العظيم نفسي تتبعك
ما أجمل صوتك لي

هذه العاطفة، تنسى ذبح الإرادة الإلهية على الصليب، وتنسى بسبب صياغة الكلمات أن المذبوح يأتي إلينا دائمًا؛ لأن ذبح الإرادة صار قوة حياة بسبب القيامة، وهو ما توحي به الرسالة إلى العبرانيين.

إن حركة بحث الإنسان عن الله هي حركةٌ مضادةٌ للتجسد والصلب والقيامة وانسكاب الروح القدس. ولكن بحث الله الآب عن الإنسان، والسعي الدائم إليه هو التعليم المسيحي. تأمل معي -يا سيدي الكريم- هل وصل الإدراك عندنا إلى أن عبارة الذوكصا: "المجد للآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين. آمين"، لا يمكن أن يكون المقصود منها تمجيد الثالوث فقط، بل نحن ننطق بالمجد لأننا اشتركنا فيه؟ وعندما "يعترف كل

لسان بأن يسوع ربٌّ لمجد الله الآب"، فهذا لا يمكن فصله عن قول الرب: "المجد الذي أعطيتني قد أعطيتهم".

هل تصل بنا الترانيم المعاصرة إلى تأكيد أننا ننال نعمةً غير مخلوقة، نعمة إلهية، وأبدية، ودائمة، أم أننا حاصرنا الإنجيل في بشارة بعواطف سامية نبيلة فقط؟

لم أتهمك بأنك تعلِّم "بالفناء"، ولكن ترك أو التخلي أو نسيان القلب، أو أي تعبير آخر من هذا القبيل هو تعبير ينطوي على خطورة. فقد جاء المسيح رب الحياة لكي يجعلنا بشرًا بقلوب لحمية، وبقلوب تنال صراخ الروح: "أبَّا أيها الآب". واختلاط جحد الذات بتدمير وكراهية الذات، بل انعدام محبة الإنسان لنفسه هو تعليمٌ شائعٌ مدمِر؛ لأن الوصية العظمى الثانية تقول: "حب قريبك كنفسك"، وهكذا صارت محبة الإنسان لنفسه في المصلوب، وفي المصلوب وحده هي المحبة الحقيقية، وهي ليست كراهية النفس أو الذات كما تعلَم.

أتمنى أن تكون رسالتي قد وصلت؛ لأن التيار الشعبي العام يجب أن يتوقف، وأن تصبح خصوصية المسيحية، ونقل الوعي إلى الاتحاد بالرب يسوع هو هدف ما نسميه "العبادة".

أكرر شكري على أسلوبك النقي، وأرجو أن نستمر في الحوار، والمحبة غالبة لكل ما لدينا لأنها انتصرت على كل أشكال العداوة في يسوع المسيح ربنا الذي فيه أُرسل لك تحية الاحترام والمحبة الأبدية.

تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (٣)[١]

غياب البُعد الكنسي

صار الحوارُ ضرورةً لحياتنا التي تعقَّدت فيها الأمور، واختلطت فيها الحقائق مع أنصاف الحقائق. صار كل شيءٍ مستباحًا على شبكة المعلومات، حتى الحياة الشخصية التي يُضاف إليها الأكاذيب، ويحشد الشيطان الأقلام المأجورة، لا لكي ننفق على العشوائيات، وعلى الذين فقدوا كل ما يملكون من حطام الدنيا، بل لفتح معارك جانبية تصرف الأنظار عن المعاناة الحقيقية.

أثلج صدري تعليق الأخ سوستانيس -ولعله يواصل الكتابة لِما عُرِف عنه من حدة في البصر ودقة في التعبير- وما ورد فيه عن التمييز بين الغناء والتسبيح.

وطرح الأخ سوستانيس، مع غيره، سؤالًا عما يتداوله البعض على شبكة المعلومات الدولية عن العلاقة الحقيقية بين الأب متى المسكين، ود. سامح موريس، والأخ ماهر فايز. والإجابة ليست غامضة ولا مستحيلة، ليفهم القارئ:

- القمص متى المسكين راهب قبطي عاش في الكنيسة، وخدم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، تعرَّض للتشريد والحرمان والتجريد لمدة ١٢ سنة، ولكنه لم يترك الكنيسة مثل غيره كالأنبا إيسيذوروس مؤلف الخريدة النفيسة وإصدارات أخرى، ولا كالقمص مرقس سرجيوس الذي مات مجردًا من الكهنوت.

- د. سامح موريس كان معنا في اجتماع شباب مار جرجس، مصر الجديدة، واشتبك معي ذات مرة في حوارٍ عنيف، ثم اختفى بعد ذلك من حياة الكنيسة

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٣ أغسطس ٢٠١٤.

القبطية ليظهر بعد ذلك في كنيسة قصر الدوبارة.

- أما الأخ ماهر فايز، فلا أعرف عنه إلَّا القليل، ولكنه في رده على المقال الأول من هذه السلسلة، ذكر ما لديه من ثوابت المسيحية: الثالوث - تجسد الرب - الصلب - القيامة - الروح القدس ... إلخ.

العموميات القاتلة للحياة الروحية

أول هذه العموميات هو أن القمص متى المسكين كان راهبًا قبطيًا ومدبرًا لعددٍ كبير من الرهبان والراهبات. رَبَطَ التراث الآبائي الأرثوذكسي بالتراث العالمي المسيحي الذي تخلص من إبداعات المذاهب، وعاد ليدرس الكتاب المقدس بكل ما وصلت إليه دراسات التاريخ واللغات القديمة، فترك كل ما جاءت به حركة الإصلاح الأوربي، وكوَّن أفضل حالة اقتراب من التعليم اللاهوتي القديم، وكمثالٍ على ذلك، يكفي هنا أن نشير إلى المجلدات الثلاثة لأكبر لاهوتي إنجيلي، وهو الأستاذ السابق Thomas Oden وصدرت باسم Systematic Theology عاد فيها إلى التقسيم القديم عن الآب والابن والروح القدس، وحشد فيها من التراث الشرقي والغربي معًا كل ما يهدم مقولات وتعليم القرن ١٦ – ١٨ في الغرب.

إن حشد العموميات يقتل الحياة الروحية المسيحية، وهي هنا بكل أمانة ودقة تظهر لمن لديه الأمانة، إذ يصاب التعليم بالغموض، ولاحظ:

١- تعد العموميات مصدرًا للنزعة الفردية؛ لأن الغناء، وهو "السماع" عند الصوفية الإسلامية، هو حالات الوجد والعشق التي تصل فيها النفس إلى ما وصل إليه ابن الفارض الذي مات جوعًا لأنه صام حتى يرى الله ويتَّحد به بقواه الإنسانية فقط. أو هو صرخة الحلاج الذي قال:

عجبتُ منك ومني — يا منية المتمني
أدنيتني منك حتى — ظننت أنك أني

أو

اقتلوني يا ثقاتي — إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي — وحياتي في مماتي
إن عندي محو ذاتي — من أجلِّ المكرمات
وبقائي في صفائي — من قبيح السيئات

أو

طلعت شمسُ من أُحبُّ بليلٍ — فاستنارت فما عليها من غروب
إن شمس النهار تطلع بالليل — وشمس القلوب ليس تغيب

ذلك الوجد والشوق العام، هو برئٌ تمامًا، ولكنه رغم الهروب من الذات، هو ذاته تحصُّنُ الذاتِ في الهروب، والظن بأن الله هو الكيان الإنساني الذي وصل إليه الصوفي، هو الذي أشار إليه أستاذنا د. عبد الرحمن بدوي في دراسة جيدة جدًا بعنوان شطحات الصوفية، وجمع هذه كلها د. شريبة من علماء الأزهر في كتابه "طبقات الصوفية".

العموميات تتجاهل الانتماء الجسدي -العضوية في جسد المسيح الواحد- الكنيسة، وأرجو أن يتفضل د. سامح موريس، والأخ ماهر فايز بأن يقولا لنا شيئًا عن الكنيسة.

وفي الحقيقة، إن اجتماعات الإنشاد والعزف، وما يُسمى بالتسبيح، ليست اجتماعات كنسية؛ لأنه حيث لا توجد مائدة الرب، فالكلام لا يخرج عن تيار الصوفية المتمثل في انغلاق الفرد على فردانيته وعشقه للارتباط العاطفي والفكري، وضياع الوحدة مع جسد المسيح مصدر الحياة الكيانية الحقيقية؛ لأن تلك الحياة الحقيقية هي بعينها جسد المسيح.

لم نسمع من كل الأخوة الإنجيليين طوال ٥٠ عامًا شيئًا عن وجود القديسين في الاجتماعات، فهؤلاء عند أغلب الوعاظ والخدام الإنجيليين "موتى". أين الملائكة والقديسة مريم والآباء الشهداء من الرسل والمعترفين والنساك وغيرهم؟

يكفي أن أسماء الكنائس هي قصر الدوبارة - الملك الصالح - كنيسة المنيا الأولى ... وغيرها من أسماءٍ بلا أساس كنسي؛ لأن الأساس الذي وضعه المسيح رب ورأس الجسد لا يغيب في غياهب تاريخٍ قديم. ولذلك طلبت من د. أندريا ذكي أن يُعيد إصدار مؤلفات الأديب الكبير القس لبيب مشرقي في مجموعة الأعمال الكاملة. وأرجو أن يسأل الأخوة عن إبراهيم سعيد - توفيق جيد - لبيب مشرقي - فهيم عزيز، أين هم؟ هؤلاء موتى لأنهم بلا وجود حقيقي إلَّا في ذاكرة أجيالٍ لم تعد تتذكر أمثالهم؛ لأن النزعة الفردية فصلت بين الفرد والجماعة، وماتت وحدة الجسد الواحد.

٢- يقول الأخ ماهر فايز إن لديه ترانيم عن الثالوث. هذا جيد وحسن، ولكن السؤال الحقيقي يا سيدي الكريم:

- أين ترتل هذه التراتيل؟

- ما هي المناسبة التي ترتل فيها؟

يبدأ القداس القبطي باستعلان الثالوث: "مجدًا وإكرامًا إكرامًا ومجدًا للثالوث القدوس ....". ويحمل القس خبز الإفخارستيا أو القربانة؛ لأن الثالوث لا يستعلَن في تسبيحٍ يخلو من الإفخارستيا. وإذا رتَّلنا للثالوث خارج القداس الإلهي، فهذا انفرادٌ وخروجٌ على دائرة السر المعلَن في يسوع الذي به يجمعنا في وحدة إلهية إنسانية هي جسده المقدس الكنيسة، ومعنا كل السابقين علينا شهودٌ على الفداء والخلاص، وعلى الشركة التي نالوها في الحياة الإلهية.

ومناسبةُ الترتيل هي يوم الرب، هي يوم العبور، أو الفصح. عبورٌ من الموت إلى الحياة، وهي دخول أرض الموعد، أي الكنيسة، بعد عبور الأردن -المعمودية المقدسة- ونوال مسحة الروح القدس. إنه تسبيح العشية ونصف الليل وباكر والقداس الذي به يُستعلَن اتحاد الرأس بالأعضاء في سر الشكر.

٣- عندما يكتب واحد من عاشقي د. سامح موريس أنه يعلِّم بتعليم الأب متى المسكين، ويقول إن د. سامح يؤكِّد أن العشاء الرباني هو جسد حقيقي، فليس هذا إلَّا خداعًا للسُّذج من الأرثوذكس الذين هجروا الكنيسة إلى هذه الاجتماعات لأسباب كثيرة يصعب على القلم والقلب معًا أن يذكرها.

فهل يكفي أن نقول عن العشاء الرباني إنه جسد حقيقي دون تعليم حقيقي عن الكنيسة؟ سؤالٌ ضروريٌ؛ لأن الجسد الحقيقي هو الذي يجمع مريم أُم الرب ومار جرجس والملاك ميخائيل وكل الشعب الواقف؛ لأن الرأس الذي وحَّد السماء والأرض معًا تحت رأس واحد هو يسوع "الذي فيه سُرَّ أن يحل كل الملء"، ثم يجيء بعدها مباشرةً: "وأن يصالح به (بهذا الملء) الكل لأقنومه (لنفسه) عاملًا الصلح بدم صليبه سواء كان ما على الأرض أم ما في السماء، وأنتم قد صالحكم الآب في جسم بشريته (إنسانيته) ليحضركم قديسين وبلا لوم ولا شكوى أمامه"، ثم لاحظ "إن ثبتم على الإيمان متأسِّسين وراسخين وغير منتقلين عن رجاء الإنجيل ... الذي أفرح الآن في الآمي لأجلكم وأكمل نقائص شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة" (كو ١: ١٩ - ٢٤).

هكذا صاغ رسول المسيح الخلاص الكوني: أساسه تجسد الرب - المصالحة في الصليب، ودم الصليب هو بذل الحياة الذي أعادنا إلى جسم إنسانيته، وهو جسده، أي الكنيسة، فلا ثنائية بين الرأس والجسد؛ لأن هذه الثنائية دخلت تدريجيًا مع صعود البابا إلى رئاسة الجسد في روما، ودخلت الفكرة عندنا في

زمن الأنبا شنودة الثالث فقط، وتحوَّل الجسد الواحد إلى رئاسة ومرؤوسين، وإن كانت حياة القديسين الذين سبقونا تظل تشهد بغير ذلك.

٤- والعموميات جعلت "حساب دم المسيح" موضوعًا خارجيًا بين الإنسان والآب - مع غياب الروح القدس. لكن دم المسيح يُعطى بالروح القدس في سر الشكر، فلا يكفي أن يرتِّل الإنسان لدم المسيح أو للروح القدس بدون إفخارستيا؛ لأن هذا يُدخلنا في متاهات الحياة الفكرية، وفي "الذِّكر"، أي عمل الذاكرة الدائم الذي يشغل حياة الصوفيين. أمَّا التذكُّر في الأرثوذكسية، فهو استنارة الفكر والإرادة، وإعادة الإنسان إلى الشركة في الحياة الإلهية بالمسيح وفي الروح القدس.

ماذا يعني غياب التعليم عن الكنيسة؟

نتساءل عن كنه الجماعة التي ينضم إليها الذين يسمعون الغناء أو التسبيح خارج الإفخارستيا؟

لقد حدث انقضاضٌ على تاريخ الكنيسة وشهادتها عبر التاريخ تحت اسم شفاعة المسيح وحدها، وكأن شفاعة الروح القدس غير موجودة، وغير مطروحة في التعليم (رو ٨: ٢٧)، مع أن الوسيط والشفيع الذي يُقدمنا للمسيح الرب هو الروح القدس.

جيدٌ أن يكون لدينا تراتيل عن القيامة، ولكن القيامة انفصلت عن الإفخارستيا في تراث حركة الإصلاح والكنائس الإنجيلية كلها، ولم يعد للقيامة مكانٌ في وحدة جسد المسيح؛ لأن أعضاء جسد المسيح ليست أعضاء ماتت، بل هي حيَّة وتسري فيها ذات الحياة الواحدة التي تسري في مريم والدة الإله، وفي كل الذين في "كورة الأحياء إلى الأبد"، وفي كل الذين على الأرض، حياة واحدة لجسد واحد هو جسد المسيح.

الانفصال عن الكنيسة هو العنوان الواضح لما يحدث في اجتماعات الوعظ والترتيل؛ لأن هذه الاجتماعات تغذِّي الاتجاه الفردي، وتخلق جماعات تلتف حول شخص معين غير شخص المسيح، وبالتالي لا وجود بالمرة لشهادة وقدوة القديسين ولا يوجد حتى الانتماء إلى الجسد الواحد.

إن أكثر ما يضايقني هو الكلام العام عما يسمى بـ «تعليم القمص متى المسكين». ما هو هذا التعليم؟ وما هي مكوناته؟ وإلى أي درجة يتفق القمص متى مع ثوابت المذهب الإنجيلي؟ ألا يُعدُّ ذلك خداعًا للأرثوذكس، يمارَس بقصد حشد الاتباع، بل وتعميق تكوين جماعات لا تنتمي إلى الكنيسة، بل إلى القمص متى، وهو ما لم يخطر على قلب الأب متى بالمرة، خصوصًا وهو ليس له تعليمٌ غير التسليم الكنسي الذي يعرفه رهبان ديره ويعرفه كل أرثوذكسي؟!

- إن كل من يُعلِّم، ويكوِّن جماعات تجد لذةً في الكلمات والموسيقى، فهو مؤسِّسٌ لحركاتٍ انفصالية، أينما ذهب، فهو يمزِّق وحدة جسد الرب. لا يهم ماذا يقال من كلمات، ولا حتى أصلها التاريخي، فطالما خرجت عن الاجتماع الإفخارستي، فهي فاقدة للشرعية، وفاقدة لقبول عطية الحياة الأبدية، التي لا تُعطى بالإيمان وحده؛ لأن الإيمان -تخصيصًا- هو قبول جسد ودم عمانوئيل: "يعطى عنّا خلاصًا وغفرانًا للخطايا وحياةً أبديةً"، وذلك كما تعلِن كل قداسات الكنائس الأرثوذكسية: القبط - الأرمن - السريان - الأحباش - الروم.

- استمعت إلى ما أشار إليه الأخ ماهر فايز. وفي الحقيقة، الحكم ليس على جودة وأصالة ما يقال، بما فيها من مقاطع من القداس الغريغوري، بل فيما يعنيه التسبيح خارج الليتورجية. فبكل أمانةٍ وصراحةٍ، هذا ما ينطبق عليه ما قيل في المزمور: "كيف نسبِّح الرب في أرضٍ غريبة"؟ كيف نسبح الثالوث دون قبول الإفخارستيا، وبدون استدعاء الروح القدس؟

لا يهم الجمع الغفير، ولا عذوبة الصوت؛ لأن هذا رغم أنه نعمة من الله، إلَّا أنه يصبُّ بعيدًا عن الجسد الواحد، جسد يسوع.

ويبقى غياب الانتماء السمائي الذي أشار إليه رسول الرب في كولوسي ١: ١٩ وما بعده، المصالحة مع السمائيين. فنحن نرتل مع الشاروبيم والسيرافيم؛ لأن شجرة الحياة، جسد الرب ودمه تُعطى لنا، ولأننا منذ أن نولد في مياه المعمودية، ننال خدمة الأرواح الخادمة المرسلَة للذين يرثون الخلاص (عب ١: ١٤). وبالطبع، ضاع هذا ضمن ما ضاع؛ لأن المسيح رأس الكنيسة، يجمع أعضاء جسده في الخدمة الإلهية موزِّعًا على الكل جسده ودمه. وغياب الملائكة والحراسة الملائكية يقطع تلك الوحدة تحت الرأس الواحد؛ لأن الذين لا يطلبون هذا في الصلوات وفي الاجتماعات، هم عن قصدٍ وعن جهلٍ أيضًا تركوا المصالحة الأبدية التي جاء بها الرب نفسه، والتي أسَّسها، ودعَّمها بالروح القدس، وهو ما يؤكده القديس باسيليوس في كتاب الروح القدس على أنه التسليم الكنسي الذي يعود إلى الآباء الرسل.

لا أريد هنا أن أدخل في الفرق بين الغناء والتسبيح، هذا متروكٌ لمن درس هذا الموضوع. ولكن لم تسمح الكنيسة بالآت العزف، رغم أنها كانت في خدمة العهد القديم؛ لأن الانتباه ليس موجَّها للعزف، ولا للصوت الملائكي، بل لاستعلان الشركة الأبدية التي توهَب من الآب في الابن بالروح القدس. وهذه لا تحتاج إلى هذا الطوفان من التراتيل، بل تحتاج إلى الثبات الذي تؤكده الصلوات؛ لأن التكرار الدائم يخلق الانتباه، ويحارب طياشة الأفكار، وينقل الإنسان من الطرب والوجد والعشق ... إلخ إلى عطية الله التي لا تعبِّر عنها الكلمات، بل تعطى باستنارة الروح القدس. وعندما يُشرق الروح القدس في قلب الإنسان، يتوقف الفكر، ويترك الكلمات، ليدخل المجال المستيكي، وهو الاتحاد بالمسيح.

إن اتحادنا بالمسيح هو الذي يجعل اتحادنا بالكنيسة حقيقة ثابتة وأبدية.

أخيرًا:

وبدون أية حساسية، الإيمان بالإله المتجسد هو حقيقة تعاش في جسده الحي، الكنيسة. لأن ربُّ المجد لم يأتِ لكي يكوِّن أحزابًا وشيعًا وجماعاتٍ، بل لكي يجمع في جسده الواحد السمائيين والأرضيين، ولكي يؤسِّس شركة أبدية؛ ولذلك حرص قانون الإيمان على وضع الإيمان بالكنيسة الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية، تلك التي هي الامتداد الحقيقي لتجسد الرب، ومُلكِه على الأرض في حياة القديسين.

تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (٤)[١]

الكلمة والسرائر

كنتُ أُدرِّس تاريخ العبادة المسيحية في القرون الأولى في جامعات بريطانيا، نوتنجهام - كامبريدج. وكان لدينا برنامج خاص لطلبة الأبحاث والخريجين، عن الجذور اليهودية للعبادة المسيحية. والعبادة هنا هي Worship وليست العبادة بالمعنى العربي السائد لدينا، والذي يلغي حرية المحبة.

من الأساس نفسه الذي بُنيَ عليه كل شيء في المسيحية الحقيقية، ونحن هنا نقصد -تاريخيًا ولاهوتيًا- الأرثوذكسية، التي رغم تفرعها عرقيًا إلى قبطٍ - روم - سريان روس ..إلخ، إلا أن جوهرها، بل مصطلحاتها وحياتها الروحية واحدة. وأحد أسباب هذه الوحدة هو حياة القديسين؛ لأنك ترى أنطونيوس الكبير في رومانيا وروسيا وكنائس اليونان ولبنان وسوريا والعراق، ومع أنطونيوس ترى أثناسيوس وكيرلس الكبير وباسيليوس، وغيرهم من معلمي الكنيسة الجامعة.

الكلمة

يقول رب المجد: "الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة". وقد ظنَّ السُّذَّج أن رب المجد يقصد مجرد الكلام، ولكن الثابت أن الكلام هنا ليس هو Words بل هو التعليم؛ لأن حتى عبارة رسول المسيح: "كلمة الصليب"، إنما تعني رسالة الصليب، أو التعليم عن الصليب.

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٦ أغسطس ٢٠١٤.

علامةٌ فارقةٌ هامة تفصل اليهودية عن المسيحية، وهي أن كلمات الأنبياء تُعدُّ شهادةً على الإعلان الأخير: "كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه" (عب ١: ١ – ٢). لكن كلام الله ليس هو اللفظ، هنا تفترق الطرق لأن رب المجد يسوع ليس لفظًا ρεμα بل هو Λογος هو شخصٌ، ولذلك، اللوغوس "صار جسدًا"، أي صار إنسانًا.

تعليم الأنبياء هو بالكلمة. هو خطابٌ باللسان مصدره الروح القدس. أمَّا تعليم المسيح بالكلمة، فهو ليس خطابًا باللسان فقط، بل هو استعلانُ الآب الذي أرسله، هو تقديم أبوة الله، وهذه ليست عبارة، بل هي العلاقة الجديدة (لاحظ كيف يقدم رسول الرب هذه الحقيقة التي تفصل بين اليهودية والمسيحية):

"الحياةُ أُظهِرَت
التي كانت عند الآب
وأُظهِرَت لنا" (١ يو ١: ١ – ٢).

ولم يقف رسول الرب عند هذه الكلمات؛ لأنها ليست كلمات:

"الحياةُ أُظهِرَت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية
التي كانت عند الآب وأُظهِرَت لنا".

هل كان رسول الرب يتكلم في عظة؟ بكل يقين لا.

"الذي رأيناه (تجسد الابن الكلمة)
وسمعناه (الاستعلان)
وقبل ذلك "لمسته أيدينا" (١ يو ١: ١ – ٣).
نخبركم به لكي يكون لكم أيضًا شركة معنا،
أمَّا شركتنا نحن فهي مع الآب، ومع ابنه يسوع المسيح
ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملًا" (١ يو ١: ٣).

لا يوجد في العهد القديم كله ما يقابل أو يماثل هذه الحقيقة الفائقة.

عندما قلت إن حضور الاجتماعات الإنجيلية حوَّلت المؤمنين إلى موعوظين، شتمني البعض؛ لأنهم لم يفهموا أن "الموعوظ" هو مَن يستعد لنوال الشركة في المعمودية، وأن هذه الشركة ليست بالكلام.

جيدٌ أن يستمع الكل إلى عظاتٍ جيدة، ولكن هذه العظات تفتقد إلى أهم ما يميِّز المسيحية الحقيقية، وهي الشركة في حياة الرب، ليس بالكلام ولا بالتعليم، بل بالشركة الشخصية الكيانية في شخص وكيان رب الحياة يسوع المسيح.

السلوك الأخلاقي الجيد مطلوب، ولكنه لا يكفي.

في ندوة عن الميلاد الجديد هنا في انديانا، وفي حوار مع مجموعة من الخدام الكاثوليك - الأرثوذكس - الإنجيليين، كان هناك سؤالٌ دار حوله نقاشٌ طويل: هل الولادة الجديدة هي قرار الإيمان أو قبول المسيح كما يقال في العظات؟ وكان الرد أيضًا بسؤال: هل الولادة الجديدة هي Self – Born بمعنى هل يلد الإنسان نفسه بالقرار الإرادي، أم أن الولادة هي من الله؛ لأنها ليست من "دم ولحم، ولا هي من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله" (يو ١: ١٣). الدم واللحم تلغي عمل الإرادة في الميلاد الجديد. مشيئة الرجل هي الزواج، وهي مثل مشيئة الجسد، أي هي قوة مخلوقة، هي ضد "من الله".

وسرت حمى في الحاضرين؛ لأن مَن يلد نفسه، يكون قد ترك الولادة من الله، وظن أن سلوكه الأخلاقي الجيد، وهو هنا الابتعاد عن المخدرات والجنس والخمور والعنف .... إلخ، نقول ظنَّ أن سلوكه الأخلاقي الجيد هو الولادة من الله.

الولادة من فوق، من الله هي تحولٌ كيانيٌّ، ولذلك، فإن تقوى اجتماعات النهضة التي تجعل السلوك الأخلاقي = الولادة الجديدة، هي تقوى مزيَّفة لا علاقة لها بالمسيحية. لا يوجد مسيحي يخلق كيانه، أو كما صاغ المؤتمر – Self

made خلق كيانه، بل هو خلقٌ من جديد؛ لأن هذا هو الاستعلان الذي عرفه الأنبياء بروح النبوة، ولم يدركه وعَّاظٌ ظنوا أن التوبة = الميلاد الجديد.

قبول المسيح = المعمودية

والسؤال الذي يتحدى به الأخوة الإنجيليون ماذا عن الذين نالوا المعمودية ولا يسلكون حسب الإنجيل؟ والجواب: هم ساقطون، رغم التجديد. وهم بلا شك نالوا الحياة الجديدة، ولكن شهواتهم سوف تجعلهم يفقدون الشركة.

جاءت حركة الإصلاح في القرن الـ ١٦ بسبب الفساد الأخلاقي السائد في أوربا، ولذلك كانت الدعوة الأخلاقية هي لُب التعليم الإنجيلي، وغاب التغيير وتحول الكيان؛ لأن كنيسة العصر الوسيط كانت تعطي الأسرار بدون تمييز، وهو الوضع السائد في عصرنا في كل مكان. وكنتُ قد حاولتُ مع الأنبا شنودة الثالث إلغاء "أحد التناصير"، أو على الأقل إعداد الأسرة والأطفال مع رفاع الصوم الكبير، وهو ما كان سائدًا في عصر الأمويين والعباسيين والمماليك، ويبدو أنه انهار في عصر حكم العثمانيين لمصر، ولكن ضاع الطلب -مع إصلاحات ليتورجية أخرى هامة- في معارك سياسية لا داع للخوض فيها.

وعندما ترجمتُ مع د. بروك أستاذ اللغة السريانية مقالة القديس فليكسينوس المنبجي عن هل يفارق الروح القدس الإنسان عندما يخطئ؟ كان الغرض هو كلمة الله التي لا تقيَّد، أي كلمة التعليم التي تبشرنا بالشركة، لذلك أحيل الأخوة والأخوات إلى هذا المقال الفريد[٢].

الكلمة، أي كلمة التعليم، تسبق السرائر؛ لأنها تنقّي وتطهِّر وتكشف سر المسيح للعقل، وتقف عند ذلك؛ لأن الكلمة التي مصدرها روح الرب، تسلِّم الإنسان بعقله وقلبه وإرادته للروح القدس وللرب يسوع لكي يسكن الإنسان في الثالوث.

(٢) "لا تطفئوا الروح لمار فليكسينوس المنبجي"، ترجمة د. جورج حبيب بباوي، الطبعة الثانية، جذور للنشر، القاهرة، ٢٠١٦.

تقوى مزيفة بلا أساس لاهوتي (٥)[١]

فصل الكلمة عن السرائر

لعل أكبر أخطاء حركة الإصلاح في القرن الـ ١٦ كان فصل العروة الوثقى بين كلمة الله الخاصة بالتعليم، والسرائر. كانت هناك حاجةٌ ماسة للتعليم لا ينكرها أي مؤرخ عندما تحول القداس اللاتيني إلى فرض يؤدَّى باللغة اللاتينية، وكانت الأسفار لا تُقرأ إلَّا باللغة اللاتينية. هناك إشارات إلى ترجمة إنجليزية لإنجيل يوحنا قام بها المؤرخ الإنجليزي Bede حوالي ٧٣٥ ولكنها فُقِدت.

كان البابا أنوسنت الثاني قد أصدر مرسومًا بابويًا بمنع ترجمة الكتاب المقدس بسبب سوء استعماله في ١١٩٩ ولكن أول ترجمة إلى اللغة الإنجليزية كانت في ١٣٨٣ ومُنعت بقرار من مجمع الأساقفة الذي عقد في اوكسفورد في ١٤٠٨. ولكن كانت أول ترجمة نالت الانتشار هي ترجمة لوثر إلى اللغة الألمانية في ١٥٢١ وأعقب تلك الترجمة ترجمة Tydale إلى الإنجليزية في ١٥٢٦ ثم توالت الترجمات.

فَتَحَتْ ترجماتُ الكتاب المقدس إلى لغات الشعوب الأوربية الطريق إلى التعليم، ولكن التعليم جعل محور كل شيء هو الكتاب تحت شعار حركة الإصلاح Sola Scriptura أي الكتاب المقدس وحده، واعقبها Sola Fide الإيمان وحده. وضرب هذا الشعارُ حصارًا حول التاريخ الكنسي القديم وكتابات الآباء، بل وشنَّت الحركة حربًا على الرهبنة والنسك على أنها دعوة للخلاص بالأعمال

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ١٣ أغسطس ٢٠١٤.

ضد الخلاص بالإيمان أي التبرير بالإيمان وحده. لاحظ أن هذا الشعار، التبرير بالإيمان هو خطأٌ جاء من سوء أو عدم فهم قراءة رسالة رومية لأن الرسول بولس يضع الصيغة في صيغة المبني للمجهول "إذ قد تبررنا بالإيمان" (رو ٥: ١)؛ لأن حتى العبارة "يُبرِّر مَن هو بالإيمان" (رو ٣: ٢٦) أعقبها: "لأن الله واحد هو الذي يُبرِّر بالإيمان .." (رو ٣: ٣٠) التبرير ليس بالإيمان، أي ليس مصدره الإيمان، بل مصدره الله، والإيمان هو الوسيلة لنوال التبرير.

أفاقت حركة الإصلاح في ألمانيا، وأرسل علماء جامعة Tubingen وفدًا إلى بطريرك القسطنطينية أرميا الثاني (١٥٧٦-١٥٨١) بقائمةٍ من الأسئلة عن عقائد الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية أجاب عليها البطريرك مع أساتذة اللاهوت نُشرت باليونانية والإنجليزية، والألمانية تحت عنوان Augsburg Confession ولكن كانت الأحوال السياسية المضطربة في العالم كله لم تسمح باستمرار الحوار.

يجب الاعتراف بفضل جامعات أوروبا في مراجعة وتدقيق ودراسة التاريخ؛ لأن القرن التاسع عشر مع بداية العشرين شهد اكتشاف الكنيسة الأولى والتي أُطلق عليها اسم Early Church وهي العصر الرسولي الممتد من صعود الرب حتى نهاية القرن الثالث، وبعد ذلك Ancient Church وهي الفترة ما بعد القرن الثالث حتى مجمع خلقيدونية ٤٥١ ولكن جاء النصف الثاني من القرن العشرين لكي يقول إن هذا الفصل هو تعسفٌ في فهم التيار الخاص بالحياة المسيحية المتواصل الذي لم تفصل بينه فواصل زمنية. جاء ذلك أولًا باكتشاف تاريخ قوانين الإيمان، ثم الصلوات القديمة الخاصة بالمعمودية والعشاء الرباني التي سُجِّلت في التقليد الرسولي حوالي ٢٢٦ مع الشذرات التي جُمعت من كتابات الآباء والبرديات والنقوش القديمة وكُتُب المؤرخين المسيحيين، ونُشِرت في ثلاثة مجلدات بعنوان: Worship in the Early Church لمؤرخ معاصر هو Lawrence J. Johnson.

كشفت هذه الدراسات عن ثلاث حقائق أساسية ثابتة عبر خمسة قرون، وظلَّت كذلك حتى العصر الحديث في الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية فقط. والكنائس الأرثوذكسية هي القبطية - السريانية - الأرمنية - اليونانية، وما تفرع منها بعد ذلك في روسيا والبلقان. هذه الكنائس لها أساسات واحدة رغم الانقسام في ٤٥١ الذي نرجو أن نرى له حلًا في أيامنا؛ لأن مديح الكنيسة القبطية الأرثوذكسية الذي يقول عن معاناة هذه الكنيسة "خرجتِ خروج الشجعان"، والشجاعة هي في قبول الآخر المتفِق معنا في كل شيء ما عدا المجمع في ٤٥١ لأن طقس تكريس الأيقونات أُخذ برمته من الطقس البيزنطي، لا سيما الدهن بالميرون حسبما تشهد وثائق التاريخ.

الحقيقة الأولى:

- قانون الإيمان الواحد.
- الحياة الليتورجية الواحدة وذات السنة الليتورجية.
- قبول الآباء معلمي الكنيسة الجامعة حتى القرن الخامس.

الحقيقة الثانية:

- ذات لاهوت السرائر.

الحقيقة الثالثة:

- ذات الحياة الروحية والنسكية.

ورغم اختلافات طفيفة تاريخية في السنة الليتورجية، إلَّا أن أهم مكونات هذه السنة هي الأعياد السيدية، كلها واحدة بلا خلاف، مع ملاحظة أننا نعيِّد عيد القيامة مع كل الكنائس الأرثوذكسية التي لم تغيِّر التقويم.

ما هو التعليم اللاهوتي الكامن في هذه الحقائق؟

أولاً: وهو الأساس المسيحي لعلاقة الشركة بين الثالوث والإنسانية.

- استعلان الآب كأقنوم في تجسد الابن وانسكاب الروح علينا بواسطة الابن.
- شركتنا الكيانية في الابن كوسيط - رئيس كهنة - شفيع - ذبيحة - الابن الوحيد المصلوب والحي إلى الأبد والمستعلَن بالروح القدس شركة كيانية.

ثانيًا: الابن له المجد في كيانه الإلهي المتجسد جعل من الكلمة استعلانًا للشركة، وبلغة العصر الوسيط والعصر الحديث؛ وحَّد الكلمة بالسرائر. بالطبع علينا أن نفهم أن الولادة في المعمودية ليست طقسًا فقط، ولا هي لحظة ولادة جديدة، بل هي علاقة التبني - الشركة في بنوة الابن؛ لأن هذا هو عطاء الوسيط بين الله والإنسان. والمعمودية لا تنتهي بالخروج من الماء، بل تبقى فينا عملًا إلهيًّا دائمًا إلى الأبد، وهو حلول الرب يسوع المسيح فينا بالروح القدس. وعلى أساس البنوة نفهم كلمة الله، فهي ليست خطابًا، بل شرحًا لما يتم فينا من نمو. وهنا يجب أن نحذِّر من الأمور التي تعطل النمو، وهي بالتحديد، الانحراف عن علاقة البنوة إلى الاهتمام بالأمور الوقتية.

ثالثًا: ووحدانية الكلمة والسرائر تظهر بشكلٍ أكبر وأوضح في القداسات؛ لأن القداسات تقوم على ثلاثة قواعد أساسية وهي:

١- استعلان الابن كفادي ومخلص تراه من أول صلاة الصلح حتى تسبحة الشاروبيم (قدوس قدوس ...).

٢- دعوة الابن لنا في العشاء الرباني التي تبدأ من استعلان التدبير إلى «خذوا كلوا - خذوا اشربوا»؛ لأن هذه هي دعوة الابن لكل الكنيسة. وقبول هذه الدعوة: «آمين بموتك يا رب نبشرٍّ وبقيامتك المقدسة». ونحن نبشرٍّ مَن؟ نحن نقبل البشارة بالحي المصلوب لأجلنا.

٣- سر حلول الروح القدس، أو ما يُعرَف بالاستدعاء. وعندما يكتب أحد الأخوة بأن د. سامح موريس يقول إن ما يقدمه هو «جسد المسيح الحقيقي»، لم

يذكر هذا الأخ أن الجسد الحقيقي لا يقدَّم بالكلمة ولا حتى بالنداء: «خذوا كلوا»؛ لأن الرب بفمه الإلهي قال: «أنا أطلب من الآب فيعطيكم معزِّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد. روح الحق تعرفونه لأنه ماكثٌ معكم ويكون فيكم» (يوحنا ١٤: ١٦-١٧). واستدعاء الروح القدس هو:

* على المؤمنين.
* على الخبز والخمر.

وهو يجيء بعد الاعتراف بالتدبير.

عندما فصلت أشكال العبادة الغربية صلوات سر حلول الروح القدس في القداسات واكتفت بكلمات الرب يسوع في علية صهيون. بدأ الشرخ في شكلٍ بدائي، وهو فصل الكلمة عن السرائر، ثم وصل إلى كماله في عصر الإصلاح. حاول يوحنا كالفن تجاوز هذا باستدعاء الروح القدس في قداس جنيف، ولكن هذا حُذف بعد وفاته؛ لأن إحدى قوى حركة الإصلاح، هو حكم الفرد الواحد على الكتاب المقدس واللاهوت، وهو دائمًا حكمٌ قاصرٌ فاقدٌ للأساس التاريخي؛ لأن التاريخ حَفِظَ التدبير.

وحدانية الكلمة والرب في سر الإفخارستيا:

الإيمان بأن الرب يعطينا حياته، أي جسده ودمه هو الذي يمنعنا من الانحدار نحو هاوية العصر الوسيط، والتي سبق الإشارة إليها عدة مرات، وهي بالتحديد:

* تحول الرب الشخص والأقنوم إلى فكرة في العقل.
* تحول السرائر إلى مصطلحات وكلمات لا تقدِّم الشركة الشخصية.

وكلاهما عبارة عن هوة عميقة تجعل الصلوات والتسبيح مجرد وصف لعلاقة خارجية تراه في مئات الترانيم الحديثة، حتى تلك التي دخلت في كتب تراتيل

أرثوذكسية. وعندما تصف أيُّ ترنيمةٍ الثالوث، دون أي إشارة إلى علاقتنا الأبدية وشركتنا في حياة الثالوث، فإن هذه الترنيمة تلقي بنا في مستنقع اللاوعي.

والعبادة الوصفية التي تتناول أوصاف الله هي عبادة يهودية، وقد سمعت د. سامح موريس على إحدى الفضائيات يتكلم عن صفات الله الأدبية في وجود بعض الأخوة، وقلت لهم هذا كلام يهودي محض؛ لأن الوصف الإلهي هو تعظيم يهوه، ولكن في العهد الجديد ما أُعلن من صفات الله مثل القداسة، فهو لأجل تقديس المؤمنين. الله محبة؛ لأن محبة الله تنسكب في قلوبنا بالروح القدس (رو ٥: ٥). الله هو الحكمة؛ لأن الصليب هو حكمة الله التي يرفضها العالم (١كو ١: ١٨، ٢١، ٢٣)، ونحن ننال هذه الحكمة - ولا توجد صفة في الثالوث لا نشترك فيها. وأذكر أن الأستاذ اليهودي الديانة الذي جاء لحضور إحدى محاضرات الجذور اليهودية للعبادة المسيحية سألني عن صفة "ضابط الكل" وابتسم؛ لأنه توقع أننا لا نشترك فيها، فقلت له إن ضابط الكل هي صفة الله في الأواشي: "وأيضًا فلنسأل الله ضابط الكل أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح. نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر ..."، والمحبة والصلاح هما هنا عن الآب وعن الابن أيضًا، وبعد أن نطلب، فإن الطلبة أو الأوشية تؤكِّد لنا أن ما نطلبه هو في دائرة التدبير التي نحن شركاء فيها. بالطبع، نحن لا نضبط أيَّ شيء، ولكن ما سوف يُستعلن في اليوم الأخير هو خضوع الخلقة الجديدة للإنسان الجديد الذي خلقه يسوع المسيح من جديد. راجع بدقة عب ٢: ٥ عن العالم الآتي الذي لم يخضع للملائكة، بل لنا.

وحدانية الأقنوم الذي لا ينقسم إلى لاهوت وناسوت:

المسيح الرب هو إلهٌ وإنسان، وبدقة أكثر، هو الإله المتجسد الله الظاهر في الجسد (١تيمو ٣: ١٦). ولذلك، كل قراءة لأسفار العهد الجديد يجب أن تُفهم

على هذا الأساس الأبدي. وعلى سبيل المثال لا الحصر، كل ما قاله الأنبياء عن الغضب ودينونة الخطاة في العهد القديم، هو محصورٌ في إطار العهد الأول، أي العهد القديم الذي مضى وشاخ وأصبح قريبًا من الاضمحلال (عب ٨: ١٣). أما في العهد الجديد، فإن الآب لا يغضب على أعضاء جسد ابنه، المؤمنين به (أفسس ٥: ٢٩). ونسوق مثالًا آخر أكثر وقعًا، لا نسمعه، وهو كلمات الرب على الصليب: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون»، فنحن، أي البشر، قتلنا وصلبنا، ولكن المحبة التي تواجه الموت على أيدي الإنسانية التي جاء المحب لخلاصها لا تطلب إلَّا الغفران، رغم العداء الشديد من جانبنا، ولذلك يعبِّر القداس الغريغوري عن هذه الحقيقية: «يا الله الابن الوحيد الذي في حضن الآب. الذي حلَّ عداوة البشر». فهل بعد تفوُّق المحبة الإلهية على خطايا الإنسان بما لا يسمح بمقارنة، يمكن أن نزيِّف اللاهوت، ونتكلم عن نظريات الفداء والكفارة، ودفع الثمن؟!!

جاء لكي ينقذنا، صلبناه،
ومع ذلك لم تسقط محبته لنا.

تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (٦)[١]

كيف تحوَّل المسيح رب الحياة إلى فكرة في نظام عقلاني؟

أعود إلى الإفخارستيا، ذلك السر العظيم الذي للتقوى الحقيقية، وهي عبارة الرسول في (١تيمو ٣: ١٦)، وأصلًا: "الله ظهر في الجسد". ولكن هنا في الليتورجية، هي عن استعلان شخص المسيح في وسطنا بالروح القدس وبعطية الجسد والدم. عطية شخصية، أي أقنومية.

كانت دراسة السنة الدينية اليهودية، وتسمى أحيانًا السنة الليتورجية، هي أساس الإيمان في إسرائيل القديم السابق على تجسد ابن الله، فهي سنة:
- احتفالية تقوم على أعياد مثل الفصح – المظال ... الخ.
- وهي سنة تكوَّنت من خلال خبرة ومعايشة الشعب في رحلته مع الله خالقهم وراعيهم العظيم.

وحول هذه السنة، نسجت الجماعة التراتيل المعروفة عندنا باسم المزامير - آساف - بني قورح - داود. والمزامير ليست كلها لداود، ولا نعرف على وجه الدقة إلَّا القليل الذي كان يُرتَّل في الهيكل؛ لأن هيكل سليمان هُدِم، وعندما عاد الشعب من السبي مرَّت العبادةُ بتطوراتٍ كثيرة هي محل دراسة الطلاب في معاهد اللاهوت.

كانت السنة الدينية احتفالًا بالعبور وبخلاص الشعب وبمواعيد الله. هنا يجب أن نذكر أن العبادة اليهودية هي المكوِّن الأول للهوية اليهودية. وما جاء

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ١٦ أغسطس ٢٠١٤.

في أسفار اللاويين والتثنية، وشُرِحَ بعد ذلك بشكلٍ متسع جدًا في المشنا، كان له هدفٌ واحد، وهو فصل الجماعة العابدة لله الواحد عن العبادة الكنعانية. ولذلك إذا قرأنا بعض الأمور التي تبدو شاذةً في نظرنا الآن، مثل عدم زراعة حقل بنوعين من المزروعات، أو عدم لبس ملابس من ألياف مختلفة؛ فذلك لأن الهدف كان هو حصار "الاختلاط" وتحريمه؛ لأنه أولًا خاصٌّ بعبادة الخصوبة Fertility وهذه العبادة لها تفاصيلها في العبادة الكنعانية التي اندثرت أغلب وثائقها. ومن ضمن الأمور المثيرة للدهشة: لماذا تحرِّم الشريعة الموسوية طبخ اللحم مع اللبن؟ والذي زار لبنان يعرف أنهم يطبخون على الطريقة الكنعانية القديمة جدًا طبخة باسم "لحم بلبن أمه"، وهي لحمٌ مطبوخ باللبن. وتحريم ذلك لأن هذه الوجبة بالذات كانت أهم وجبات الاحتفال بالإلهة عشتاروت إلهة الخصوبة عند الكنعانيين (أسلاف السوريين).

والاحتفاليات السنوية كانت مرتبطة بالتاريخ وبالشريعة والكهنوت والهيكل، ولذلك يقول رسول الرب في العبرانيين: "لأنه إذا تغيَّر الكهنوت فبالضرورة يصير تغيُّر للناموس (الشريعة) أيضًا" (عب ٧: ١٢). وقبل ذلك يقول الرسول إن الشعب قبل الكهنوت لأنه كان يخدم الشريعة، وهنا النقطة الفاصلة بين اليهودية والمسيحية؛ لأن الرب يسوع "طلع من سبط يهوذا الذي لم يذكر أو يتكلم عنه موسى شيئًا من جهة الكهنوت (عب ٧: ١٤).

إذن، كانت الاحتفاليات حلقة غير قابلة للكسر، وكان تجاوزها لتدبير التبني أمرًا ضروريًا لكي يأتي "يسوع ضامنًا لعهد أفضل .. يبقى إلى الأبد له كهنوت لا يزول" (عب ٧: ٢٢-٢٤)، لكننا لم ننتبه إلى قوة عبارة الرسول؛ إن الله نفسه نزع العهد الأول "ينزع الأول لكي يثبت الثاني" (عب ١٠: ٩).

وهنا مفترق الطرق.

احتفاليات العهد الجديد:

الذين درسوا تاريخ العبادة، وبالحري الليتورجية المسيحية، اكتشفوا أنها تطوَّرت ونمت مع رحلة الكنيسة. لكن رغم أن الجانب التاريخي الذي تقدِّمه وثائق القرن الثالث والرابع والخامس، بل وما بعد ذلك، تؤكد لنا وجود تطور، إلَّا أن الجانب اللاهوتي الذي يبدو كما لو كان مماثلًا للاحتفالات السنوية اليهودية هو في حقيقة الأمر مختلفٌ تمامًا، وهو ما يظهر فيما يأتي:

أولاً: كانت أقدم الاحتفالات أسبوعية تنتهي بيوم الرب، أي يوم قيامة المسيح، وكان صوم الأربعاء والجمعة هما أقدم الأصوام، ويليهما في القِدَم الصوم الأربعيني، لكن كان كل «يوم أحد» وهو الاسم المدني Civil قد طغى على الاسم اللاهوتي وهو "يوم الرب"، وهو أقدم اسم للاجتماع الأسبوعي الذي -في الحقيقة، بسبب قيامة الرب- أبطل شريعة السبت؛ لأن الاحتفال هنا هو بـــ:

- نهاية الموت.
- نهاية الدينونة.
- استعلان الخلقة الجديدة.
- هبة الحياة الأبدية وغفران الخطايا.
- قيامة الأجساد في يوم مجيء المخلص مرةً ثانية، أو حسب تعبير الليتورجية "ظهوره الثاني"؛ لأنه ظهر قبل ذلك في الجسد.

ولعل كل مَن يدقق في هذه الهبات، يجد أنها أعمال الرب الخلاصية التي تُوهَب بالروح القدس، والتي تُستعلَن في القداسات الأرثوذكسية.

ثانيًا: تختلف العبادة أو الليتورجية المسيحية عن تلك التي في العهد القديم في عدة أمور هامة:

١- إن مركزها وحركتها واستعلانها هو الرب يسوع المسيح. فهو **المركز**؛ لأنه هو الذي جاء بهذا التغيير في شخصه. وهو **الحركة**؛ لأنه دائم الحضور أو المجيء أو تقديم الشركة في حياته. وهو **استعلانها**؛ لأنه هو الذي يعلن الخلاص.

العهد القديم كله برمته كان أيضًا عملاً إلهيًا، ولكنه كان يقوم على "الذكرى"، على تذكُّر الخروج - نزول الشريعة - عبور البحر الأحمر، هذه بكل يقين هي أعمال الله ولكنها حدثت:

- مرة واحدة ولا تُعاد؛ لأن الخروج على سبيل المثال حدث مرة واحدة.
- هي أحداثٌ زمانية تقع في داخل الذاكرة والوجدان، وما يقدَّم من تعليم سواء في المجامع بعد العودة من السبي أو في الهيكل قبل السبي، لا يتعدى التذكُّر.

٢- الاحتفالات بشخص المسيح، ليست احتفالات بأحداثٍ حدثت مرةً وانتهت؛ لأنه حتى عبارة الرب نفسه عن الإفخارستيا: "اصنعوا هذا لذكري"، لا تعني التذكُّر العقلي، فهي ذكرى شخصية، وما يقدمه هذا الشعب من عهد جديد أبدي لا يمكن أن يتغير، بعكس الفصح القديم الذي يذكر فيه الشعب عمل الله كحدثٍ Event تم، والنتائج هي قلب هذا الاحتفال.

عندما كتب الأستاذ جرجس صموئيل عازر كتابه عن "قانون الأرثوذكسية"، وهو كتاب يكاد يكون مجهولاً عند هذا الجيل، سطَّر لنا سطرًا واحدًا، قال فيه إن البروتستانتية هي عودةٌ إلى اليهودية. ولم ينتبه أحد إلى هذا التقرير؛ لأنه لم يكن قد أقام عليه الدليل، ولكن ملاحظة الأستاذ جرجس صموئيل عازر في مكانها الصحيح، ولعل القارئ الذي قرأ السطور السابقة عن العبادة القديمة قد لاحظ المماثلة بينها وبين اجتماعات الاخوة الإنجيليين بكل طوائفهم.

هذا لا يكفي، بل لا بُد من الإيضاح، وهو بكل تأكيد، معروفٌ ومدَّونٌ،

ليس في كتب اللاهوت القليلة جدًا، بل في الترانيم نفسها.

* فقد جاءت عقيدة الكفارة، وبالمناسبة، لا فرق بشأنها بين عوض سمعان، والقس إبراهيم سعيد، والأنبا بيشوي مطران دمياط عن موت المسيح العقابي. كما أن تسجيل هذا التعليم الإنجيلي ورد في كتاب "تأملات في أسبوع الآلام، ٥ كتب" للأنبا شنودة الثالث، حيث تم الخلاص -من وجهة نظرة- يوم الجمعة، وقد عَبرَ الأنبا شنودة الثالث من التدبير المسيحي إلى الفكر وإلى الاحتفال اليهودي، بقوله: "نلاحظ هنا أنه قال دمي الذي سيُسفك، وليس الذي سُفك، وكذلك قال جسدي الذي يُبذل وليس الذي بُذل ... ذلك لأن دمه قد سفك يوم الجمعة، وجسده قد بُذل يوم الجمعة، اليوم الذي تم فيه الخلاص ... إن حديثه يوم الخميس، كان عن الخلاص الذي سيتم يوم الجمعة والفصح الذي احتفل به يوم الخميس، كان رمزًا للفصح الحقيقي الذي للعهد الجديد الذي يُذبح عنّا يوم الجمعة، وكأن الرب أراد أن يقول: إن هذا الفصح الذي تأكلونه اليوم يرمز إلى جسدي الذي يُبذل عنكم غدًا، وإلى دمي الذي يُسفك عنكم غدًا". هكذا أغفلت عقيدة الفداء -حسب تصور هؤلاء- الحضور الدائم للحمل المذبوح دائمًا عن العالم، وصار ذبحُ المسيح على الصليب عملاً انتهى يوم الجمعة قابعًا في فكر صاحبه، وبذلك تحوَّل المسيحُ إلى فكرةٍ في التاريخ، وفقد العهد الجديد الأبدي قوته.

في حين أن احتفاليات الكنيسة الأسبوعية بالقيامة في يوم الرب هي احتفالٌ:

- بمحبة البشر الخطاة.
- بالاتحاد الأقنومي.

وهكذا، مازالت كل الكنائس الأرثوذكسية تحتفل بقيامة الرب في باكر الأحد بقراءة الإنجيل الخاص بالقيامة. ومازال الاحتفال بالقيامة في صلاة نصف الليل: "قوموا يا بني النور - يا بني القيامة" ولا زالت الثيئوطوكيات ترتَّل لتجسُّد

ابن الله من القديسة مريم كل يوم على مدار الأسبوع؛ لأن التجسُّد هو أساس الكنيسة، ومريم والدة الإله هي الشاهد الذي يعيد الإدراك إلى "سر التقوى".

وتَرَكَ التسليمُ القديم، ترتيب الأسبوع، أثره على التسبحة (السنوية)، وهي في الحقيقة الأسبوعية وليست السنوية فقط، في ترتيب أيام التدبير من خلق آدم - السقوط - الوعد بالخلاص - تجسد الرب موته وقيامته - حلوله في الكنيسة بيت الملائكة، والسجود دائمًا للثالوث في آخر كل ذكصولوجية، والأهم هو ثمار عمل الرب يسوع في الاحتفال بأعياد الشهداء والقديسين الراقدين. ولاحِظ أن ذلك يكون بتقديم ذبيحة سر الشكر؛ لأنها العطية التي تجمع الكنيسة كلها، وليست ذكرى أحداثٍ قديمةٍ كما كان يحدث في العهد القديم.

العهد الجديد، وماذا يعني في احتفالية الكنيسة؟

- العهدُ قائمٌ بكهنوت الرب، رئيس كهنة عظيم "قادر أن يرثي لضعفاتنا"، وبعد ذلك يقول الرسول: "مُجرَّب في كل شيء مثلنا بلا خطية" (عب ٤: ١٢)، لكن ذلك لا يقف عند الوصف Description بل "فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمةً ونجد نعمةً وعونًا في حينه" (عب ٤: ١٤-١٦).

- كهنوت الرب أبدي، وضمان العهد الأفضل ثابتٌ في القيامة، وقيامة الرب هي مصدر قيامتنا نحن، وهي قلب الإفخارستيا؛ لأن -لاحِظ- رؤساء الكهنة في العهد الأول كانوا يموتون، ولكن يسوع "قدَّم نفسه مرةً واحدةً" (عب ٧: ١٨ - ٢٧). هل يمكن أن نستوعب حقيقة أن الناموس أو الشريعة أقامت بشرًا ضعفاء يموتون، ولكن الآب أقسم أن يبقى الابنُ كاهنًا إلى الأبد، ليس فقط إلى يوم الدينونة، بل بعد يوم الدينونة. "كلمة القَسَم التي بعد الشريعة (أو الناموس) فتقيم ابنًا مكملًا إلى الأبد" (عب ٧: ٢٨).

الكمال هنا هو الخلود والقيامة.

- لقد حاول كل الذين فسَّروا الرسالة إلى العبرانيين عبور الكلمات الخاصة برئيس الكهنة عن أنه "جلس في يمين عرش العظمة في السموات خادمًا للأقداس والمسكن الحقيقي الذي نَصَبَه الربُّ لا إنسان" (عب ٨: ١-٢). وخدمة الأقداس السماوية هي كل ما هو مختلف عن خدمة العهد الأول؛ لأن نفس سياق الشرح، في نفس الإصحاح يجعل الرسول يقول: "ولكنه الآن (ليس في الماضي مثل العهد الأول) قد حصل على خدمةٍ أفضل بمقدار ما هو وسيط أيضًا لعهد أعظم قد تثبَّت على مواعيد أفضل" (عب٨: ٦).

فلا فرق بين خدمة رئيس الكهنة - والوسيط. ولكن المواعيد الأفضل ليست زمانية؛ لأن الوعد بحلول الباركليت هو وعدٌ بأن يمكث معنا وفينا إلى الأبد، والوعد بالقيامة وعدٌ أبديٌّ، أيضًا الوعد بالبنوة، وكذلك الوعد بميراث الملكوت.

كانت المواعيد في القديم خاصةً بالأرض ومجيء المخلص. أما في الجديد، فهي خاصةٌ بالحياة الإلهية، حياة الذي قال: "أنا هو القيامة والحياة"، ولذلك ينتهي الإصحاح الثامن بالنبوة عن العهد الجديد على لسان أرميا النبي: "إذ قال جديدًا عتَّق الأول (جعله قديمًا) وأمَّا ما عتق وشاخ فهو قريبٌ من الاضمحلال" (٨: ١٣).

لا زلت أذكر اللقاء مع أعظم لاهوتي في الكنيسة اليونانية نوسيتوس الذي كان عميدًا للمعهد المسكوني في جنيف التابع لمجلس الكنائس العالمي. في محاضرةٍ عامة في ذلك المعهد قال فيها: "المسيحي الإنجيلي هو الكتاب المقدس والله وحدهما، ولا شيء آخر". وفي حديث بعد المحاضرة قال: "عندما نتكلم عن حضور المسيح وحلوله فينا، فإن الاخوة الإنجيليين لا يفهموننا؛ لأنهم يعتبرون المسيح شخصًا عاش في الماضي وكل ما نعرفه عنه هو العهد الجديد، وما يتذكره كل واحد على حدة".

المنهج الفردي: أنا على صواب والكل الآخر على خطأ

لم يكن شعار حركة الإصلاح في حينه ضارًا بقدر ما صار ضارًا بشكلٍ مدمِّرٍ بعد ذلك، لا سيما في النهضة الإنجيلية في القرن الثامن عشر التي غادرت تمامًا تراث كالفن ولوثر وتمت مراجعته على أساس غير تاريخي؛ لأن البذرة التي وُضِعت في الحياة والثقافة هي: "الكتاب المقدس وحده - Sola Scriptura"، والايمان وحده - Sola Fide". ذلك لأن تفسير الكتاب المقدس اعتمد على إيمان المفسِّر وحده، وهو الإيمان الخاص الشخصي الذي وُضِعَ فوق كل حقائق التاريخ، بل والثوابت أيضًا، وخَلَقَ اعتراضاتٍ غير تاريخية ضد هذه الثوابت، وكان الهدف من هذه الاعتراضات بشكلٍ مباشر -كما يعرف كل الذين درسوا حركة الإصلاح في أي جامعة أوروبية أو أمريكية- تدمير بنيوية الكنيسة (حسب استخدام استاذنا "زكريا إبراهيم") من خلال القضاء على:

- ذبيحة الإفخارستيا.
- سلطان الكهنوت.
- رئاسة البابا.

هذه البنية Structure تُدمَّر ليس من واقع إتقان دراسة التاريخ المسيحي، بل بخلق نظرية متكاملة تضرب أساس هذه البنية، وهي:

- الفداء العقابي يوم الجمعة ⟵ للقضاء على المطهر.
- الفداء العقابي يوم الجمعة ⟵ للقضاء على ذبيحة سر الشكر.
- شفاعة المسيح وحدها ⟵ للقضاء على شفاعة الروح القدس، وشفاعة الكنيسة، القديسين الأحياء والراقدين.
-رئاسة المسيح للكنيسة ⟵ للقضاء على رئاسة البابا.

والذي يدرك تفاصيل هذه الاعتراضات يمكنه أن يرى بوضوح كيف تحوَّل المسيحُ ربُّ الحياة ورأس الجسد الحي الذي لا يموت، أي جسده الخاص، وهو الكنيسة أيضًا، إلى مجرد فكرة.

ومن الجدير بالذكر أن خلق ازدواجية أو ثنائية بين جسد المسيح الذاتي أو الخاص والكنيسة، كان قد بدأ يظهر بعد القرن الخامس لا قبل ذلك، ولا يمكن تحديده بدقة تاريخية، ونحن نقصد فكرة رئاسة البابا الروماني على كل كنائس المسكونة شرقًا وغربًا.

من هنا جاءت الفِرقُ الإنجيليةُ التي اختلفت على تفسير القليل جدًا من نصوص الكتاب المقدس لكي تخلق عصمة الواعظ أو القس وعصمة الجماعة التي ينتمي إليها، وأصبح لدينا ألوفًا من البابوات الإنجيليين المعصومين من الخطأ العقيدي، بل والسلوكي أيضًا، وبرز في إطار نهضة القرن الثامن عشر حملات التشهير بخطايا الإكليروس الكاثوليكي الأخلاقية لكي ينفصل الشعب عنهم ويدخل في زمرة الجماعة الجديدة، تلك التي قال عنها أحد قادة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي تصلي من أجل غفران الخطايا في كل صلاة: "إنها يجب أن تكون كنيسة الأنقياء"، رغم أن النقاوة -باعتراف القُدَّاسات- خاصةٌ بالمسيح.

العشاء الرباني تذكار عقلي فقط هو أكبر خطايا حركة الإصلاح:

هكذا تحوَّل المسيحُ من شخصٍ حيٍّ حاضرٍ وكائنٍ، بل ويحل في كياننا، إلى نشاطٍ عقليٍّ خاصٍّ بالذاكرة. نتذكره من أجل استعادة الفكر لحدثٍ تم في الماضي، لا من أجل الشركة السرية في الكائن معنا دائمًا لا يفارقنا؛ لأنه هو حسب أوشية الإنجيل: "حياتنا كلنا".

وعندما يصبح المسيح ربُّ الحياة فكرةً في العقل وفي مكونات الذاكرة، عندئذٍ يمكن للإنسان أن يفكر كما يشاء وكما يحلو له حسب ما لديه من قدرة عقلية، وبحسب نموه العقلي والروحي.

المسيح يسوع ملكنا كلنا:

المسيح يسوع يملك الوجود والحياة الحاضرة والمستقبَلة والمصير الأبدي لكل مؤمن. هذه حقيقة أبدية ماثلة في استعلان العهد الجديد.

وعندما سألني القمص مينا المتوحد: هل أنت تملك الرب يسوع؟ انزعجت من السؤال. فنظر إليَّ المتوحِّدُ في شفقةٍ وقال: "**الذي يملك آخرًا دون أن يملكه الآخر، هو نوعٌ من العبودية والقهر لا تسمح به المحبة**". وطلب مني أن أحفظ واسترجع كلمات رسول يسوع في (١كو ١٣: ١-٩)[٢]، وأن أُدقق في التعليم الذي لا يعطي للقهر ولا للتسلط أيَّ مكان. وذَكَرَ عبارةً خالدةً لمار اسحق السرياني: "**العبد لا يفهم حرية المحبة حتى يُعتق بنعمة البنوة**". وقال أيضًا: "**إن التسلط الذي تخلقه الخطية ومحاولة الهروب من الشعور بالذنب والعار والفشل، هو الذي يخلق الاستبداد**". ووضع يده على رأسي كعادته وقال: "**لا تكن مستبدًا لأنك بالاستبداد تخدم الشيطان وحده**".

لذلك، عندما أقرأ أو أسمع عظات تصلني من مصر، أسأل نفسي عن مقدار نمو الواعظ والمعلم، ومدى تحرره من الخوف والشعور بالذنب، وإيمانه المطلق

---

(٢) "إِنْ كُنْتُ أَتَكَلَّمُ بِأَلْسِنَةِ النَّاسِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَلكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَقَدْ صِرْتُ نُحَاسًا يَطِنُّ أَوْ صَنْجًا يَرِنُّ. وَإِنْ كَانَتْ لِي نُبُوَّةٌ، وَأَعْلَمُ جَمِيعَ الأَسْرَارِ وَكُلَّ عِلْمٍ، وَإِنْ كَانَ لِي كُلُّ الإِيمَانِ حَتَّى أَنْقُلَ الْجِبَالَ، وَلكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَلَسْتُ شَيْئًا. وَإِنْ أَطْعَمْتُ كُلَّ أَمْوَالِي، وَإِنْ سَلَّمْتُ جَسَدِي حَتَّى أَحْتَرِقَ، وَلكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَلاَ أَنْتَفِعُ شَيْئًا. الْمَحَبَّةُ تَتَأَنَّى وَتَرْفُقُ. الْمَحَبَّةُ لاَ تَحْسِدُ. الْمَحَبَّةُ لاَ تَتَفَاخَرُ، وَلاَ تَنْتَفِخُ، وَلاَ تُقَبِّحُ، وَلاَ تَطْلُبُ مَا لِنَفْسِهَا، وَلاَ تَحْتَدُّ، وَلاَ تَظُنُّ السُّوءَ، وَلاَ تَفْرَحُ بِالإِثْمِ بَلْ تَفْرَحُ بِالْحَقِّ، وَتَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ، وَتُصَدِّقُ كُلَّ شَيْءٍ، وَتَرْجُو كُلَّ شَيْءٍ، وَتَصْبِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَسْقُطُ أَبَدًا. وَأَمَّا النُّبُوَّاتُ فَسَتُبْطَلُ، وَالأَلْسِنَةُ فَسَتَنْتَهِي، وَالْعِلْمُ فَسَيُبْطَلُ".

بالمحبة كقوة خلاقة إلهية تعطى بالروح القدس تحرر، كثيرًا ما أُصاب بخيبة الأمل؛ لأن عباراتٍ كثيرةٍ تحولت عن معناها الحقيقي، وأصبحت تخدم القهر والتسلط والاستبداد:

- "اقبل المسيح"، أصبحت تعني التخلي عن حرية الاختيار، ولا تؤكد حب الرب لكي تحرر من الأوهام والظنون.
- "آمن بالرب يسوع"؛ لتكن عبدًا لا لكي تكون ابنًا حرًا.
- "على ابن الطاعة تحل البركة"، ذلك الشعار الشيطاني الذي يقال بشكلٍ عام يحمل كل ما في الشر من اعتداء، كأن الطاعة لا الإيمان، ولا المحبة هي مصدر البركة، بل البركة هي من الأسقف أو القس أو الواعظ.

وكثيرًا ما أسمع كلامًا لا يجوز حتى إعادة كتابته.

كيف حلَّت الكنيسة محل المسيح؟ وكيف أخذ الإكليروس مكان الرب يسوع نفسه بدعوى لا أساس تاريخي ولا كتابي ولا إيماني ولا آبائي لها، بأنهم نوابُ المسيح؛ لأن المسيح غاب عنّا، وهو في السماء جالسٌ على عرش، أما هنا على الأرض، فيمثله الإكليروس، في حين أنه هو رأس الجسد (أف ٥: ٢٢ – ٣٢ كول ٢: ١٩)، ولذلك ليس عجيبًا أن يكتب الأنبا بيشوي مطران دمياط على صفحته على الفيسبوك بتاريخ ٢ أغسطس ٢٠١٤: "إن الرب سيبقى دائمًا هو الغائب الحاضر، المختفي الظاهر لأنه هو الحق ....".

كيف يصف أسقفٌ في الكنيسة القبطية اللهَ بأنه "الغائب الحاضر"؟!!!

تقوى مزيَّفة بلا أساس لاهوتي (٧)[١]

فهم الكتاب المقدس بالعودة للآباء، وتزييف الحياة المسيحية

في المقال السابق، فصل الكلمة عن السرائر، عرضنا لجانب تاريخي مختصر عن دعوة حركة الإصلاح: "الكتاب المقدس وحده". وكتب أكثر من قارئ يقول إن د. القس سامح موريس يقدِّم شعارًا جديدًا هو: العودة للآباء لفهم الكتاب المقدس. وهو كلامٌ بريءٌ تمامًا يجوز في وعي السذج فقط؛ لأن صاحب هذا الشعار لا يعرف ولا يدرك أن تعليم الآباء مُودَعٌ في الليتورجية، أي خدمة السرائر. وأن الآباء لهم مكانًا خاصًا في احتفالات الكنيسة السنوية في أعياد استشهادهم أو انتقالهم.

طبعًا، غياب المؤلَّفات الآبائية أضعف التعليم. كما أن محاولة بعض الإكليروس الأرثوذكسي استخدام عقائد حركة الإصلاح، لا سيما عقيدة الفداء والكفارة، عن جهل، والاستمرار في الدفاع عنها في صلفٍ وعناد، هو ما جعل نشر مؤلَّفات الآباء بالعربية ضرورةً لحياة الكنيسة، واستمرارها في الوجود، وتدعيمًا للشهادة، وهنا يهمنا أن ننبه إلى ثلاث حقائق ضرورية لا يجب إغفالها، وهي:

الحقيقة الأولى: الحياة الروحية الأرثوذكسية ليست عودةٌ إلى الكتاب المقدس؛ لأن ما جاءت به حركة الإصلاح هو تحول المسيحية إلى حركة عقلانية Rational بلا سرائر. وصارت الأفكار التي تعتمد على القراءة الفردية لكل فرد، هي ما يربطه بالمسيح، أي حياة عقلية فكرية خاضعة تمامًا للوعي والفهم، وهو

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ١ سبتمبر ٢٠١٤.

هنا الوعي والفهم الفردي. ومع تقلبات الفكر وسيطرة العواطف والمشاعر على الفكر، تعلو الحياةُ وتهبط، ولذلك جاءت حركة النهضة الإنجيلية تحت مطرقة يوحنا كالفن بخمس نقاط شكلت في اللغة الإنجليزية، المختَصَر: T.U.L.I.P.

- وأول حرف T هو Total Depravity
- وثاني حرف U هو Unconditional Election
- والحرف الثالث L هو Limited Atonement
- والحرف الرابع I هو Irresistible Grace
- الحرف الخامس P هو Perseverance of the Saints

١- والحرف الأول T وهو يرمز في الكلمة الأولى Total Depravity إلى فساد الإنسان فسادًا كاملًا عقلًا وجسدًا وروحًا. ويؤيد الإنجيليون وجهة نظرهم بما ورد في مرقس ٧: ٢١-٢٣ – رو ٦: ٢٠ ورو ٣: ١٠-١٢[٢]. ورغم أن بولس قال إن الإنسان هو الذي في حالة عداوة لله، إلَّا أن معظم قادة النهضة قالوا العكس بأن الله هو عدو الإنسان وهو يكرهه، وهذا عكس ما جاء في (أفسس ٢: ١٥).

وعندما يقول الرسول بولس: "كنّا بالطبيعة أبناء الغضب" (أف ٢: ٣)، نجد أن الغضب، حسب العصر الوسيط، هو انتقام الله من الخطاة وتشفِّيه فيهم، بينما نقول نحن في القداس الباسيلي عن الله: "لم تتركنا عنك إلى الانقضاء"، وفي القداس الغريغوري: "أرسلت لي الأنبياء من أجلي أنا المريض". وعبارة "أبناء الغضب بالطبيعة" لا تعني وقوع الإنسان تحت الغضب الإلهي، وإنما تعني أصلًا أننا -حسب الطبيعة الإنسانية- كنّا نرفض الله. والغضب هنا هو غضب الإنسان لا غضب الله، ولعلك قارئي العزيز تلاحظ عبارات الرسول:

(٢) "لأَنَّهُ مِنَ الدَّاخِلِ، مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ، تَخْرُجُ الأَفْكَارُ الشِّرِّيرَةُ: زِنىً، فِسْقٌ، قَتْلٌ، سِرْقَةٌ، طَمَعٌ، خُبْثٌ، مَكْرٌ، عَهَارَةٌ، عَيْنٌ شِرِّيرَةٌ، تَجْدِيفٌ، كِبْرِيَاءُ، جَهْلٌ. جَمِيعُ هذِهِ الشُّرُورِ تَخْرُجُ مِنَ الدَّاخِلِ وَتُنَجِّسُ الإِنْسَانَ»." (مر ٧: ٢١-٢٣). "لأَنَّكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ عَبِيدَ الْخَطِيَّةِ، كُنْتُمْ أَحْرَارًا مِنَ الْبِرِّ." (رو ٦: ٢٠). "كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: "أَنَّهُ لَيْسَ بَارٌّ وَلاَ وَاحِدٌ. لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ. لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ اللهَ. الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعًا. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ." (رو ٣: ١٠-١٢).

- "كنا أمواتًا بالذنوب والخطايا ... حسب دهر هذا العالم".
- "رئيس سلطان الهواء (الشيطان) الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية".
- "الذين نحن كنّا جميعًا تصرَّفنا قبلًا في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار. وكنا بالطبيعة أبناء الغضب"، ثم في ذات السطر: "الله الذي هو غنيٌّ في الرحمة من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها ..".

لسنا أبناء الغضب الإلهي، بل أبناء الغضب الإنساني؛ لأن الغضب الإنساني لا يلد أبناءً إلَّا على مستوى الإنسان في توالد البشر والتشبُّه بالسابقين، فلم يوصَف الله بصفة الغضوب في العهدين القديم والجديد.

و"الغضب" في العهد القديم هو أساسًا رفض الله لكسر العهد. وفي العهد الجديد هو رفض المحبة والصفح والرحمة الإلهية المستعلَنة في المسيح[٣].

٢-أما عن حرف U فهو يرمز في الكلمة الثانية Unconditional Election للاختيار الذي لا قرار فيه للإرادة الإنسانية، بل حسب اختيار الله. وهو يعتمد على قراءة خاطئة جدًا لرسالة رومية الإصحاحات ٩-١١، وسوف نفرد لها دراسة خاصة.

٣- أما عن حرف L فهو يرمز في الكلمة الثالثة Limited Atonement للفداء المحدود. لأن المسيح مات من أجل المختارين، حسب سبق معرفة الله، الأمر الذي يرجع إلى سوء اختيار كلمات الرب في (يوحنا ص ١٧)؛ لأن الحديث كان عن استعلان الآب، لا عن تأسيس الكنيسة، والأهم من هذا أن الاختيار لم يكن موضوعًا شرحه الرب، أو أعلنه في كل خدمته. فبالنسبة للتلاميذ، هم كانوا مع يسوع يسمعونه، وهم ليسوا مختارين بالمعنى الذي يقصده كالفن، ولكنهم

(٣) راجع دراستنا: موت المسيح على الصليب حسب تسليم الآباء ص ١٢٤-١٣٧ – منشورة على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

كانوا مختارين كنواة للكنيسة، أو جذرٍ لها. كما يرجع أيضًا إلى سوء فهم كلمات الرب في أنه يموت عن الخراف في (يوحنا ١٠: ١١-١٥)، حيث أضاف المذهب الإنجيلي أن الجداء لم يُذكَروا في المثل، وبالتالي مات يسوع عن الخراف فقط، بينما المثل هو عن الفرق بين المعلم والراعي الصالح، وهو لقبٌ من ألقاب الملك المختار من الله في العهد القديم، وجماعات المعلِّمين من الفريسيين وغيرهم.

٤-أما عن حرف I فهو يرمز في الكلمة الرابعة Irresistible Grace لعدم القدرة على مقاومة النعمة. والغريب أن من كل عبارات رسالة فيلبي، اختار زعماء المذهب هذه العبارة التي يسبقها سجود كل الخليقة للابن الممجد من الآب في (فيلبي ٢: ٥-١١)، إذ يقول الرسول بعدها: "لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة" (٢: ١٣)، وقبلها: "تمموا خلاصكم بخوف ورعدة"، لكن باقي التعليم هو أن يكون الذين سمعوا الرسالة "أحياء حسب قصد الله افعلوا كل شيء بلا دمدمة ولا مجادلة لكي تكونوا بلا لوم وبسطاء أولاد الله .." (٢: ١٤-١٧). لكن هنا يظهر أن الدمدمة والجدال كانت ممارسات في وسط الجماعة، وهو ما يؤكده الرسول بعد ذلك "إذ الجميع يطلبون ما هو لأنفسهم لا ما هو ليسوع المسيح" (٢: ٢١)، بل لعل الهرب من المعاناة هو ما سبق وحذَّر منه الرسول في نفس الرسالة (١: ٢٩)؛ ".. لأنه قد وهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضًا أن تتألموا لأجله"، وباقي الرسالة يشهد بتداعي الحياة المسيحية في ذات الجماعة راجع (٢: ٤): "لا تنظروا كل واحد إلى ما هو لنفسه"، وهو ما يؤكد مقاومة النعمة وضعف الحياة المسيحية.

٥- أما الحرف الأخير P فهو يرمز في الكلمة الخامسة Perseverance of the Saints إلى الثبات والدوام، أولًا لأن المختار لا يمكن أن يفقد خلاصه. وثانيًا؛ لأن الذي فداه يسوع لن يسقط.

الحقيقة الثانية: الانحراف القاتل بعيدًا عن الهدف:

١- هكذا تمت صياغة الإنجيل كله في هذه المبادئ الخمسة، لتحل محل التعليم الإنجيلي الصادق، وأول ما في هذا التعليم هو موت الرب يسوع عن العالم كله (يوحنا ٣: ١٦ – ١يوحنا ٤: ١٤)، ولاحظ لقب الرب "مخلص العالم".

٢- صارت الحياة المسيحية تصاغ بهذه الصورة، وهو ما أدى إلى مقاومة ورفض الرهبنة - الصوم - النسك - البتولية، وهي كلها، أي الرهبنة والنسك والبتولية، هي "باكورة القيامة وعسل الدهر الآتي"؛ فلا داع بالمرة للبتولية أو الفقر الاختياري أو الصوم؛ لأن من اختاره الله أزليًا لن يسقط من النعمة، والممارسات لا تهم.

عندما كنت أدرس في جامعة كامبريدج (١٩٦٥-١٩٧٠) سألني أستاذ التاريخ الكنسي عن اختيار الله السابق للمؤمنين، هل هو عقيدة في الكنائس الأرثوذكسية؟ وقلت له لم أسمع به إلَّا عند قراءة كُتب الإنجيليين، وهو غير معروف عند كل الآباء حتى آخر مدوَّنة عن العقيدة ليوحنا الدمشقي (٦٧٦-٧٤٩)، ولكن هناك شبهات عند أوغسطينوس بأنه أول من أدخل هذا التعليم المزيَّف، ووصلت الصياغة اللاهوتية في شكلها الذي تطور بعد ذلك عند توما الأكويني، وصارت إحدى محطات تعليم كالفن. وغياب هذا التعليم في الكنائس الأرثوذكسية يعود إلى أن كلمة "اختيار" في (رو ٨: ٢٩)، تنصرف إلى اختيار الجنس البشري وليس إلى أفرادٍ معينين. هكذا قرأ الآباء في الشرق (رو ٨: ٢٩).
٣- وفتح هذا التعليم (اختيار الله السابق) ينبوعًا من السُّم؛ لأنه وضع الإنسان في العالم الغربي أمام معضلة لا يمكن حلها، وهي: هل هو مختار بعلم الله السابق، أم أنه مرفوض؟ وإذا كان رفض الله معناه جهنم الأبدية، بالتالي ارتفع العداء لله نفسه، وتحوَّل إلى الإلحاد ومقاومة الكنيسة أولًا، ثم المسيحية بعد ذلك في ثلاث موجات متلاحقة:

Humanism
Reformation
Enlightenment

والأولى: هي إحدى ثمرات الثورة الفرنسية، والثانية بدأت في ألمانيا، ثم تلاها الثالثة في المانيا أيضًا. تم هذا في فترة لا تزيد على ٢٠٠ سنة، ثم دخلت أوروبا في الحروب الدينية: حرب المئة عام - العالمية الأولى - العالمية الثانية. وفي ثنايا هذا جاءت الثورة الصناعية. ولعل الذين درسوا الفلسفة يعرفون أن أخطر ما كُتب حتى الآن هو كتاب صغير للفيلسوف الألماني (Kant - 1793) يواكب ما عُرف بحركة التنوير، واسمه "الدين في حدود العقل وحده -Religion within the Limits of Reason alone".

وعندما ذكرتُ أنني درست الإلحاد (دراسة الإلحاد هي جزءٌ من منهج الفلسفة، الذي لم يقترب منه أحد بوضوح سوى الأستاذ د. مراد وهبة، وفي حياءٍ -كتاريخ- الأستاذ يوسف كرم)، أطلق مطران دمياط صيحته الغريبة: احذروا، جورج حبيب درس الإلحاد!!! وهي طبعًا صيحة خوف.

فعلًا، لدينا خوف، ولكن الإيمان بالله لا يخلق الخوف، بل يخلق الشجاعة والقدرة على مجاوبة كل ملحد.

إن مأساة عقيدة الاختيار هي: إمَّا الله، أو جهنم.

ومع التعليم بالغضب الإلهي على الخطاة الذي لا يزال يُقال من على منابر الكنائس الإنجيلية هنا في أمريكا حتى ساعة كتابة هذه الكلمات، صار الله أيضًا هو جهنم في اللاوعي.

الحقيقة الثالثة: العودة إلى الآباء هي عودة إلى السرائر Mysteries وإلى الأرثوذكسية:

لقد أشرنا إلى فصل الكلمة عن السرائر. فهل يعرف القس د. سامح موريس أن دعوته إلى الصلاة، تعود أصلًا إلى ما تغرسه المعمودية في الذين ينالون هذا السر؟ فالمعمودية تغرس فينا:

* التبني - حرية أولاد الله.
* الاستنارة - طلب ملكوت الله وبره أولًا.
* تمييز الأبدي على الزماني والتمسك بالأبدي.
* تقديس الجسد والروح.

هذه العناصر الأربعة هي أقل ما يمكن أن يقال، ولكن عندما تصبح المعمودية في المذهب الإنجيلي:

* مجرد انضمام إلى الكنيسة.
* اعترافٌ علنيٌّ بالإيمان.

تذوب كل كلمات الرسول في (رو ٦: ١-٨) عن الشركة في الصلب والموت والدفن والقيامة، وهي القوة الإلهية المستعلَنة في يسوع، والتي بها نولد من جديد، لأننا لا نلد أنفسنا، بل يلدنا الله الآب (يوحنا ١: ١٣ -١٤)، ومن هذه الولادة الجديدة وبحلول الروح القدس، وُلِدَت ونمت ليتورجية الكنائس الرسولية.

وعندما يفقد العشاء الرباني صوت الواهب يسوع، الذي يدعونا إلى تناول جسده ودمه، وبكل وقاحة الإنسان العتيق، نقول إنه ليس جسده، بل هو رمزٌ وذكرى ... الخ، يذوب الاتحاد بالمسيح في تلافيف الذاكرة والفكر والعواطف، ويصبح المسيح فكرةً .. فأي مصيبة أكبر يمكن أن يقع فيها الإنسان، عندما يصبح العقل والإرادة والفكر والعواطف هم اتحاده، الذي مصدره الفكر، لا

يسوع صخر الدهور في الوقت الذي نعيش فيه حياة تتزعزع، ولكن يسوع "هو أمس واليوم والى الأبد" (عب ١٣: ٨)؟

الإنسان الفرد، وفكره هو أساس كل شيء

إذا بدت هذه الكلمات صادقة، فهي بكل أسف الحقيقة السافرة التي لا يمكن تجاوزها؛ لأن الإنسان ينال التبرير بالإيمان وليس من الله، وهو ضد ما جاء في رو ٥: ١. والعبادة محورها الذاكرة التي تقوم فيها بالدور الأساسي مع غياب استدعاء الروح القدس لاستعلان المسيح؛ ولذلك حشدت الاجتماعات ذلك الكم الهائل من الموسيقى والتراتيل لبعث دور الذاكرة. كما أن العظة حلَّت محل الحضور الإلهي للمسيح المستعلَن في العشاء السري، وصارت كلمات الواعظ هي أهم من دعوة الرب: "خذوا كلوا - خذوا اشربوا".

أخيرًا:

ليكن معلومًا أن العودة إلى الآباء تعني:

١- أن العشاء الرباني هو ذبيحة الرب المقدَّمة لنا في كل قداس.

٢- شفاعة القديسين أعضاء جسد المسيح الحية (سوف نقوم -إن شاء الرب وعشنا- بنشر بحث عن شفاعة القديسين على الموقع في القريب العاجل[٤]).

٣- أن الكنيسة جسدٌ واحدٌ في السماء حيث الأحياء في كورة الأحياء من الآباء والنساك والشهداء والقديسين، ومعنا الملائكة الذين صار لهم مكان في جسد المسيح.

---

(٤) صدرت هذه الدراسة بالفعل بعنوان: عبادة أموات أم هي شفاعة القديسين؟ جذور للنشر، القاهرة، ٢٠١٤. وهي منشورة أيضًا على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

٤- أن الملائكة والقديسون الأحياء والراقدون هم معنا في كل معمودية ومسحة ميرون، وفي القداسات والرسامات والزيجات ومسحة المرضى ... إلخ

هل يقبل د. القس سامح موريس كل هذا أم أنه يختار ما يروق له - حسب مبدأ الاختيار السائد في حركة الإصلاح، ويرفض هذه النقاط الأربعة السابقة بدعوى أنها غير موجودة في الكتاب المقدس، وبالتالي يكون قد كشف عن الوجه البروتستانتي الخفي الذي يخدع به البسطاء والسذج الذين تركوا أم الشهداء لأسبابٍ متنوعة وارتموا في حضنٍ آخر لا جذور تاريخيةً له، ولا أساس لاهوتيًا عنده، بل ومبنيٌّ على سوءِ فهمٍ للكتاب المقدس نفسه؟

حول قرار منع التراتيل البروتستانتية (١)[١]

قرارٌ أدخل فرحًا لا يوصف على قلبي. كان أول من منع هذه التراتيل هو القمص مينا المتوحد - قداسة البابا كيرلس السادس. لكني أُحب أن أقول للآباء المسئولين عن الخدمة والأخوة والأخوات الخدام لا بُد من درس عملي في أهم فضائل الأرثوذكسية، وهو تعلُّم "الإفراز".

قواعد التمييز بين ما هو أصيل في التسبيح، وما هو دخيل وضار:

مثالٌ عملي: قارن بين ترتيلة "رنَّ صوتٌ في الأعالي يا تُرى ماذا الخبر"، وبين أي قطعة في أي ثيئوطوكية، فترى الفرق الشاسع.

١- تتوقف الترانيم البروتستانتية عند الوصف الخارجي للعلاقة بيننا وبين رب المجد؛ لأن الخلاص في تعليم حركة الإصلاح تم في الماضي وانتهى، وما يتبقى هو ما يتذكره العقل، وما تقدمه "العبادة" من قراءة وصلوات.

٢- انعدام الاتحاد الشخصي بيننا وبين الرب الذي يعبِّر عنه مرد الثيؤطوكية: «أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له». فعلى سبيل المثال تضع ترتيلة «قد قضى ديني كله الحمل» الصليبَ خارج الحياة المسيحية، فهو خاصٌّ بالماضي، في حين أن الصليب حاضرٌ بقوة في رشم الصليب قبل الصلاة، وهو رشمٌ يأخذ قوته من أختام الميرون الـ ٣٦ رشمًا.

٣- قارن مثلًا ترتيلة "ليه تعيش مسكين يا خاطئ وحزين ... الخ"، وبين ما تنشد

(١) مقالة نُشرت على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في١٧ يونيو ٢٠١٤.

به أُم الشهداء في التسبحة: "لأنه غُلِبَ من تحننه وأرسل لنا ذراعه العالية"، أو مديحة: "مراحمك يا إلهي كثيرة جدًا"، أو ما ورد في الإبصاليات.
الفكر الإنجيلي (البروتستانتي) يؤكد أن الخطية -حتى بعد الإيمان- هي عودةٌ إلى الانفصال عن الله، بينما الأرثوذكسية تؤكد أن محبة الله لا تتغير.

٤- برامج النمو الروحي التي يقدِّمها الفكر الإنجيلي (البروتستانتي) لا تقدم تعليمًا عن عمل الروح القدس في النفس والجسد، ويمكنك أن تقارن بين كل هذه البرامج، ورسائل القديس أنطونيوس أو العظات الروحية للقديس مقاريوس.

٥- لا وجود بالمرة لعقيدة الثالوث؛ لأن الابن دفع الثمن للآب وانتهى عمل الثالوث يوم الجمعة، ولا مجال حتى للكلام عن الروح القدس، بينما يمكنك أن تلاحظ أن كل صلاة في القداسات تنتهي دائمًا «بالنعمة والرأفات ومحبة البشر اللواتي لابنك الوحيد .. هذا الذي له المجد والكرامة مع الآب والروح القدس الثالوث الواحد المتساوي»؛ لأننا وإن كنا نصلي باسم الابن أو نرتل باسم الابن، إلَّا أننا في حضرة الثالوث القدوس. وأرجو مراجعة شاملة لكل التراتيل التي لا وجود للثالوث فيها وإعادة كتابتها.

أخيرًا، أهنيء الأب أسقف المقطم، وأرجو مزيدًا من الإفراز، وبشكلٍ خاص: كيف يثبِّتنا التناول في الرب يسوع، ويجعلنا واحدًا معه بالنعمة وليس بقراءة الكتاب المقدس فقط.

حول قرار منع التراتيل البروتستانتية (٢)[١]

درس عملي في الإفراز:

إذا درسنا ترتيلةً شائعةً «احفظ حياتي ليكون تكريسها لك يا رب» نجد أنها تبدو في شكلها اللفظي بريئةٌ تمامًا، ولكن ما تحت الجلد لحمٌ مختلف تمامًا عن لاهوت التقديس حسب التسليم الأرثوذكسي، ويظهر هذا مما يأتي:

أولاً: التكريس ليس عملاً إراديًا قلبيًا فقط -هذا هو الاتجاه الإنجيلي البروتستانتي الأصيل- لكن في الأرثوذكسية، ولاحظ هذه الوحدة، الهيكل يُرشم بالميرون - الأواني المقدسة - المذبح - المؤمن المسيحي يُرشم ٣٦ رشماً بعد المعمودية. التكريس هنا هو التقديس. إذن، فقد غابت كلمة التقديس وحلَّت مكانها كلمة «التكريس»، وغاب أيضًا أن التقديس هو شركتنا في روح القداسة حسب تعبير رسول الرب في (عب ١٢: ١٠) «لكي تشتركوا في قداسته».

هل ظهر لك الفرق عزيزي القارئ؟

أدعو القارئ أيضًا أن يلاحظ نمطًا آخر من تطرفٍ مخيفٍ حقًا، عندما يكتب مطران دمياط ويقول عن تقديس الميرون أنه «بيد قداسة البابا شنودة الثالث». فقد حذف بهذه الكلمات الفاعل الأساسي في كل تقديس، وهو الروح القدس. الواقع أن البابا يخدم ولا يقدِّس؛ لأن الذي يقدِّس هو رئيس الكهنة الرب يسوع بالروح القدس، وصلوات تقديس الميرون واضحة.

ثانيًا: يبدأ الانحراف باستخدام كلمات ليس لها علاقة بالإيمان لكي يتحول

(١) مقالة نُشرت على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في١٨ يونيو ٢٠١٤.

الوعي والصلاة عن الاهتمام القلبي الحقيقي إلى وصفٍ خارجي. تأمل ترتيلة تقول: "الله محبة ... لذلك ارتل الله محبة. يحبني ... أرسل يسوع ....."، هي على السطح أيضًا بريئة، ولكن اللحم تحت الجلد مريضٌ بالانفصال عن الاتحاد المستيكي بالرب يسوع المسيح نفسه؛ لأن محبة الله الآب ليست فقط في إرسال الابن، بل في عطية الجسد والدم أيضًا. فقد حذفت هذه الترتيلة الإفخارستيا؛ لأن اللاهوت الخفي وراء الترتيلة لا يعترف بالأهمية القصوى للاتحاد السري بالمسيح. حتى الصليب والمصلوب نفسه بات موضوعًا فكريًا معلَنًا في الوعظ. وقلنا في مناسبةٍ سابقة إن تعليم النهضة المعاصرة حوَّل الكثيرين من مؤمنين إلى موعوظين، أي أن هذا الوعظ يقتصر على تقديم الإيمان لا تقديم الشركة. نحن نُصلب مع المسيح، ولذلك نرشم الصليب؛ لأن الصليب غُرِسَ فينا بالسرائر.

ثالثًا: لاحظ الفرق الضخم بين ترتيلة تقول: "أمشي في النور كل حياتي .. قال يسوع أنا حماك ووعده حق لا يزول"، وبين صلاة الخضوع قبل التناول في القداس الكيرلسي: "**يا الله الذي أحبَّنا .. وأنعم علينا برتبة البنوة لكي ندعى أبناء الله. ونحن وهم وارثون لك يا الله الآب وشركاء في ميراث مسيحك**". ولاحظ -عزيزي القارئ- ما هي غاية الطلبة: "**طهِّر إنساننا الداخل كطُهر ابنك الوحيد هذا الذي نضمر أن نأخذه**". أما عن الصراع الروحي فبقية الصلاة تقول: "**فليهرب عنّا كل الزنا من أجل الله الذي من العذراء**"، إذ تعود الينا بتولية ميلاد الرب كهبة روحية داخلنا تعمل لطهارة الإرادة والفكر. "**الافتخار والشر الأول الذي هو العظمة من أجل الذي اتضع وحده من أجلنا**"، ولاحظ أنه هو وحده الذي اتضع؛ لأن اتضاعنا مسيرةٌ طويلة، أمَّا اتضاع الرب فقد تم بالتجسد. "**المخافة من أجل الذي تألم بالجسد عنّا وأقام غلبة الصليب**"؛ لأن الخوف في جوهره هو عدم الإيمان بالحياة الأبدية. "**المجد الباطل من أجل الذي لطم وجلد من أجلنا ولم يرد وجهه عن خزي البصاق**"؛ لأن قبول الألم ينزع من الذات كل مجد باطل. وسوف أترك باقي الصلاة التي تنتهي إلى: "**كل فكر**

أرضي فليُبعَد عنّا من أجل الذي صعد إلى السماء". هكذا دخل الربُّ حياة كل واحد منّا وصار واحدًا معنا، ليس بالفكر والإرادة فقط، ولكن بما جاءت به استعلانات التدبير التي تبدأ بالولادة من العذراء حتى الصعود: وهنا تختم الصلاة: "**هذا الذي بطهارةٍ نتناول من هذه الأسرار النقية ونتطهر كلنا كاملين في أنفسنا وأجسادنا وأرواحنا**". ويصل الأداء الإلهي نفسه إلى هذه العبارة: "**إذ نصير شركاء في الجسد وشركاء في الشكل وشركاء في خلافة مسيحك**"، ثم يختم بتمجيد الثالوث "**هذا الذي أنت مبارك معه مع الروح القدس المحيي المساوي لك**".

ماذا نتعلم؟

لا يكفي أن نمنع، بل يجب أن نذكر الأسباب. المنع دون سبب بمثابة دخولٍ في نفق مظلم؛ لأن كل التراتيل تبدو بريئةً، ولكنها تطرح الوعي في فراغ عقلي. وأذكر عندما كنت طالبًا في القسم النهاري العالي أن طالبًا فُصل من الإكليريكية لسوء سلوكه، وكان احتجاجه بأنه لم يكن يصلِّ ولم يقرأ الكتاب المقدس، ولكن كان سوء السلوك مصدره انعدام تقديس الجسد والشركة في حياة الرب، أي الشركة الكيانية.

رجاء أن نرى في التراتيل التي يُسمح بها ما يلي:

أولًا: شركتنا في الله الثالوث.

ثانيًا: محبة ورحمة الله العظمى في يسوع المسيح التي تُوهب لنا بالروح القدس.

ثالثًا: شركتنا في حياة الرب وشركة الرب في حياتنا نحن كاتحاد حقيقي.

رابعًا: تأكيد دور النعمة الإلهية الأبدي في حياتنا.

ما يخرج عن هذه النقاط الأربع قد يكون مجرد تسلية وبعثٍ للعواطف أو الفكر؛ لأننا لا يجب أن نكتفي بالعلاقة العاطفية والفكرية، بل يجب دعم

وتأكيد الشركة السرية Mystical ووحدتنا بالرب.

أما تعظيم الرب بالفم دون الحصول على نعمه، ودون شركة، فهو مثل من تقدم إلى خطوبة وعندما حان وقت الزواج تراجع عن الزواج.

أين الخداع؟

الترنيم هو إحدى عطايا الروح القدس لنا، ولكن الكلمات التي تُعيد للإنسان مسئوليته وتحذف دور النعمة عن جهل، وتعمل على شحذ الإرادة بدون عمل الروح القدس، هذه الكلمات لا تصنع أي تغيير حقيقي؛ لأن الضعف الإنساني معروفٌ لنا جميعًا، ولكن مهمة التسبيح هي الالتصاق الكامل بالرب: "**عندما نقف أمامك جسديًا انزع من عقولنا نوم الغفلة**» هكذا نقول في تسبحة نصف الليل التي رغم ما فينا من نقائص إلَّا أنها لا تُهمل النعمة: «**قوموا يا بني النور لنسبح رب القوات**"؛ لأننا أقبلنا إلى الأبد النور الأبدي لله الآب ربنا يسوع المسيح.

قارن بين هذه البداية وترتيلة كان صموئيل دكتوريان يرددها:

يا إخوتي يوم الحساب تبكي الجبال والهضاب
لأنه يوم العقاب يا ويل للخاطئ الأثيم

بينما نحن نرتل اللاهوت نفسه عندما نقول دائمًا بعد كل طلبة: "يا رب ارحم"، أو "كرحمتك يا رب وليس كخطايانا". **الخداع هو** كما نقول يبدو في أننا نرمي الكرة في ملعب القلب الانساني ونتركه وحيدًا فقيرًا بدون النعمة وبدون تذكُّر الرحمة الالهية. **والخداع الأكبر** أن نظن أن الصلاة والتسبيح هما كل شيء. الصلاة وسيلة وليست غاية؛ لأن الغاية هو ذاك الذي قال: "أنا هو القيامة والحياة" والذي نقول له: "لأنك أنت حياتنا كلنا".

أُرحب بكل حوار ونقد بنَّاء وكل سؤال مهما كان.
الرب يعين أُم الشهداء في صراعها الداخلي.

حول قرار منع التراتيل البروتستانتية (٣)[١]

لماذا يجب الابتعاد عن هذه التراتيل؟

يقول الرب على لسان أشعياء: «هلم نتحاور»، أو نقدم ما لدينا من حُجج. اسمع هذه الترتيلة التي نهى عن استعمالها البابا كيرلس السادس:

خلني قرب الصليب حيث سار المجرى

من دم الفادي الحبيب داءُ نفسي يبرا

قاعدة إفراز وتمييز

هل تقول كلمات هذه الترتيلة إن دم المسيح يُقدَّم في كأس الإفخارستيا، أم أنه لا يزيد عن كونه فكرة في عقل مَن يرنم؟

الجواب معروف عند الذين قالوا إنني أدعو إلى التعصب والطائفية، ذلك لأنهم لا يقدِّمون دم المسيح في العشاء الرباني، بل يقولون عنه خرافات القرن السادس عشر، أي خرافات حركة الإصلاح وما بعد حركة الإصلاح: إنه رمزٌ وذكرى ... إلخ وباتت كلمات الرب نفسه: "خذوا اشربوا هذا هو دمي"، توضع تحت مطارق الفلسفة العقلية التي لا تفهم **أن الدم حياة، وأن الرب يقدم حياته، وأن الذين يمنعون المؤمنين من الشركة في جسد الرب ودمه، إنما ينكرون كل ما قاله الرب نفسه في يوحنا ٦: ٥٣.**

كل حجة تقال في هذا المجال، أي ضد تقديم جسد الرب ودم هي حجة ضد محبة محب البشر.

---

(١) مقالة نُشرت على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في١٩ يونيو ٢٠١٤.

وعندما يكون دم المسيح فقط:

سال عند الجلجثة

دون أن يوجد في كأس الإفخارستيا، عندئذٍ يكون التعليم المزيَّف قد فصل بين المسيح المصلوب، وبين المؤمنين، ولم يعُد تقديم الدم هو تقديم حياة، بل أصبح -في تعليم العصر الوسيط منذ أنسلم رئيس أساقفة كانتربري، وما بعده- هو الثمن الذي دُفِعَ لله الآب كترضيةٍ للعدل الإلهي، ولا يعطى إلَّا للذكرى، أي ذكرى ما حدث.

هذا تزييفٌ مخيف.

هل بعد هذه الخسارة التي نحذِّرُ منها يقال إنني متعصب؟ أو يقال إنني حلقةُ وصلٍ بين الكنيسة الإنجيلية والكنيسة الأرثوذكسية؟ كيف يمكن لمن شاء أن يكون مسيحيًا بالحق أن يقبل بوجود كنيستين وللرب جسدٌ واحد وليس جسدين، هو الكنيسة التي حملت عار الصليب وجراحه في وادي النيل في عصور الظلام والقسوة التي رأينا بعضها في الأيام الأخيرة؟ أنا لا أعرف إلَّا كنيسةً واحدةً فقط هي أُم الشهداء القبطية الأرثوذكسية التي ولدتُ وعشتُ معظم أيامي فيها.

هل هذه حرية، أم فقدان للشركة؟

كل كلام عن الحرية حسنٌ جدًا؛ لأن العهد الجديد هو الكتاب الوحيد تحت الشمس الذي ذكر الحرية كمكوِّن للحياة المسيحية الحقة. ومع تحفُّظي على كلمة «عبادة» التي لا وجود لها في اليونانية أو القبطية، وهو ما سبق وأشرت إليه في مناسبةٍ أخرى، أريد أن أسأل الأخوة الذين لديهم قدرة على الصراخ بصوتٍ عالٍ: هل حرية العبادة (الخدمة هي الكلمة الأصلية، وهي خدمة الثالوث لنا لا خدمتنا نحن للثالوث)، تعني أن أترنم بغنى المراحم الإلهية

دون أن أشتركَ فيها؟ وأنا هنا أقصد شركةً كيانية، لا كمجرد ذكرى عقلية؟ هل الصلاة هي شركة وخدمة (ليتورجية) الثالوث لنا؛ لأننا نصلي في الابن والروح القدس، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون محاضرات ومرافعات تقال أمام الله الذي لا نعترف حتى بأبوَّته كما كنت أُلاحظ في اجتماعات الصلاة؟

مازلنا نتكلم عن "الله"، مع أن الصحيح هو "الله الآب"، وبالأكثر دقة «أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح". ولكم أن تطلعوا على افتتاحية صلوات الأواشي، هذا هو الفرق؛ لأن كل الصلوات تبدأ: "نسأل الله الآب ضابط الكل أبو ربنا يسوع المسيح ..."، ولكن غابت أبوة الله.

كنت أسمع لسنواتٍ مضت ترتيلة:

نحن بنو الآب الرحيم

وكلنا أخوان

يجمعنا الفادي ..... إلخ

وقال لي القمص مينا المتوحد: يا ابني فين عطية البنوة اللي وهبها الروح القدس؟ فإننا كنّا إلى عهد قريب نقول عن أنفسنا: "أبناء المعمودية"، التي يتم فيها التبني؛ لأن التبني ليس فكرةً في العقل.

تغيب السرائر، أو الأسرار، ويغيب رشم الصليب، ويغيب حضور الثالوث وحلوله في سطنا، ويغيب حضور القديسين والملائكة والشهداء في حين أنهم معنا في ملء كنيسة المسيح، فماذا يتبقى من الكنيسة -بعد هذا الغياب- سوى صورةً هزيلةً تشبه إلى حدٍّ بعيد مريض فقر الدم الذي يظن أنه بكامل الصحة، في حين أنه ليس شريكًا للثالوث، وليس ابنًا إلَّا بالقدر الذي يعرفه، لا بالسر الذي ناله، حتى وإن كان لا يفهمه، وهو لا يأكل خبز الحياة النازل من فوق لأنه مجرد ذكرى، ولا يتناول حياة الرب، أي دمه في الكأس؛ لأنه سُفكَ على

الصليب، ولم يعُد في متناولنا، وبقى فكرةً في عقلنا .... بعد كل هذا، هل هذه مسيحية؟ وهل هذه حركة أم انفلات يجب مراجعته؟

أنا لا أعرف ظروف الخدمة بالمقطم، وكنت أتمنى التمهيد بالتعليم أولًا قبل قرار المنع، وما وصلني من أخبار عن الأب سمعان محزن ومفزع في آنٍ معًا. لكن الموضوع قديم جدًا سبق خدمة المقطم، وقبل أن أُولد بالجسد على أرض مصر، بل هو يعود إلى مطلع القرن التاسع عشر، وهو يحتاج إلى علاج بالتعليم لِما جاء مع حركات النهضة التي لم تُراجَع لاهوتيًا.

فغياب عقيدة الثالوث من التعليم يجد سببه بالتحديد في دفع ثمن خطايا البشر للآب، وهذا في حد ذاته يمزق وحدة جوهر الثالوث.

وغياب عمل الروح القدس في القلب تشهد له الكتب والعظات التي تصدر والتي لا تحتوي على تعليمٍ واضحٍ صريح بأن التقديس هو شركة في ذات قداسة الروح القدس، وهو التعليم الأصيل.

وعندما تعني كلمة "قدوس"، الذي "بلا خطية"، فأيُّ تزييفٍ أفظع من وصف روح الرب بوصفٍ سلبي، أي "بلا خطية"، بينما القدوس تعني الفريد الذي لا مثيل له، وأننا بالتقديس نسترد الخصوصية التي غابت وهي صورة الله فينا.

وعندما يغيب موضوع الإنسان صورة الله ومثاله من التعليم، عندئذٍ يبتعد أي كلام عن الخطية عن الحقيقة.

أكاد ألمح في تعليقات بعض الأخوة أنهم لا يقرأون كما يجب، بل يختارون العبارات التي تسمح بها العواطف لا العقل والإدراك. أنا لم أقل إن كل شيءٍ باطل ماعدا الأرثوذكسية، **ولكن المحور والقلب الضائع هو الشركة الكيانية، أي شركة الحياة في الابن بالروح القدس**، وهو ما سبق ونشرنا عنه دراسة كاملة

بعنوان: "المسيح والمسيحي وشركة الجسد الواحد".

ما حدث في كنيسة المقطم كان يجب أن يسبقه تعليمٌ عن التمييز. ليست الموسيقى ولا الألحان، وإنما المحتوى والمعاني التي لا تعبِّر بشكلٍ دقيق عن الإيمان. **والثالوث القدوس ليس فكرةً أو عبارةً تقال، ولا هو حتى الاعتراف اللفظي، بل حركة المحبة الإلهية في التنازل إلينا، وتحولنا في خدمة الثالوث إلى الوحدة السرية التي تجعل الكنيسة فعلًا جسدًا واحدًا.** ولذلك، "الفرز" يجب أن يكون على قاعدة استعلان الشركة وبواسطة مَن يعرف اللاهوت.

نحن ننشد ونسبح عقائدنا ونصلي ما لدينا من إيمان، وهو إيمانٌ باستعلانٍ يعطي لنا نحن الذين نسبِّح ليس ما يقال باللفظ، بل ما يُوهَب أيضًا. وفصل استعلان محبة الثالوث عن قبولٍ كيانيٍّ لا لفظيٍّ فقط، هو فصلُ مَن يُحرم من الحياة الحقيقية.

لا بُد من لجنة من اللاهوتيين لتنقية التراتيل حتى تلك التي تراكمت في التسبحة الكيهكية؛ لأن روح الانكسار والمذلة لا تتفق مع هبة وعطية التبني (غلا ٤: ٤ - ٦)، بل وحتى ما ورد عن شفاعة القديسين هو بدوره يحتاج إلى مراجعة لأن ما يقال عن فقدان تام للعلاقة بين الخاطئ والمسيح هو خطأٌ فظيع لا يجب السكوت عنه، ولكن في نفس الوقت لا يجب أن تتحول علاقتنا بالمسيح إلى علاقة لفظية.

في المسيحية، الشخصُ يسبق اللفظ، وهو الذي يعطي لكل لفظٍ معناه وهدفه. ولأن الشخص يسبق اللفظ، فالعلاقة الكيانية هي ما يجب أن نحرص عليه في كل التراتيل. وأُكرر إن وصف مجد الفادي دون شركة في هذا المجد هو "عبادة" فارغة من الهدف المقصود منها، وهو الشركة. نحن شركاء الروح القدس بالمعنى الكياني لا حسب قواعد اللغة (عب ٦: ٣)، فنحن ورثة الله ووارثون مع المسيح (رو ٨: ١٧).

وعودة روح التبني إلى خدمة التسبيح هي عودة الحرية الحقة.

حاجتنا ماسةٌ إلى حوارٍ مسيحي، وليس لصراخ الشعارات التي تصلح لميدان التحرير، والتي لا تبني.

حاجتنا ماسةٌ إلى أن نفهم أن خصوصية المسيحية هي شركتنا في الحياة الإلهية التي عبَّر عنها الرسول بولس بتعبير «في المسيح»، وهو يعني الوجود الإنساني في الرب، وهذا ليس لفظًا فقط، بل هو الاتحاد الحقيقي بالرب.

لا يجب أن يقف التعليم عند استعلان ما يقدمه الثالوث لنا، بل يجب أن يصل إلى الحصول على ما يُعطى. والمثال على ذلك، تلك القضية الحائرة عندنا: «التبرير بالإيمان»، وهي عبارة لا وجود لها في رسائل بولس الرسول؛ لأن الإيمان لا يُبرر، ولكن الذي يُبرر هو الله، فالفاعل هو الله وليس الإيمان. والإيمان هو قبول وليس مصدر التبرير. ولاحظ حتى الفعل المبني للمجهول: "إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله" (رو ٥: ١)، وهي تُقرأ خطأ مثل "أجرة الخطية هي موت" (رو ١٦: ٢٣)؛ لأن مَن يدفع الأجرة هي الخطية، وليس الله الذي لم يرد ذكره في هذه الكلمات ابتداءً من عدد ٢١ – ٢٣.

ولو كان الأخوة الإنجيليون قد قالوا: إن التبرير في المسيح يسوع، لصار التعليم كتابيًا؛ لأنه هنا ينقل الإنسان إلى مستوى العطاء الإلهي؛ لأننا حسب النص نفسه، وعندما نفصل التبرير عن الخلقة الجديدة (٢ كور ٥: ١٤ - ١٨)، نكون قد أضعنا هدف التبرير؛ لأننا حسب دقة التعبير "نصير بر الله فيه" (٢ كور ٥: ٢١)، أي في المسيح. هذا الحذف المخيف حقًا هو حرمانٌ حقيقيٌّ من الوجود في الله نفسه حسب تعبير رسول الرب "أُوجد فيه" (فيلبي ٣: ٧)؛ لأن "حياتنا مستترة مع المسيح في الله" (كول ٣: ٣). ونحن لم نعد نسمع "أننا في الله نصلي"، وأننا "في الله نحيا ونتحرك ونوجد" (أع ١٧: ٢٨).

أُكرر، إن التراتيل يمكن أن تصبح العائق الحقيقي للنمو الروحي؛ إذا كانت

توجِّه الإدراك نحو هدفٍ غائب أو بعيد أو مجرد لفظ يقال أو ما لم يُعطَ لنا.

إننا نطلب ما هو كائن، والطلب هو استعدادٌ للقبول.

إننا نسأل؛ لأن الثالوث حاضرٌ دائمًا، والسؤال هو انفتاح الوعي على الحياة التي يسكبُها الآبُ فينا بالابن في الروح القدس.

"أبَّا أيها الآب" هي كلمات الرب نفسه، وهي تعبيرٌ عما نناله ونبقى فيه؛ لأنه يُوهَب لنا بالروح القدس (غلا ٤: ٤ - ٦).

أتمنى للجميع السلامة والسلام.

عودة الوعي اللاهوتي[١]

منذ سنوات حذَّر الأنبا شنودة الثالث من خطر "استخدام الآية الواحدة"، ولكن كما هو واضح من كتاب "بدع حديثة"، وقع هو نفسه في نفس الفخ الذي حذَّر الآخرين منه.

فعبر ما يربو على ربع قرن من الزمان أتقن جيلٌ حشدَ الاعتراضات بالآيات، أو إبراز فكرة معينة تبدو برَّاقة سليمة رائعة دون أدنى محاولة لربط هذه الفكرة أولًا بثوابت الأرثوذكسية، تلك التي أقرها الإيمان النيقاوي وعبَّر عنها قانون الإيمان بكلمات قاطعة. وثانيًا بما حدث من إلغاءٍ تام للتعليم الشامل الذي يضم الخلق والخلاص وتدبير تجسُّد الابن وسُكنى الروح القدس وقيامة الجسد.. يبدو للبعض أن الاعتراض من أجل الاعتراض هو الأرثوذكسية، وهذا في حد ذاته يكشف كثيرًا عن سياق أفكارٍ عامة غامضة، وذلك مثل الاعتراض بنصٍّ واضح: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي"؛ بغرض إلغاء الشركة في الطبيعة الإلهية.. وهو إلغاءٌ يحذف عطية التبني والحياة الأبدية وسُكنى الروح القدس.

الفكرة الواضحة في عقل المعترض هي الاعتراض فقط، ولو بسوء استخدام نصوص الكتاب المقدس، أو مجرد تصوُّر شخصي، ونعرض هنا مثالًا عن ثقافة جيل فقد الوعي اللاهوتي - تعليقًا على مقالنا: "جبل طابور، والجلجثة والقبر"[٢] - وهو اعتراضٌ يسجِّل صاحبه فكرته (نُقِلت حرفيًا) ظنًّا منه أنها صائبة، حيث يقول:

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ١٢ ابريل ٢٠١٣.

(٢) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٢٢ مارس ٢٠١٣.

"إذا كان التجديد قد حدث في إنسانية يسوع كحدثٍ تراكمي يبلغ قمته بالصليب والقيامة، أفهل يعني ذلك أن الهيكل البيولوجي (اللحم والدم) قد تحوَّل وتغيَّر إلى الطبيعة الروحية الجديدة، وبالتالي لم يترك الرب بقيامته إلَّا قبرًا فارغًا؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، فلماذا يترك القديسون حينما ينتقلون إلى السماء جثثًا يعتورها الفساد الطبيعي والتحلل الرمي؟ ألا يعني ذلك أن موت المسيح وقيامته كانا خاصين به؟ وحينئذ ألا يكون مفهوم الخلاص قد ضُرب في مقتل؛ إذ قد فقدنا اشتراكنا معه موتًا وقيامة؟".

وردًا على صاحب الاعتراض، نقول:

إن عودة الوعي اللاهوتي ليست ضرورةً لصاحب هذا الاعتراض فقط، بل لجيلٍ فقد الرؤيا الشاملة، وهي أن بداية التجديد كانت في "البِكر" في "رأس الجسد" (كولو ١: ٢٨) الذي تحوَّل جسده إلى "جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١) لكي يحوِّلنا نحن فيه؛ لأن التحوُّل هو خاصٌّ بالإنسانية. وصاحب الاعتراض لم يدرس رسالة رومية الإصحاح الثامن، حيث يؤكد رسول المسيح أن الخليقة التي "أُخضعت للبطل... ستُعتق من عبودية الفساد" (٨: ٢١).

الآن في زماننا هذا "كل الخليقة تئن"، وفي حالة مخاض الولادة. أمَّا نحن الذين آمنّا بالمسيح "الذين لنا باكورة الروح نحن أنفسنا أيضًا نئن في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا" (٨: ٢٢)، فالجسد نال العربون فقط.

وعندما يقول رسول المسيح: "هوذا سرٌّ أقوله لكم لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمي فساد ونحن نتغير لأن هذا الفاسد لا بُد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت" (١كو ١: ٥١ - ٥٣).

الثوابت هي خاتمة قانون الإيمان، وهي: "ننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي". ويضاف إلى هذا أننا لا نزال كلنا -حتى رسول الرب بولس- في مخاض سوف ينتهي يوم القيامة، ولذلك يقول إننا نحن، وهو معنا "ننتظر مخلِّصًا هو الرب يسوع المسيح الذي سيغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب استطاعته أن يُخضِع لنفسه كلَّ شيء" (فيلبي ٣: ٢٠ - ٢١). لقد غاب من الاعتراض الثوابت الأرثوذكسية وفي مقدمتها قيامة الأموات، كل الأموات.

غاب من الاعتراض أن تجديد ناسوت المسيح يُمنح في السرائر، في المعمودية والميرون والإفخارستيا، وهذه أهم ثوابت الأرثوذكسية.

غاب من الاعتراض أيضًا أن "اللحم والدم"، هو أبلغ تعبير عن التجسد الإلهي: "فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو (يسوع) أيضًا كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت .." (عب ٢: ١٤). فالتجسد ليس قاصرًا على الرب من أجل الرب، بل لأن أحد الثوابت «هذا الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم، وتأنس ... وأيضًا يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه» (قانون الإيمان).

وهكذا عندما نحاصر حياة الرب بهذا الشكل، فإننا ننسى أن القيامة هي لنا؛ لأن الصَّلبَ كان لنا، كما أن التجسد كان لنا "نحن البشر" ولأجلنا.

القبر الفارغ حسب بشارة الملائكة للنسوة هو هزيمة الموت، وليس مجرد قبرٍ فارغٍ. هو فقدان الموت لسلطانه؛ لأن الموت جاء باختيار الرب الحر (يوحنا ١٠: ١٨). ولأن أهم ثوابت الأرثوذكسية هي: "بالموت داس الموت"، فقد قَبِلَ الموتَ في جسده لكي يعطي لهذا الجسد حياةً غالبة الموت. لقد كنّا أمواتًا

بالخطايا، ولكن "الله الذي هو غنيٌّ في الرحمة من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح.. وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع" (أفسس ٢: ٥ - ٦). لكن هذا كله لا يلغي ما أكَّده رسول المسيح عن قيامة الأموات؛ لأننا لم نأخذ بعد "فداء الجسد" من التحلل والفساد والعودة إلى تراب الأرض إلى أن يأتي يسوع في مجده، ولذلك يقول رسول المسيح: "لا أريد أيها الأخوة أن تجهلوا من جهة الراقدين ... لأننا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله معه .. لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس الملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولًا .." (أفسس ٤: ١٣ - ١٦).

ولاحظ دقة تعبير الرسول: "الأموات في المسيح"، هؤلاء مثل أنطونيوس الكبير وأثناسيوس وكيرلس وكل الآباء والشهداء والذين كان لنا شرف معاينة شهادتهم في أيامنا في الإسكندرية والفكرية والكشح وماسبيرو وقوافل شهداء أُم الشهداء، لن تقف عند محطة واحدة في زمان واحد .. تُرى هل يؤمن صاحب الاعتراض بأن يسوع قد دخل إلى مجده لأنه وُضِع قليلًا عن الملائكة لكي يحررنا نحن (راجع عب ٢: ٩) مع حديث الرب مع تلميذي عمواس لوقا ٢٤: ٢٦ حيث يقول الرب نفسه إنه "ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده"؟ لو أن صاحب هذه الأسئلة الاعتراضية فكَّر مليًّا في أن الخلاص يسير حسب التدبير من الولادة الجديدة ومثالها، ولادة يسوع نفسه من العذراء والروح القدس، وهي أساس ولادتنا من الماء والروح، وهي -ما سبق وذكرناه عدة مرات- نقل الجنس البشري من آدم الى المسيح آدم الأخير، وأن مسحته هي مسحتنا نحن، وأن موته هو تحرير إنسانيتنا فيه هو أولًا لكي نتحرر نحن، وأن قيامته هي قيامتنا نحن التي لن تعطى إلَّا للكل في يوم القيامة أقول لو كان صاحب الاعتراض فكَّر مليًّا في خطوات تدبير الخلاص، لَمَا انتهى إلى ما سطَّره.

ومع التدبير تسير الليتورجيا معلنةٌ كلَّ الثوابت التي نعترف بها في صلوات التقدمة (الأنافورا) لكي نصل إلى استدعاء الروح القدس المحيي لكي يعطي لنا «جسد ودم عمانوئيل الهنا».

خطوات عملية لاسترداد الوعي اللاهوتي:

أولاً: دراسة شاملة ودقيقة لكتاب "تجسد الكلمة" للقديس أثناسيوس – "المسيح واحد" للقديس كيرلس السكندري – "المقالات الأربع ضد الأريوسيين"، وإعادة ربط الشرح اللاهوتي بالصلوات الليتورجية.

ثانيًا: "نحن نمارس ما نصلي ونصلي ما نمارسه"، وهي أقرب ترجمة لرد القديس إيرينيئوس على الغنوسيين، ولذلك؛ ولأننا نصلِّي على الراقدين -أرجو قراءة، ويا ليت إعادة نشر -كتاب أستاذنا سمعان ساليدس: "القول اليقين في الصلاة على الراقدين"، فإننا نعلن إيماننا بالقيامة الآتية، وبشركتنا معهم في ذات الحياة الواحدة التي نعبِّر عنها، ليس فقط في قانون الإيمان، بل أيضًا في صلوات المجمع وما بعد المجمع في القداس الإلهي.

أتمنى للجميع -قبل الاعتراض- الدراسة، واسترداد الوعي اللاهوتي الشامل بكل العقائد قبل تقطيع الإيمان إلى أفكارٍ متباعدة لا علاقة بينها ..

ولو قال أحدٌ ما -مهما كان- إننا نتناول الناسوت فقط، فهو في حقيقة الأمر لا يؤمن بالتجسد إلَّا كفكرة في عقله، ولم يضع التجسد في مكانه الصحيح، وهو أن يسوع صار بالتجسد رأس الجسد الكنيسة .. البكر بين أخوة كثيرين .. المتقدِّم علينا في كل شيء، فهو البداءة (كولوسي ١: ١٨)؛ لأننا -كما قال رسول الرب يسوع- قد متنا "وحياتنا مستترة مع المسيح في الله، متى أُظهر المسيح حياتنا؛ فحينئذ تظهرون أنتم أيضًا معه في المجد" (كولوسي ٣: ٣-٤).

- يا يسوع لقد وهبتَ حياتك لنا

- بهذه الهبة نقدِّم حياتنا الترابية لك

- بهذه الهبة ننال الحياة الأبدية فيك وبك

- نُصلب معك ونموت معك لكي نقوم معك

- وقيامتنا عربونٌ أخذناه سيكمُل في يوم مجدك، يوم قيامتنا بالجسد.

+ + +